مُعجم المعَاجِم العربيّة

إعداد
يسري عبد الغني عبد الله

دار الجيل
بيروت

الطبعة الأولى
١٤١١ هـ ــ ١٩٩١ م

اهداء

الى الخليل بن احمد الفراهيدي ...
رجلٌ اعطى الكثير ،
ما اجدرنا بأن نعطيه حقه احتراماً وتقديراً .

يسرى عبد الغني

بسم الله الرحمن الرحيم

مدخل وتمهيد

يطلق تعبير (المعجم) بمعناه العام على كل قائمة تحتوي مجموعة من الكلمات من أية لغة مع مراعاة ترتيبها بصورة معينة ، ذات منهج ، ومع تفسيرها بذكر معناها الحقيقي أو المجازي ، أو بذكر معناها وإستعمالاتها المختلفة ، ويدخل في هذا التعريف المعاجم بمفهومها المعروف لدينا ، وكذلك كتب النوادر والغريب ، ورسائل الألفاظ التي توضع لهدف تعليمي تربوي ، وهي التي تتناول ألفاظاً مستقاة من نصوص يصعب فهمها أو جمعت على نحو خاص .

إن الحاجة الى استخدام المعجم اللغوي حاجة ماسة ودائمة ، بالنسبة إلى دارسي اللغة ، فضلاً عن أهميتها بالنسبة إلى كل من يتكلم اللغة ، ذلك أن قدرة المتكلم على استيعاب المفردات محدودة بمجال ثقافته ، وبميدان تخصصه ومستوى تحصيله ، كما أن تعرض القارىء العادي للنصوص اللغوية في أي مجال ، أمر يتكرر دائماً . إن النصوص تحتوي مفردات ربما لا تكون قد دخلت إلى مجال معرفة القارىء لها ، أو المتعرض لدرسها ، فإذا به يحس بالحاجة إلى استشارة معجم يلقي أمامه ضوءاً ، يعينه على تصور المعنى المراد من اللفظة في ذاتها ، وفي سياقها . ومن الملاحظ لدى من يحسنون استخدام المعاجم ويألفون مطالعتها أنها لا تعطي القارىء المعنى الكامل المراد من الكلمة في سياقها ، والسبب في ذلك أن أساليب استخدام الألفاظ في حركة مستمرة دائماً ، فهي تتأثر باستعمالات الأفراد ، كما تتأثر بعوامل التأثر الثقافي الأجنبي ، فيضيق معناها أو يتسع . غير أن القارىء يستطيع أن يربط بين المعنى المعجمي المنصوص عليه ، والمعنى الذي يستشعره ذوقه

أو يحس أنه مراد لكاتبه عن طريق لمح العلاقة المجازية بينهما ، وبذلك نجد أن معاني بعض الألفاظ قد انقرضت من الاستعمال ، وان معاني أخرى قد لحقت بها وتهتم المعاجم الحديثة عادة ــ على قلتها ــ بتسجيل هذه التطورات الطارئة ، وتفسير الكلمات المحدثة .

وقد لوحظ انصراف كثير من المتعلمين عن استخدام المعجم العربي لحل مشكلاتهم اللغوية ، وهو موقف نشأ عن ضعف علاقة المتعلمين باللغة إبان سيطرة الاستعمار على مقادير الثقافة العربية ، فإذا بأكثر المتعلمين في المدارس والجامعات يصمون اللغة بالصعوبة والجمود والتعقيد وبغرابة ألفاظها ، فيعزفون عن متابعة تثقيف أنفسهم مكتفين بما حصلوا من إلمام سطحي بألفاظ اللغة ، وقدرة هشة على استعمالها ، حتى شاع في الأوساط العامة بما يسمى ثقافة (السندوتش) الملائمة لعصر السرعة ، وما هكذا موقف الدارس الاوربي إزاء لغته ، وما الفرق بيننا وبينهم الا في ذلك الوعي المعجمي الذي تبثه أجهزة التربية والتعليم والإعلام في أذهان تلاميذهم منذ البداية ، فيشب الطالب وقد تمكن من كل المهارات المعجمية الأساسية ، مهما انصرف بعد ذلك إلى فروع دراسية بعيدة عن مجالات اللغة والأدب ، فليست اللغة وسيلة تكسب معيشي ، ولكنها الحياة بكل أحوالها ، والحياة دون لغة موات تحركه الرياح . ومن هذا المنطلق سنتناول موضوعاً يظنه الكثيرون ، ــ وخاصة البعيدون عن مجال هذه الدراسة ــ غير جدير بالبحث ، وربما لا يسمع عنه كثير من المثقفين ، ذلك هو « المعاجم اللغوية كيف نشأت وكيف تطورت ؟ ومن هم أهم أعلامها ؟ » وللأسف الشديد فإن الإنسان يدهش حينما يجد إنساناً مثقفاً أو متخصصاً في فرع من فروع المعرفة وقد يحمل درجة علمية نجده يجهل جهلاً مطبقاً « معاجمنا العربية » بل إن معظم مثقفينا لا يعرفون طريقة الكشف في هذه المعاجم ، ويعتقدون أن ذلك من اختصاص دارسي العربية وحدهم ، فهو شيء لا يعنيهم ، بل ربما نظروا إلى ذلك العمل بكثير من الاحتقار والسخرية .

ومن المسلم به ودون أي مماحكات ان الأوربيين سبقونا في هذا المجال بمراحل عديدة ، فالتلميذ الأوربي يتعلم كيفية الكشف في قاموسه منذ الصغر ، ويتدرب على ذلك ، حتى يتقنه إتقاناً عظيماً ، مما يساعد على الفهم السليم ، والبحث العلمي الجاد منذ الصغر . وعلى العكس من ذلك نجد تلاميذنا اذا صادفتهم كلمة صعبة يكتفون بفهم مشوش ، أو عدم الفهم في أغلب الأحيان .

كل ذلك يجعل الحريص على لغته في موقف كله حسرة وألم على تخلفنا الشديد في هذا الفرع من فروع المعرفة ، والذي يجب أن تخصص له مادة مستقلة تدرس « فن المعجمة Lexicography » بالاضافة إلى طريقة الكشف في المعاجم العربية ، وانني اتطلع بشغف عظيم إلى اليوم الذي يوجد فيه مع كل تلميذ مصري معجم عربي حديث يرجع إليه كلما صادفته كلمة صعبة أو غريبة فيعرف معانيها المختلفة ، ويلم بكل أبعادها الدلالية ، بالاضافة إلى نطقها النطق السليم ، كما يحدث في اللغات الأجنبية التي يدرسها أهلها دراسات عميقة جادة ، ويقومون بعمل أبحاث مستفيضة يوظفون فيها أحدث مناهج البحث العلمي في جميع مجالات اللغة وعلومها ، ويقدمون هذه النتائج مبسطة سهلة دون تعقيد أو حذلقة ، فيقبل عليها الناشئة في حب ، وينطلقون بها خطوات إلى الأمام على طريق العلم والمعرفة ، وإننا لأحوج ما نكون اليوم إلى خدمة لغتنا القومية والتي تتعرض لمؤامرات عديدة من أجل اضعافها وحطها إلى الحضيض ولكن ذلك محال ، لأنها لغة القرآن يحفظها رب القرآن إلى يوم أن يرث الأرض ومن عليها ، ولكن هذا لا ينفي دورنا الحتمي في ضرورة العمل وبأقصى سرعة لخدمة لغتنا القومية ، وإلى تكريس كل جهودنا في سبيل الحفاظ عليها وتقدمها وازدهارها ، أملاً في توطيد أواصر الأخوة بين العرب أجمعين ، ولا شك أن اللغة أهم روابط الوحدة العربية والإسلامية ، بل أهمها جميعاً .

ومن البديهي القول بأن معرفة الباحثين العرب بفن المعجمة ما زالت متخلفة ولا غرو في ذلك فمعرفة الداء هو البداية الحقيقية للدواء والشفاء فنظرة واحدة إلى

المعاجم الأجنبية ، وإلى معاجمنا العربية تؤكد هذه الحقيقة . فقد ألف الأوربيون ــ كما في الانجليزية مثلاً ــ قواميس متنوعة الأغراض ، مختلفة الأهداف ، منها القواميس التاريخية العلمية Historical Scholarly Dictionaries ، وهي التي تتبع تاريخ الكلمات ، وتطور معانيها ، وأصالة الكلمة في تلك اللغة ، وبداية دخول الكلمات الأجنبية في اللغة . وأشهر القواميس التاريخية في اللغة الانجليزية قاموس أكسفورد Oxford English - Dictionary الذي ظهرت الطبعة الأولى منه عام ١٩٣٣ م والنوع الثاني من القواميس في الانجليزية ، هو : القواميس التي تهتم بتحديد نطق الكلمة ، فتكتبها كتابة صوتية دقيقة . ومن أشهر هذه القواميس قاموس العالم اللغوي الإنجليزي المشهور « دانيال جونز » وقد ظهرت الطبعة الأولى منه عام ١٩١٧ م والطبعة الثانية عشرة منه ظهرت سنة ١٩٦٣ م . أما النوع الثالث من القواميس فهي القواميس المتخصصة ، وهي تتضمن قواميس المصطلحات المستعملة في فروع المعرفة المختلفة ، كالمصطلحات المستعملة في البيولوجيا « علم الأحياء » والانتربولوجيا « علم الأجناس البشرية » والعلوم الطبيعية والرياضية .. إلخ وتشرح هذه القواميس المصطلحات شرحاً علمياً وافياً .

والنوع الرابع منها هو القواميس العامة التي تتضمن قوائم الكلمات التي تهتم بها الجماهير ، أو عامة المثقفين .

وتأتي القواميس الاشتقاقية في النوع الخامس وهي التي تهتم باشتقاق الكلمة ، وشرح جميع اشتقاقاتها .

وقد حرصت على ذكر أنواع القواميس في لغة كالإنجليزية مثلاً ، لأن الفرق واضح بين دارسي اللغة العربية ــ وخاصة المهتمين بعمل المعاجم ــ وبين أبناء اللغة . ولست مبالغة إذا قلت إن أكثر القائمين بعمل معاجم عربية حديثة ــ مع الاحترام والتبجيل لهم ــ ليس لهم الدراية المتعمقة باتجاهات وفنون المعجمة في العالم المتقدم ، ولعل الأيام القادمة تظهر لنا طائفة من الباحثين الجادين يتفرغون

تفرغاً كاملاً لوضع معاجم عربية شاملة لكل الأنواع السابقة ، يكملون فيها أوجه النقص في معاجمنا العربية القديمة .

وليس معنى ذلك أن لغويينا القدماء كانوا متخلفين في هذا المجال ، فالحقيقة انهم قاموا بعمل جليل ، ويكفيهم فخراً أنهم الفوا موسوعات لغوية في عهد متقدم جداً ، فالخليل بن أحمد الفراهيدي (المتوفى عام ١٧٥ هـ) ترك لنا معجماً ضخماً مرتباً ترتيباً معقداً يدل على عقلية علمية فذة ، وجاء بعد الخليل علماء اجلاء عكفوا على تأليف معاجم ضخمة الحجم متضمنة آلاف المواد اللغوية مثل « الصحاح » للجوهري ، و« تهذيب اللغة » للأزهري ، و« لسان العرب » لابن منظور الخ .. الخ .. كما سنتحدث تفصيلاً عند الكلام على معاجمنا العربية بإذن الله تعالى .

ولذا فإن العيب في تخلفنا ليس عيب علمائنا الأقدمين ، وإنما العيب في أننا وقفنا عند معاجمهم ، ولم نسر بها خطوات إلى الأمام ، كما فعل الباحثون في اللغات الأخرى ، فانهم استفادوا من علمائنا في نهضتهم اللغوية الحديثة وفي نشاطهم المعجمي .

ولا شك ان الحاجة ماسة الى استخدام المعجم في كل مراحل الدراسة . فالتلميذ الصغير تقابله كلمات صعبة كثيرة يقف أمامها حائراً ، والدارس كثيراً ما تصادفه كلمات غريبة تحتاج الى البحث والكشف عن مدلولاتها المختلفة ، وإن تحديد مدلول الكلمة يساعد على وضوح الفكرة المتضمنة في العبارة ، ويؤدي ذلك إلى الفهم العلمي السليم الذي يدفع بالمعرفة خطوات الى الأمام ، نحن في أشد الحاجة إليها .

ونحاول في هذه الدراسة المتواضعة أن نلقي بعض الضوء على معاجمنا العربية القديمة والحديثة ، وعلى نشأتها وعلى أعلامها ، وأهم الظروف الاجتماعية التي دعت علماءنا الاجلاء لتأليف هذه المعاجم ، ثم نقدم محاولة متواضعة لنقد هذا

التراث فنبين محاسنه وعيوبه ، والأسباب التي تعوق حتى الآن تأليف معاجم عربية حديثة ووافية بالأغراض العلمية ، ثم قمنا باستعراض المدارس المعجمية التي ظهرت في العربية ، وبيّنّا الفروق الأساسية بين هذه المدارس المختلفة ، وبين المعاجم داخل المدرسة الواحدة ، ولهذا سأحاول استعراض كل معجم مبيناً القواعد التي سار عليها ، والأسس التي تجعلنا ننسبه إلى هذه المدرسة أو تلك. وفي ختام دراستي لمعاجمنا العربية سأقدم بعض المبادىء التي أطمع أن تتقدم بهذا النوع من المعرفة خطوة على طريق العلم والمعرفة ، وأرجو أن تكون علامة على الطريق لكل من يعمل في هذا الحقل من الدراسة .

وقد استعنت في هذه الدراسة بكثير من المراجع العربية والأجنبية يضيق المقام عن سردها في هذا التقديم ، ولكنني سأشير إليها في حينها . وقد سبقني للكتابة في هذا المجال أساتذة أجلاء كان لهم السبق والريادة ، وكان لهم فضل تعليمنا وتعريفنا بهذا الفرع الهام من فروع لغتنا الخالدة جزاهم الله خيراً على ما قدموا . وأنا ، وان كنت قد قصرت في شيء ، فانني اعتذر فالكمال لله سبحانه وتعالى ، ويكفيني ما بذلت من جهد حتى أخرج هذا العمل .

وبعد ، فالله تعالى أسأل الصواب في كل خطوة نخطوها على طريق البحث والدرس ، والتوفيق في كل عمل نقوم به ، إنه سميع قريب مجيب الدعوات .

يسرى عبد الغني

المعجم

بين المعنى والأنموذج

القاموس أو المعجم Dictionary هو مرجع يشتمل على مفردات لغة ما مرتبة عادة ترتيباً هجائياً ، مع تعريف كل منها ، وذكر معلومات عنها من صيغ ونطق واشتقاق ومعان واستعمالات مختلفة ، مثال لذلك « المعجم الوسيط »[1] لمجمع اللغة العربية بالقاهرة .

ومن الممكن أن يكون مرجعاً به قائمة مرتبة ترتيباً أبجدياً لمصطلحات موضوع أو علم معين مع ذكر معانيها ، وتطبيقاتها المختلفة مثال ذلك : « قاموس الألفاظ والاعلام القرآنية »[2] لواضعه محمد إسماعيل إبراهيم . وقد يكون مرجعاً به مفردات لغة ما مرتبة ترتيباً أبجدياً ومترجمة الى لغة أو لغات أخرى ، وقد يقتصر هذا النوع على مصطلحات موضوع أو فرع معين من فروع المعرفة . مثال ذلك :« قاموس النهضة » المطبوع في الفترة ما بين (١٨٩١ — ١٩٦٢) وهو

---

(١) قام بأخراج المعجم الوسيط الاساتذة الاجلاء : ابراهيم مصطفى ، وأحمد حسن الزيات ، وحامد عبد القادر ، ومحمد علي النجار واشرف على طبعه ومراجعته الاستاذ عبد السلام محمد هارون (١٩٦٠ — ١٩٦١) ويقع في ١٠٨١ صفحة في مجلدين .

(٢) معجم الالفاظ والاعلام القرآنية — القاهرة ، دار الفكر العربي ١٩٦٩ ، ٢٩٨ صفحة ويشمل جميع الفاظ القرآن مرتبة الفبائياً وفق اوائل اصولها ، ويفسرها لغويا وحسب استعمالها في السياق القرآني . يبين عدد مرات ورود كل لفظ ومواضع نصوصه في السور والآيات ، مع تعريف بالأعلام التاريخية والجغرافية .

صدرت الطبعة الاولى عام ١٩٦١ في ٤٣٩ صفحة والطبعة الثانية مزيدة ومنقحة وهي التي اعتمدنا عليها .

ويظهر أن هذا المعجم لم ينل شهرة المعجم المفهرس للأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي رغم جهد محمد اسماعيل ابراهيم الجاد والدءوب .

قاموس انجليزي / عربي وضعه إسماعيل أدهم وراجعه محمد بدران وإبراهيم زكي خورشيد ويقع في مجلدين ويحاول تغطية الفاظ اللغة الانجليزية وخاصة الحية منها ، مع اهتمام كبير بالمصطلحات العلمية والفنية وكذلك العبارات الاصطلاحية ويعطي مقابلها باللغة العربية . ومثال آخر معجم المصطلحات الفنية انجليزي / عربي ، نشره التدريب المهني للقوات المسلحة ويهتم أساساً بالمصطلحات التقنية ، ويحوي بالإضافة إليها مصطلحات في العلوم البحتة ؛ يعطي المقابل العربي للمصطلح الانجليزي ، مبيناً موضوع المصطلح بين قوسين بعد المقابل العربي . صدرت طبعته الأولى عام ١٩٦٢ م .

وإذا أطلق لفظ « القاموس » انصرف الذهن مباشرة إلى القاموس المحيط للفيروزابادي الذي عاش في الفترة ما بين (٧٢٩ هـ و ٨١٧ هـ) .

وهناك قاموس القوافي : Rhyming Distionary وهو نوع من المعاجم المتخصصة والمعروفة في أغلب الحضارات الاوربية والتي ترتب فيها المقاطع الأخيرة للكلمات ترتيباً أبجدياً . وتحت كل مقطع جميع الكلمات التي تنتهي به ، والغرض من هذا مساعدة الشاعر في إيجاد الألفاظ التي تنتهي بالمقاطع التي تتطلبها قوافيه . ومع أهمية مثل هذه المعاجم للمبتدىء في نظم الشعر إلاّ أن كثرة اللجوء إليها يؤدي حتماً إلى الافتعال والتكلف . ويشبه هذا فهارس القوافي في بعض الكتب العربية إلا أن هذه الفهارس مقصورة على القصائد التي وردت في كتب معينة مثال ذلك : فهرست القسم الاول من « شرح المختار من لزوميات أبي العلاء » للبطليوسي الذي نشره مركز تحقيق التراث التابع لهيئة الكتاب سنة ١٩٧٠ م .

وهناك معاجم البلدان أو القواميس الجغرافية Grazetteer وهي فهارس ترتب فيها المواقع الجغرافية على حروف المعجم ، ويحتوي بيانات تاريخية وجغرافية واجتماعية عن هذه المواقع مثال ذلك معجم البلدان لياقوت الحموي المتوفى ٦٢٦ هـ .

ومعاجم التراجم Bigraphical Dictionary وهي مؤلفات تضم ترجمات لحياة

المشاهير مرتبة ترتيباً هجائياً مثل معجم ياقوت المتوفى (٦٢٦ هـ) المسمى : « إرشاد الأريب إلى معرفة الاديب » .

وهناك المعجم الخاص : Glassary وهو معجم لمصطلحات فرع من فروع المعرفة أو لهجة من اللهجات وذلك مثل « معجم الجيولوجيا » الذي أصدره مجمع اللغة العربية بالقاهرة سنة ١٩٦٥ في ١٣٠ صفحة ويستمد مادته مما أقره المجمع من مصطلحات حتى الدورة التاسعة والعشرين (١٩٦٢ ــ ١٩٦٣) ويشتمل على نحو ١٢٠٠ مصطلح ، مرتبة على حسب حروف الهجاء اللاتينية . ويعطي المقابل العربي وتعريفاً مختصراً للمصطلح . ويراعي ترقيم المصطلحات لتسهيل الإحالة إليها من الكشاف الألفبائي للمصطلحات العربية الملحق بالمعجم . ومن أنواع المعاجم معجم المفردات Lexicon وهو الكتاب الذي يضم بين دفتيه كلمات لغة ما مفسرة تفسيراً واضحاً أو مترجمة إلى لغة أخرى . والأصل في استعمال هذا المصطلح باللغات الأوروبية تخصيصه بالكلمات الواردة في اللغات القديمة التي كانت تدرس في جامعات أوربا في عصر النهضة وهي اليونانية القديمة والعبرية واللاتينية والعربية والفارسية ثم استعمل بمعنى أنه معجم يختص بموضوع ما ، لا بلغة معينة من اللغات .

وهناك المعجم المفسر : Glassary وهو معجم لكلمات صعبة أو عويصة مصحوبة بشرحها وذلك مثل : « تأويل مشكل القرآن » لابن قتيبة (٢١٣ هـ ــ ٢٧٦ هـ) .

وهناك كشاف الألفاظ أو المعجم المفهرس Concordance وهو جدول أبجدي لكل الكلمات الواردة في نص ما ، وخاصة الكتب الدينية ومؤلفات كبار الأدباء ، مع تحديد مكان ورودها ، مثال ذلك المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم للأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي .

على كل حال فالمعجم بالمعنى العام ما هو إلا مجموعة من كلمات لغة ما مرتبة

ترتيباً خاصاً. وبهذا فانه مطلق على كل الكتب التي تضم قوائم من الكلمات ككتب النوادر والهمز والحيوان وخلق الانسان وغريب الحديث. لكن قبل أن نسترسل في الحديث عن مصطلح معجم ونحدده التحديد النهائي لا بد أن نتتبع مادته وهي العين والجيم والميم، ففي معجم الصحاح للجوهري، (ص ١٩٨٣) نجد أن المادة تطلق على غير العرب لأنهم لا يبينون كلامهم، كما انها تطلق على الذي لا يفصح ولا يبين كلامه وإن كان من العرب، ومن معناها أيضاً النقط بالسواء، مثل التاء عليها نقطتان. يقال أعجمت الحرف أي نقطته. ومنه حروف المعجم أي حروف الخط المعجم أي الذي أزيل ابهامه.

فمصطلح المعجم يطلق على كل كتاب يضم أكبر كمية من ألفاظ لغة معينة، وبهذا التحديد للمصطلح نخرج مجازاً من المعاجم الرسائل الصغيرة التي كانت تضم بعض الكلمات الغريبة أو النادرة... الخ.

ولعله من الطريف أن نعلم أن كلمة قاموس Dictionary في اللغة الانجليزية، وشكلها اللاتيني Dictionarius معناها جمع الكلمات Collection of words، وكانت مستعملة حوالي عام ١٢٢٥ م، فقد استعملها جون جارلند John Garland كعنوان لقائمة من الكلمات اللاتينية ليتعلمها الطلاب وكانت هذه الكلمات أو كما تسمى مخطوطات جارلند غير مرتبة أبجديا. أما المصطلح الآخر Lexicon فهو يرجع إلى أصل يوناني.

وسميت المعاجم باسم «القواميس» نسبة إلى معجم الفيروز ابادي والمسمى بالقاموس المحيط، ومعناه البحر الواسع. ثم اشتهر هذا الاسم وأطلق على المعاجم اللغوية كلها.

ومما لا شك فيه أن العرب سبقوا في هذا المجال. فقد ألفت أمم كثيرة في هذا الفرع من المعرفة ألفت الكثير من المعاجم حفاظاً على لغتها، وتفسيرا لبعض

مفرداتها الغامضة. ولم تكن معاجم بالمعنى المفهوم الآن وإنما كانت رسائل[1] تضم قوائم الكلمات الصعبة والأجنبية والنادرة.

ولن نتتبع كل ما ألف في اللغات المختلفة من معاجم، وانما سنلم إلمامة سريعة بالمحاولات التي وجدت عند الأمم المختلفة.

المعاجم البابلية والآشورية.

أمم جاءتنا أخبارها الثقافية، وكانت تزخر بحضارات عظيمة في العصور القديمة، منها دولة بابل وأشور، واليونان، والهند، والصين، والرومان.

أما أهل بابل وآشور Babylanians, Assyrians فقد كانوا أصحاب حضارة عظيمة ألفوا في كثير من فروع العلم والمعرفة، وقد قاموا بعمل القواميس الأولى لشرح الرموز التي كان يكتب بها، واننا نعلم أن الكتابة الأولى عن البابليين والآشوريين كانت كتابة صورية، فإن الرمز الذي كان يستعمل هو صورة بدلاً من الحروف التي نكتب بها في لغتنا العربية مثلاً، ولما قضت الكتابة المقطعية ـــ ذات الحروف التي تكتب بها ونعني بها الرموز الأبجدية والتي لها قيمة صوتية ـــ على الكتابة المصورة القديمة، فإن الرموز الأولى أصبحت غير مفهومة، لهذا نظمت المقاطع لتفسير رموز الكتابات المصورة. وهذه التفسيرات مسجلة على اسطوانات رأسية في ألواح خزفية، وقد وجدت مثل هذه الألواح في المكتبة العظيمة للآشوريين Ashurlanipal (٦٦٩ ـــ ٦٣٣ ق.م.) في بلدة Nineveh نيانيقيا، وهي المصدر الرئيسي لمعرفتنا بثقافة ما بين النهرين ويبدو أن كثيراً من نفس هذه الاستعمالات والتفسيرات للغة الأشوريين والبابليين قد استعملها الصينيون واليابانيون[2].

---

(١) Clliers Encyclopedia Vol. 12 P. - 319

(٢) راجع: The Encyclopidia Americana مجلد ٩ ص ٨٨.

وقد اهتم الأشوريون بلغتهم الأكادية ومفرداتها وقواعدها قبل العرب بما يزيد عن ألف سنة، وحاولوا في نفس الوقت أن يضعوا قوائم من الرموز السومرية المصورة ومرادفاتها بما يوضح قيمها الصوتية ومدلولاتها بالأكادية، وكانوا يرتبون المفردات اللغوية حسب موضوعاتها التي ترتبط بها.

وبهذا فإن هذا الترتيب يخالف الترتيب الذي سارت عليه أكثر معاجمنا العربية، أو الخط الرئيسي في التأليف المعجمي العربي، وهو الترتيب اللفظي. أما المعاجم العربية المعنوية، وهي التي سارت على ترتيب المفردات حسب معناها فانها كانت رسائل صغيرة، وانما يطلق عليها معاجم تجاوزاً، كما أن الحضارة البابلية الأشورية كانت قد ماتت قبل أن تظهر الحضارة العربية الإسلامية بقرون طويلة مما يبعد احتمال تأثر العرب بالبابليين والأشوريين[1].

المعاجم الصينية.

أما الحضارة الصينية فهي حضارة قديمة ترجع إلى القرن الثالث أو الثاني قبل ميلاد السيد المسيح عليه السلام.

وقد عرف الصينيون المعاجم قبل العرب، وألفوا معاجم كثيرة بعضها مرتب حسب المعنى وبعضها مرتب حسب الصورة، أي الرمز الكتابي للكلمة، وبعد قرون طويلة عرف الصينيون ترتيب المعاجم حسب اللفظ، أي الترتيب الصوتي.

وأول معجم وصلتنا أنباؤه هو معجم كويّ وانج **Kuyewang** وقد سماه يوبيان **Yupien** ثم معجم اسمه شووان **Shwoman** ألفه هوشن[2] **Hu-Shin** وقد طبع هذا المعجم في عام ١٥٠ق.م.، ثم معجم أرهيا **Erhya** وهو يرتب المفردات حسب

---

(١) انظر مذكرات في المعاجم العربية للدكتور محمد سالم الجرح — ١٩٦٦م.
(٢) مقدمة الصحاح ص ٤٠ لأحمد عبد الغفور عطار.

موضوعاتها الى ثلاثة عشر باباً، والسمة الغالبة في ترتيب المعاجم عند الصينيين هي الترتيب الصوري، لأننا نعلم أن اللغة الصينية لغة صورية، أي أنهم يستخدمون الصور كرموز للكتابة، ومثلها في ذلك اللغة المصرية القديمة «الهيروغلوفية»، أي أنهما ليستا أبجديتين، لهذا فإن المعجم الصيني كان يجمع الصور المتشابهة تحت باب واحد، ثم يبين نطقها ومعناها.

أما أول معجم صيني يرتب المفردات حسب نطقها لاسمها، هو معجم هوفاين Hufayen الذي ألف فيما بين عامي ٥٨١ ــ ٦٠١ ميلادية، ويعتبر هذا تطوراً كبيراً في كيفية الترتيب عند الصينيين.

ونلاحظ أن المعاجم الصينية تخالف في تنظيم مفرداتها التنظيم الغالب في المعاجم العربية، حيث تقوم المعاجم الصينية على الترتيب المعنوي أو الصوري، ولم يبدأ فيها الترتيب اللفظي أو الصوتي إلاّ في بداية القرن السابع الميلادي في معجم هوفاين، أي قرب ظهور المعاجم العربية، مما يبعد احتمال تأثر العرب بالصين في ترتيب المعاجم.

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى، فان البعد المكاني بين هاتين الأمتين يبعد نهائياً احتمال التأثر. بل ان احتمال تأثر الصينيين بالهنود في التنظيم حسب النطق احتمال كبير، وكما نعلم فإن الهنود كانوا متقدمين في الدراسات الصوتية، مما جعل البعض يقول إن العرب أنفسهم تأثروا بالحضارة الهندية في الدراسات الصوتية.

المعاجم الهندية

لقد كان بين العرب والهنود صلات تجارية كثيرة مما جعل الكثير من الباحثين يقولون ان العرب تأثروا بالهنود في بعض فروع الدراسات اللغوية وخاصة فرع الأصوات.

ونجد أن أول كتاب هندي تصلنا أخباره كان في نحو اللغة الهندية القديمة والذي يسمى بانيني Panini وألف هذا الكتاب حوالى عام ٣٠٠ ق.م. ولذا يقال دائماً ان قواعد النحو وضعت أولاً في اللغة السنسكريتية قبل دراسة المستويات الأخرى من اللغة.

وقد ألف الهنود كثيراً من المعاجم التى تشرح ألفاظ نصوصهم الدينية وأشعارهم. وأقدم معجم هندي هو معجم «الأماراكاكا» The Amarakaca، الذي يرجع الى القرن الخامس الميلادي، وهو يرتب الألفاظ حسب معانيها. وهذا الترتيب كما نعلم، يخالف الترتيب الرئيسي في معاجمنا العربية. ثم أخذ الهنود بعد ذلك يؤلفون معاجم مرتبة حسب المعنى، ولم يستقر الهنود على ترتيب منظم منطقي إلا في القرن العاشر الميلادي. أما قبل ذلك فقد كانوا يرتبون بطرق مختلفة، بعضها بحسب الموضوعات، والبعض بحسب شكل الكلمة. وفي القرن العاشر استقر الهنود على الترتيب الأبجدي، وفي هذا الوقت كانت المعاجم العربية قد ظهرت، وان كان الخليل بن أحمد الفراهيدي قد رتب معجمه حسب الأبجدية الهندية، مما جعل بعض الباحثين يقول: ان الخليل اتبع النظام الأبجدي للنحويين الهنود والذي يبدأ مع الحلق ويسير إلى الشفاه[1]، أقول إنه بالرغم من هذه الأقوال الا أن ذلك لا يؤكد تأكيداً قاطعاً تأثر الخليل ابن أحمد بالهنود في ترتيب معجمه العين.

المعاجم اليونانية.

قبل ميلاد السيد المسيح بثلاثة قرون كانت الدراسات اليونانية في الفلسفة والعلوم والطب واللغة وغيرها متقدمة تقدماً عظيماً.

---

(١) دائرة المعارف الأمريكية مجلد ٩ ص ٨٨.

ومن المعروف أن العرب تأثروا في الدراسات الفلسفية والنحوية باليونان وطبقوا كثيراً من المبادىء الفلسفية والمنطقية في الدراسات النحوية. ولكن ذلك التأثر لم يأت إلا بعد شيوع الترجمة في عصر المأمون من اليونانية إلى العربية، ففي هذا العصر ترجم «إسحاق بن حنين»، «وحنين بن إسحاق» كثيراً من الكتب اليونانية، وكان ذلك بعد تأليف أول المعاجم العربية وهو تأليف كتاب العين للخليل بن احمد.

لهذا نبعد احتمال تأثر العرب باليونان في التأليف المعجمي للسبب السابق الإشارة اليه في حديثنا عن المعاجم الهندية والصينية، كما أن المعاجم اليونانية تخالف في ترتيبها المعاجم العربية.

ولكن دعنا أولاً نلقي نظرة على حركة تأليف القواميس عند اليونان.. مما لا شك فيه أن اليونانيين هم آباء المعاجم الغربية الحديثة، فقد أكمل أرسطوفانس البيزنطي (٢٥٧ ــ ١٨٠ ق.م.) أمين مكتبة معبد الاسكندرية، قائمة الكلمات اليونانية الغريبة والصعبة ثم فسرها وحدد معانيها. وكتب بامفليوس السكندري Pamphilus (٥٠ بعد الميلاد) قاموساً في (٢٥) كتاباً استوعب فيه القواميس الكثيرة التي سبقته. كما ألف إليوس دينسيوس (١٢٠ بعد الميلاد) قاموساً للكلمات الاثينية[1] Attic words في عشرة كتب، كما ألف بولكس معجماً معنوياً، والف فاليريوس فيلكس وكان في عهد الامبراطور أغسطس، قاموساً أسماه «في معاني الألفاظ»، وما يزال موجزه باقياً حتى الآن، وصنف اريون الطيبي (نسبة إلى مدينة طيبة المصرية القديمة)، والذي عاش في النصف الاول من القرن الخامس الميلادي، قاموسا في اشتقاق الكلمات Etymological Dictionary.

وأما أعظم القواميس اليونانية اتساعاً في القديم فقد ألفه هسكيوس

(١) The Encyclopedia of Eslam Vol. 11 p. 887

السكندري ، الذي عاش في القرن الخامس الميلادي ، وهو يتضمن أسماء المراجع لكل تقرير مكتوب .

وقد أحرز اليونانيون القدماء قواميس لاواني الطبخ والشرب والكلمات الغامضة والمترادفات وكلمات اللهجات ، بالاضافة إلى وجود قواميس للأشعار الدرامية العاطفية Tragic ، والهزلية Comic ، وقواميس لابوقراط الطبيب وأفلاطون الفيلسوف وفلاسفة آخرين[١] .

ومن هذا الاستعراض السريع نستطيع أن نؤكد أن أجدادنا العرب لم يتأثروا بالمعاجم اليونانية عن طريق الترجمة ـ كما اسلفنا ـ التي لم تكن قد فشت في عصر الخليل بن أحمد . كما أن المعاجم اليونانية لم تتبع الترتيب اللفظي الصوتي ، وإنما اتبع بعضها الترتيب المعنوي والبعض الآخر كان يركز اهتمامه على الاشتقاقيات .

كما نستطيع القول بعد هذا الاستعراض الموجز : إن أجدادنا لم يتأثروا في تأليف معاجمهم بالبابليين ، أو بالأشوريين ، أو باليونانيين ، أو بالصينيين ، أو بالهنود فالباحث المنصف لا يستطيع إثبات ذلك أو إنكاره !

---

(١) دائرة المعارف الامريكية مجلد ٩ ص ٨٨ ـ The Encyclopedia Amercana

النشاط المعجمي العربي

(البداية ، والظروف .)

من المسلم به لدى الدارسين أن القرآن هو الأب الشرعي لكل العلوم والبحوث التي عرفها العرب إبان حضارتهم العريقة.

والمعجم العربي يبدأ تاريخه منذ واجه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مشكلة فهم النص القرآني، وبخاصة حين كانوا يجدون في هذا النص ألفاظاً لا يعرفون معانيها، فيسألون عنها، ثم يقيدون تفسيراتها إلى جانبها، خلال النصوص حتى يتذكروها عند التلاوة.

ومن أمثلة ذلك ما روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه من أنه كان لا يعرف معنى «الأب» في قوله تعالى: ﴿وفاكهة وأبا﴾[1]. قال الانباري قوله: «النرود»: الدخول: تفسير من الحسن بن علي لمعنى الورود، وأخطأ فيه بعض الرواة فأدخله في القرآن والعياذ بالله.

ومن أمثلته المشهورة أيضاً ما روي عن ابن عباس رضي الله عنه أنه كان جالساً بفناء الكعبة قد اكتنفه الناس يسألونه عن تفسير القرآن فقال نافع بن الأزرق لنجدة بن عويمر: قم بنا إلى هذا الذي يجترىء على تفسير القرآن بما لا علم له به، فقاما إليه فقالا: إنَّا نريد أن نسألك عن أشياء من كتاب الله فتفسرها لنا وتأتينا بمَصادقِه من كلام العرب، فإن الله تعالى إنما أنزل القرآن بلسان عربي مبين. فقال ابن عباس: سلاني عما بدا لكما، فقال نافع: أخبرني عن قول الله تعالى: ﴿عَنِ اليمينِ وعن الشِّمالِ عِزِينَ﴾[2].

(١) سورة عبس، آية ٣١.
(٢) سورة المعارج، آية ٣٧.

قال ابن عباس : العزون حلق الرفاق .

قال نافع : وهل تعرف العرب ذلك ؟

قال : نعم ، أما سمعت عبيد بن الابـرص وهو يقول :

فـجـاءوا يـهـرعـون الـيـه حـتـى
يـكـونـوا حـول مـنـبـره عـزيـنـا

قال : أخبرني عن قوله : ﴿ شِرْعةً ومِنْهاجاً ﴾ ؟[1]

قال : الشرعة ، الدين ، والمنهاج الطريق .

قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟

قال : نعم ، أما سمعت ابا سفيان بـن الحارث بن عبد المطلب يقول :

لقـد نـطـق المأمـون بـالصدق والهدى
وبين لـلإسـلام ديـنـاً ومـنـهـجـاً

قال : أخبرني عن قوله تعالى : ﴿ اذا أثمرَ ويَنْعِهِ ﴾ [2] .

قال : أي أثمره وجعله ناضجاً سائغاً للاكلين .

قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟

قال : نعم . أما سمعت قول الشاعر :

اذا مـا مـشـت بين الـنـسـاء وأودت
كـمـا اهـتـز غـصـن الـنـبـت يـانـع

وقد طالت رواية هذه المحاورة التي رُويت في كتاب « الإتقان » للسيوطي حتى ملأت خمس عشرة صحيفة على النهج الذي قدمناه : الكلمة القرآنية ومعناها ، والشاهد عليها .

---

(١) سورة المائدة ، آية ٤٨ .

(٢) سورة الانعام ، آية ٩٩ .

وقد كانت هذه المحاورة الثرية والتي عرفت في التاريخ الفكري واللغوي باسم (سؤالات نافع بن الأزرق) إحدى المقدمات الطبيعية لنشأة علم تفسير القرآن، كما كانت من بين المادة التي قدمها السلف لتفسير النشأة الأولى للمعجم العربي، غير أنها لم تكن تأليفاً مدوناً، بل كانت رواية قد يعتورها النقص والتعديل من راو لآخر.

وهنا نلحظ أيضاً أن المحاولات الأولى لتفسير القرآن الكريم كانت محاولات غير منظمة، لأنها كانت أحياناً تقحم داخل النص، حتى يشتبه الأصل بتفسيره كما رأينا، وهو ما بدأ العلماء من السلف يضعون له حلاً خلال القرن الثاني الهجري، وكانت قد اجتمعت لديهم كذلك مجموعات من الأحاديث النبوية الشريفة التي بدأوا يضعون لمفرداتها تفسيرات لغوية مناسبة. ويعتبر أقدم كتاب وضع في غريب القرآن كتاب أبان بن تغلب (ت ١٤١ هـ) ولم يصلنا شيء منه، وربما كان رواية لبعض ما أثر عن ابن عباس وغيره على النهج السابق، ولم يؤلف بعده أحد الا بعد مضي نصف قرن، الأمر الذي يجعلنا لا نعلق أهمية كبيرة على كتاب أبان هذا كما يذهب دكتور عبد الصبور شاهين.

وكان القصد من وراء تفسير الغريب في سور القرآن الكريم ـــ إعانة المتعلمين على تفهم المراد من نصوصها، وان كان ذلك الجهد الذي بذله أبان فيما نرى يحمل قدر صاحبه، الذي سُبِقَ بالتأليف في شرح المروي من أشعار العرب في الجاهلية وصدر الإسلام. ثم ما تحقق على يد المفضل الضبي المتوفى سنة ١٧٨ هـ فقد ألف الرجل إلى جانب مختاراته من أشعار العرب كتاب (معاني الشعر) على حين نجد بعد ذلك أن الكتاب التالي في تفسير غريب القرآن انما كان لمؤرج السدوسي المتوفى سنة ١٩٥ هـ. وجاء من بعده أبو عبيدة معمر بن المثنى (ت. سنة ٢١٠ هـ) فألف كتابه عن (غريب القرآن) ثم وضع أبو عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤ هـ) كتاباً بنفس العنوان، وكذلك محمد بن سلام الجمحي المتوفى سنة ٢٣١ هـ وأيضاً ابن قتيبة.

فأقدم كتاب وضع في غريب القرآن الكريم هو لأبـان بن تغلب ، ثم جاء من بعده كتاب السدوسي ، وهو تلميذ الفراهيدي ، صاحب أول معجم لغوي في تاريخ العربية .

واذا كنا قد ذكرنا كتب غريب القرآن وتواريخ وفيات أصحابها إنما فعلنا ذلك لنرد على بعض الباحثين وعلى رأسهم استاذنا الدكتور محمد سالم الجرح في مذكراته عن : (المعجم العربي) التي يقول فيها : « بدأت المحاولات الاولى في النشاط المعجمي بشرح غريب القرآن ، ثم شرح غريب الحديث النبوي ، ثم بدأت الشروح المختلفة للتراث الشعري أيضاً تظهر الى حيز الوجود وجمهرة التعريفات التي تضمنتها المعاجم اللغوية فيما بعد مستمدة من هذه الشروح الأولية لغريب القرآن والحديث والشعر» .

واذا علمنا أن الخليل بن احمد توفي (عام ١٧٥ هـ) أدركنا مقدار الأثر الذي يفيده من كتاب مجهول القدر سبقه به أبان بن تغلب القارىء المحدث ، الذي لم يبلغ مبلغ عالمنا الجليل الخليل بن أحمد ، لا علما ولا فضلاً ، فقد وصم في كتب الجرح والتعديل أحياناً بالزيغ والمجاهرة ، وأخرى بالتعصب للشيعة ، وأكثر تاريخه الشخصي يبعده كل البعد عن الاهتمام بمسائل اللغة والتفرغ لها . فأكثر تراجم اللغويين لا تذكره ، وإنما كان مشغولاً بالصراع المذهبي ومناصرة الشيعة .

وقد دافع عنه الحافظ الذهبي ، واعتده شيعياً معتدلاً ، والتشيع بهذه الدرجة بدعة صغرى لا يترتب عليها تكفير ، وكل من جاء بعد أبان هذا من مؤلفي الغريب لا يخرج عن كونه إما معاصراً للخليل ، وإما تلميذاً آخذاً عنه .

اذن لم يسبق الخليل بكتب كما قيل ، بل بكتاب بسيط لمؤلف مغمـور ، ثم يأتي الكتاب الثاني في (غريب القرآن) بعد أقدم معجم في العربية وهو المذكور لمؤرج السدوسي لأن مؤلفه تلميذ للخليل واضع (العين) المعجم الخالد ، ولا ريب ان التلميذ قد تأثر فيما وضع من تفسيرات لألفاظ القرآن بما أفاده من أستاذه

الخليل ــ فليس حقا ان المعجم العربي الأول قد نقل تعريفات مفسري الغريب على ما ذُهب إليه الدكتور الجرح فهؤلاء لا وجود لهم، والسدوسي نفسه ــ ولا شك متأثر بالفكرة العامة لدى من ألفوا في المعاجم بوجه خاص، قبل أن يتأثر بمناهج الغريب التي لم يعرف أصحابها، ولم يأخذ عنهم.

وغاية ما يمكن أن يقال في هذا الصدد: ان كتب الغريب كانت من المعاجم المتخصصة، التي حاولت الوفاء بغرض تفسير النص القرآني، على نحو ميسر وانها تأثرت بفكرة التأليف المعجمي التي كان الخليل بن أحمد أول محقق لها بصورة منهجية.

والذي نرجحه أن الذي مهد لنشأة الفكرة المعجمية جملة من الظروف الاجتماعية والثقافية أبرزت ضرورة وضع معجم للغة، وأهم هذه الظروف أن حياة البداوة كانت خلال القرن الثاني الهجري قد بدأت تزحف على الحواضر، ومعنى ذلك أن المعين الذي كان يستقي منه الرواة والنحاة ــ كما اسلفنا ــ قد أوشك على النضوب، وقد تحصل لدى هؤلاء الرواة والنحاة، وفي مقدمتهم أبو عمرو بن العلاء، وأبو مالك عمرو بن كركرة، وأبو خيرة صاحب (كتاب الحشرات)، والخليل بن أحمد، وعمرو بن قنبر الملقب بسيبويه، وغيرهم وغيرهم، حشد هائل من الروايات اللغوية، كانوا يحسون دائماً بالحاجة إلى تسجيلها وتدوين كل حروفها، وبحسبنا أن نقرأ ذلك الخبر المروي عن أبي عمرو ابن العلاء أستاذ الخليل بن أحمد، وقد رواه أبو عبيدة قال: «كانت دفاتر أبي عمرو ملء بيت إلى السقف، ثم تنسك فأحرقها وتفرغ للعبادة» وقال أيضاً، حدثنا أبو عمرو قال: أخافنا الحجاج فهرب أبي ناحية اليمين، وهربت معه فبينما نحن نسير اذا أعرابي ينشد على بعير له:

لا تضيقن بالأمور فقد تفرج غمّاؤها بغير احتيال
ربما تكره النفوس من الأمر له فرجة كحل العقال

فقال أبي : ما الخبر ، فقلت : مات الحجاج ، فكنّى بقوله (فرجة) عن موت الحجاج وبذا عمَّ الفرج على العرب .

وهذا الخبر الثاني يفسر في رأينا مضمون الخبر الأول ، فقد كان أبو عمرو مولعاً بجمع المفردات ، وضبطها ، وحفظ شواهدها ، وتدوين ذلك في جذاذات ودفاتر ملأت بيتاً إلى السقف ، وهي لا شك مادة المعجم العربي التي إجتمعت لامام اللغويين والنحاة والقراء ، قبل أن يكتب كتاب واحد ، أو تنشأ رسالة ذات بال في غريب القرآن أو الحديث ، ولكنه بكل أسف أحرقها زهادة وتنسيكاً ، الا أنه لم يستطع أن يحرق محفوظ تلاميذه منها ، وما أكثرهم ، وفي مقدمتهم الخليل الذي جمع الى جانب ما أخذ من أبي عمرو وأبي مالك وأبي خيرة من الغريب ، وطرق تفسيره كثيراً من المادة اللغوية عن أعراب البادية . وهذه الظروف الإجتماعية والثقافية بمضمونها العام هي التي زينت للخليل بن أحمد الفراهيدي أن يفكر في وضع معجم يستودعه ما تحصل لديه من المادة اللغوية ، بعد أن لمس افتقار البادية العربية من موردي اللغة ، وكثرة الأعاجم الوافدين إلى الحواضر العربية ينشدون تعلم العربية ، وهم بداهة بحاجة إلى تأليف يضم لهم اللغة بشواهدها الكثيرة ، وأكد الفكرة لديه ازدهار حركة التدوين في ذلك العصر العباسي الأول ، ومن هنا جاءت نشأة المعجم العربي[1] .

نعلم أن المسلمين بدأوا فتوحاتهم العظيمة في عهد الخليفة الأول أبي بكر الصديق في بلاد فارس ، ثم جاء الفاروق عمر بن الخطاب وتساقطت في عهده مدن الفرس المنيعة ، مدينة تلو مدينة ، ودخل الأعاجم من غير العرب إلى دين الله أفواجاً ، وأخذوا يتعلمون لغة دينهم الجديد اللغة العربية . وحاولوا اتقان هذه اللغة

(١) لسنا هنا نحاول تتبع مقدمات الحركة المعجمية منذ بدايتها أو منذ الجهود الأولى لأبي الاسود الدؤلي ، فالمفهوم أن نشاط الجيل الأول كان علماً يستوعب كل مستويات البحث اللغوي ، دون أن يتخصص نشاط أحدهم في اتجاه معين ، ثم بدأت الاتجاهات تتحدد شيئاً فشيئاً .

الجديدة، فنجحوا إلى حدٍ ما، ولكن ليس الدخيل كابن اللغة فشاع اللحن على ألسنتهم، وكان اللحن أشد على المسلمين في قراءتهم لكتابهم المقدس (القرآن الكريم) . وكان اللحن أنواعاً كثيرة :

١ ــ لحن في مخارج الحروف .
٢ ــ لحن في نطق الأصوات .
٣ ــ لحن في تركيب الجمل .
٤ ــ لحن في الإعراب .

ولعل رواية الفارسي الذي دخل المدينة فسأله اللغوي الأريب، أبو الأسود الدؤلي : لِمَ لَمْ تركب فرسك ؟ قال : إن فرسي ظالع ويقصد ضالع بمعنى ضعيف، وكان ذلك لحناً في نطق الضاد . فقد عولج اللحن في الإعراب وفي تركيب الجمل بوضع علم النحو، واللحن في المعنى بوضع المعاجم العربية .

ويلاحظ أن اللحن لم يقتصر على الأعاجم فقط . إنما تعداهم إلى بعض العرب، لذا كان الولاة يرسلون أبناءهم إلى البوادي العربية لتعلم اللغة الفصحى من القبائل العربية، وكان بعضهم يحضر المربين الفصحاء لتنشئة أولادهم وتعليمهم . كما شاع اللحن الإعرابي شيوعاً كبيراً بين الامراء والحكام كعبدالله ابن زياد والحجاج بن يوسف الثقفي وغيرهم .

أما الروايات التي تتحدث عن اللحن فكثيرة جداً وتنسب وضع النحو إلى أبي الاسود الدؤلي أو الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، ومنها أن أبا الأسود دخل على علي بن أبي طالب، وفي يده رقعة من الورق فسأله عنها، فأخبره ان الكلام قد فسد بمخالطة هذه الحمراء، يعني الأعاجم، فوضعت بعض القواعد ليرجع إليها الناس، ثم طلب من أبي الأسود أن يكمل هذه الأبواب . ثم رواية الرجل الذي قرأ « لا يأكلوه الا الخاطئين »، أو « ان الله بريء من المشركين ورسوله » بالكسر .

من هذه الروايات، ومن روايات كثيرة تحفل بها كتب التراث، نستطيع أن نؤكد في هذا المقام أن الباعث على التأليف في العربية وعلومها كان دينياً، ليحافظ العرب على لغة قرآنهم المجيد، ولهذا فقد ارتبطت الدراسات اللغوية بالدراسات الدينية ارتباطاً قوياً، أو لنقل إنهما اتحدا في النشأة، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم هو المرجع في تفسير ما غمض على العرب من القرآن، ثم كان الصحابة من أمثال عبدالله بن عباس، وعمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب يقومون بذلك بعد وفاة الرسول، ومن هنا ظهر تفسير غريب القرآن ومشكله عند ابن عباس، دليلاً على بداية الحركة العلمية أو حركة التأليف في الفروع المختلفة، كالدراسات اللغوية والدينية.

ويجب أن نلاحظ أن التأليف اللغوي لم يبدأ متخصصاً، فقد كان العالم اللغوي يضع كتابه جامعاً لأبواب من النحو ومن الصرف ومن متن اللغة، وكان ذلك هو الطابع الغالب عند الطبقات الأربع الأولى من اللغويين، من أمثال أبي الأسود الدؤلي، ويحيى بن يعمر، وعبدالله بن إسحٰق الذي يقول عنه السيوطي: «فابن أبي إسحٰق يقال إنه أعلم أهل البصرة وأنقلهم، ففرع النحو وقاسه، وتكلم في الهمز حتى عمل منه كتاباً مما أملاه...»[1] وأبي عمرو بن العلاء وعيسى بن عمر الذي ألف كتابين سمى أحدهما «الجامع» والآخر «الإكمال»، ووصفه شاعر عالم بأن «النحو ذهب جميعاً كله غير ما أحدث عيسى بن عمر هذا إكمال وذاك جامع فهما للناس شمس وقمر».

إلى أن جاء الخليل بن أحمد الفراهيدي فبدأ الفرعان اللغويان ينفصلان: فرع المعجمة الذي ميزه الخليل بن أحمد بمعجمه الكبير العين، وفرع النحو والصرف (القواعد) الذي أكمله سيبويه والفراء والكسائي وغيرهم[2].

---

(١) السيوطي في المزهر جـ ٢ ص ٢٠٠.

(٢) محاضرات في المعاجم العربية ـــ د ـــ محمود جاد الرب / القاهرة ١٩٧٤.

ولعله من البديهي القول بأن حماية اللغة العربية من هذه الأخطار نتيجة لهذه الفتوحات الواسعة في القرنين الاول والثاني الهجريين، ودخول كثير من غير العرب في الإسلام، وشيوع اللحن بينهم بل وشيوعه بين أبناء العربية ممن كانوا يعيشون في الحواضر، أقول إن حماية اللغة العربية الأم كان سبباً رئيسياً للحركة العلمية التي بدأت في القرن الأول الهجري، وسارت حتى وصلت إلى أوجها في القرن الثاني من الهجرة، مع ملاحظة أن النشاط العلمي بدأ مع حياة صحابة الرسول عليه السلام بعد وفاته مباشرة، وقد بدأوا يفسرون القرآن والأحاديث. وكان الرسول هو المرجع الاول في تفسير ما غمض عليهم من القرآن، ثم كان الصحابة مثل عبدالله بن عباس. فتفسير غريب القرآن ومشكله أولى الحركات العلمية التي رآها العرب. كما كان للحديث النبوي الشريف نصيبه في إظهار الدراسات اللغوية، فقد اتجهت هذه الدراسات إلى العناية بغريب الحديث الشريف.

اجتمعت هذه العوامل جميعاً فأثمرت الدراسات اللغوية التي ظهر نشاطها قوياً في حركة التأليف المعجمي عند الخليل، كما ظهرت في هذا العصر في جمع دواوين الشعراء والقبائل التي جمعت وشرحت.

وبجانب هذا اللحن الذي شاع على ألسنة الناس، فإن البدويين بدأوا يزحفون على الحواضر، ومعنى ذلك أن المعين الذي كان يستقي منه النحاة واللغويون قد أوشك على النضوب، وقد خاف هؤلاء الرواة والنحاة على الروايات والأشعار التي يحفظونها، وعلى المفردات الغريبة والنادرة التي يريدون تدوينها، وهذا يفسر لنا شيوع التأليف في جميع المفردات الغريبة كغريبي القرآن والحديث وكألفاظ الشعراء[1]. ورسائل النوادر والحيوان ... الخ:

---

(١) ككتاب المفضل الضبي (ت ١٣٨ هـ)، فقد ألف «معاني الشعر».

المعاجم القرآنية

[رؤية تاريخية
ورصد ببلوجرافي]

بدأ النشاط العلمي عند أجدادنا العرب بصورة تبدو عفوية أملته ظروف العصر سواء أكانت سياسية أو اجتماعية أو ثقافية ، فالنبي صلى الله عليه وسلم كان يفسر للصحابة رضوان الله عليهم كل ما غمض عليهم ، ويجيب على كل الأسئلة التي كانوا يوجهونها إليه ، فقد كان الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم هو المعلم الأول للعرب جميعاً والمرجع الأول والدائم لكل صحابي ، ولكل سائل ، ولكل باحث عن الفكر الصائب والمعرفة الصحيحة . وبعد وفاته قام بهذه المهمة صحابة أجلاء وهبوا أنفسهم لتفسير كل ما غمض ، .. وتتحدث الروايات عن ابن عباس رضي الله عنه كمفسر لغريب القرآن وكأول مؤلف في هذا الفرع ، ويقال ان له كتاباً في غريب القرآن ، ولعل هذا المُؤلَّف كان عبارة عن أقوال ابن عباس وتفسيراته لبعض ألفاظ القرآن الكريم رواها عن بعض معاصريه من الصحابة والسلف الصالح ، ونسب أيضاً إلى أبي سعيد بن تغلب بن رباح البكري المتوفى سنة (١٤١ هـ) انه ألف كتاباً في غريب القرآن ، ثم تتابعت الكتب في هذا الميدان الهام من أمثال : يحيى بن المبارك اليزيدي المتوفى (٢٠٢ هـ) ، والنضر ابن شميل المتوفى (٢١٣ هـ) ، وأبي عبيدة اللغوي المعروف ، ومؤرج السدوسي الذي أعد كتابه عن غريب القرآن قبل وفاته (عام ١٩٥ هـ) ، ونذكر أيضاً الأصمعي المتوفى (٢١٣ هـ) ، والأخفش الأوسط سعيد بن سعدة المتوفى (٢١٥ هـ) ، وابن اليزيدي ، وابن قتيبة المتوفى (٢٧٦ هـ) وغيرهم وغيرهم ... ، ولكن للأسف الشديد فقدت هذه الكتب جميعاً ، وليس بين أيدينا حتى لحظة كتابة هذه الدراسة سوى غريب القرآن لشيخنا الموسوعي ابن قتيبة. وكل هذه الكتب ما هي إلاّ تفسيرات وشروح للألفاظ الغريبة في القرآن الكريم ، وأقوال أصحابها ، وآراء بعض الصحابة الذين سبقوا مؤلفيها .

أما عن كيفية ترتيب المادة اللغوية والمفردات داخل هذه الكتب : فقد كان بعضها مرتباً حسب السور في المصحف الشريف ، وهذا الترتيب كان موجوداً في المؤلفات الأولى ، والترتيب الثاني هو الترتيب الأبجدي ، ويعتبر هذا الترتيب أحدث من سابقه ، بل انه لم يبتدىء إلا عند العزيزي في القرن الرابع الهجري وهذا الرجل في حاجة ماسة إلى دراسة لهذا الدور الذي قام به رغم مآخذ البعض عليه واتهامهم لمنهجه بأنه منهج معقد .

ويعد هذا النشاط الأول من نوعه في الاسلام ، فقد بدأ بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم مباشرة ، كما أنها بدأت ــ أي حركة التأليف المعجمي للغريب ــ عفوية غير منظمة . كما يلاحظ أن حركة التأليف في المعاجم لم تتأثر بهذا النشاط ، فان ترتيب المواد داخل هذه الكتب كان ترتيباً حسب السور ، ولم ترتب أبجدياً إلا في القرن الرابع الهجري أي بعد أن ظهر المعجم الأول بالمعنى المعروف للمعجم معجم « العين » للعلامة الخليل بن أحمد الفراهيدي ، هذا من ناحية ، ومن ناحية ثانية فان كتاب العين للخليل لم ترتب أبوابه حسب الأبجدية ، وإنما رتبت ترتيباً صوتياً مخرجياً ، بل ان بعض الأفاضل من العلماء يقولون ، إن هذه الكتب التي ألفت في غريب القرآن ، وغريب الحديث قد تأثرت بفكرة التأليف المعجمي المنظم عند الخليل ، لأن أبان بن تغلب المتوفى (١٤١ هـ) لم يصلنا شيء من غريبه ، وقد كان راوية لبعض ما أثر عن ابن عباس وغيره . وعلى كل فكتاب أبان مجهول لنا ولا يقارن صاحبه بالخليل بن أحمد بأي حال من الأحوال لا في العلم ولا الفضل ، ناهيك عن وصمه في كتب الجرح والتعديل أحياناً بالزيغ والمجاهرة ، وأخرى بالتعصب للشيعة ، وأكثر تاريخه يبعده عن الإهتمام بمسائل اللغة والتفرغ لها ، فأكثر تراجم اللغويين لا تذكره ، بل ان بعضها يتعمد عدم ذكره . فالرجل من الواضح أنه كان غارقاً في الصراع المذهبي . وحاول الحافظ الذهبي الدفاع عنه ، واعتبره شيعياً معتدلاً ، والتشيع بهذه الدرجة بدعة صغرى لا يترتب عليها تكفيره . على كل فمن جاء بعد أبان من مؤلفي

الغريب لا يخرج عن كونه إما معاصراً للخليل ، وإما تلميذاً آخذاً عنه . فلم يسبق الخليل إذن بكتب كما قيل ، بل بكتاب بسيط لمؤلف مغمور يشك في فكره . ثم يأتي الكتاب الثاني في (غريب القرآن) ليعد أقدم معجم في العربية وهو لمؤرج السدوسي لأن مؤلفه تلميذ للخليل واضع (العين) ولا ريب ان التلميذ قد تأثر فيما وضع من تفسيرات لألفاظ القرآن بما أفاده من أستاذه الخليل .

ولهذا يمكننا أن نقول باطمئنان ان المعاجم لم تتأثر مطلقاً بكتب غريب القرآن أو غريب الحديث رغم المكانة الرائعة لهما ، وكل ما يمكننا أن نقوله ان التأليف أخذت عدواه تسري من فرع التفسير والحديث إلى الفروع الأخرى من المعرفة .

ولعل هذه الظروف هي التي دعت إلى التأليف في التفسير والحديث وشرح معاني الشعر الجاهلي في بداية العصر الإسلامي ، بجانب شيوع اللحن بدخول غير العرب في الإسلام ، وبذلك نؤكد الرأي القائل بأن هذا النشاط المعجمي نشاط عربي بحت أملته الظروف السياسية والتاريخية والاجتماعية . والآن نحاول القيام بعملية رصد (ببلوجرافي) لأهم المعاجم العربية التي تناولت ألفاظ وكلمات القرآن الكريم وكان مرجعنا في ذلك : الفهارس البطاقية لدار الكتب المصرية ، وفهارس مكتبة جامعة القاهرة ، وقوائم الناشرين ، والمكتبات وبعض المراكز العلمية والمراجع والدراسات التي تناولت المعاجم بمختلف أنواعها وأيضاً كتب الاعلام ومعاجم المطبوعات وبعض المجلات التي تهتم بشئون الكتاب ومن أهم المراجع بالنسبة لنا مكتبة الأزهر الشريف وفهارسها :

ـــ غريب القرآن في لغات الفرقان ـــ لأبي الفضل بن فياض علي ، صدر عن حيدر آباد ، ١٩٤٧ م ، جمع فيه ألفاظ غريب القرآن ، ورتبها الفبائياً وشرحها باللغة الأردوية .

ـــ مفتاح القرآن لأحمد شاه صدر عن بنارس (الهند) ١٩٠٦ م ويقع في قسمين :

الأول : كشاف للألفاظ القرآنية .

الثاني : معجم كامل يشرح ما غمص من ألفاظ القرآن .

رتب المؤلف القسم الاول هجائياً بأوائل الألفاظ دون مراعاة لأصلي أو مزيد ، ثم اسم السورة ، ورقم الآية التي ذكرت فيها .

وقد رتب القسم الثاني هجائياً أيضاً بأوائل الألفاظ دون مراعاة لأصلي أو مزيد ، ثم يعطي معناها بالإنجليزية والأردوية .

ــ مجمع بحار الأنوار في غرائب التنزيل ولطائف الأنوار ــ لمحمد بن طاهر البتاني ، صدر عن لكناو سنة ١٢٨٣ هـ (١٨٦٦ م) في ٣ مجلدات ، يجمع مؤلفه في معجمه الألفاظ الغريبة في ترتيب ألفبائي ، كما يجمع الكلمات الصعبة الواردة في القرآن والحديث ويقوم بشرحها مفصلاً .

ــ إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم ــ صنفه الحسين بن محمد المعروف بالدامغاني المتوفى ١٠٨٥ هـ ، حققه ورتبه وأكمله وأصلحه عبد العزيز سيد الأهل ، وصدر عن بيروت ــ لبنان ، عن دار العلم للملايين ، ١٩٧٠ م ، جمعه في ٥١٢ صفحة ، والكتاب يجمع معاني الكلمة في القرآن ، الكلمة الواحدة مفرقة على الآيات ويقتصر على إيراد الكلمة المرادة وسط جملة مفيدة ، ولو لم تكن الآية كلها ، مشيراً أحياناً إلى موضع الآية في السورة ، وأحياناً كثيرة لا يشير إلى السورة فأكمل المحقق هذا النقص ، وأشار إلى كل السور التي وردت فيها شواهد الكلمات . رتب هجائياً وفق أوائل الأصول .

ــ المفردات في غريب القرآن لأبي القاسم الحسين بن محمد بن المفضل المعروف بالراغب الأصبهاني ، حققه استاذنا د . محمد أحمد خلف الله وصدر عن مكتبة الأنجلو المصرية بالقاهرة ، سنة ١٩٧٠ م ويقع كاملاً في ٤٢٩ صفحة . ويجمع الأصبهاني ما ورد في القرآن الكريم من كلمات صعبة ويشرحها ،

ويذهب في شرحها مذهب أهل السنة، ويرد على المعتزلة والجبرية والقدرية. يستشهد في شرحه بآيات من القرآن، وكذلك الأشعار. رتب هجائياً بحسب أوائل أصول الألفاظ، وكتاب المفردات له عدة طبعات، من بينها طبعة نشرها نور محمد كراجي بباكستان عام ١٩٦١م، وأخرى حققها الأستاذ محمد سيد كيلاني وصدرت في القاهرة عام ١٩٦٢ وأعيد إصدارها في طهران عام ١٩٦٤م وأرى أن تحقيق د. خلف الله أكمل تحقيق لكتاب المفردات.

ـ قاموس القرآن ـ لزين العابدين سجاد ميرئهي صدر عن ميرئها، المكتبة العلمية سنة ١٩٥٤ في ٨٠٠ صحيفة، وهو يحوي ألفاظ القرآن الصعبة والغريبة ويشرحها بالاردوية شرحاً تفصيلياً.

ـ غريب القرآن لابي محمد بن عبد العزيز المعروف لنا باسم السجستاني العلامة الفقيه ولهذا الكتاب اسم آخر (نزهة القلوب) وأمامي الآن الطبعة الثانية منه، عني بتصحيحه، وترقيمه وضبط المبهم من ألفاظه وتعليق حواشيه الأستاذ مصطفى عناني، وصدر عن المطبعة الرحمانية بالقاهرة، سنة ١٩٣٦م، في حوالي ٢٣٢ صحيفة.

رتب السجستاني ألفاظ القرآن الغريبة والصعبة ألفبائياً وفق أوائلها فقط، مع شرح معانيها باختصار.

وسبق لمطبعة السعادة بالقاهرة سنة ١٣٢٥هـ (١٩٠٧م) أن أصدرته بتصحيح بدر الدين النعساني، كما طبع على هامش «تبصير الرحمن وتيسير المنان» عام ١٢٩٥هـ (١٨٧٨م).

ـ مجمع البحرين ومطلع النيرين ـ لفخر الدين بن محمد الطريحي النجفي المولود ١٥٧١م والمتوفى ١٦٧٤م، حققه السيد أحمد الحسيني، وصدر في النجف الأشرف عن دار الثقافة العراقية ١٩٦١م في مجلد واحد. والكتاب في غريب القرآن والحديث مرتب على حروف المعجم باعتبار أوائل الألفاظ.

ــ معجم القرآن ــ أعده: عبد الرؤوف المصري المعروف بأبي رزق وهو قاموس مفردات القرآن وغريبه صدر عن مطبعة القدس بالقدس، ١٩٤٥م في مجلدين وهو مرتب لفظياً كما رتبت العبارات الغريبة الواردة في القرآن ألفبائياً باعتبار أوائلها، دون مراعاة لأصلي أو مزيد. يشرح معناها ويحيل الى الآية الواردة فيها اللفظة أو العبارة.

ــ عمدة لغات القرآن ــ لفاضل أجل مولوي شهيد الدين، صدر في دلهي عن الكتبخانة الرشيدية، ١٣٤٨هـ (١٩٢٩م) في ١٥٤ صفحة، يشرح الألفاظ القرآنية بالاردوية.

ــ لغات الفرقان لقاري أحمد، صدر عن كرجي مطبعة سعيدي في ٢٥٢ صحيفة وجدت بطاقته في دار الكتب المصرية ولم أتمكن من الإطلاع عليه لسوء حالته.

ــ كوكب دري صدر عن بهوبال عن مطبعة شاه جهاني في ١٩٠ صحيفة، حالته سيئة، مجهول المؤلف إلاً أنه ــ كما حاولت تأمله ــ يشرح ألفاظ القرآن الكريم الصعبة بالاردوية ويوردها حسب تسلسلها في السور، وان كانت بعض السور لا تأتي في ترتيبها الصحيح كما جاءت في القرآن.

ــ تفسير غريب القرآن؛ المعروف بقاموس أوضح التبيان في حل ألفاظ القرآن، كتب عليه اسم مؤلفه (م. المصري) واعتقد ان اسمه محمد المصري، صدر عن القاهرة مطبعة محمود علي صبيح في ١٢٨ صفحة ــ بدون تاريخ وهو عبارة عن ترتيب حسب سور القرآن، ويجمع تحت كل سورة ألفاظها الصعبة، ويشرحها في اختصار شديد.

ــ معجم ألفاظ القرآن الكريم ــ صدر عن مجمع اللغة العربية بالقاهرة في ٦ مجلدات. نفذ طبعه المجمع في الفترة ما بين ١٩٥٣م الى ١٩٦٩م.

وجمعت فيه ألفاظ القرآن ورتبت ألفبائياً وفق اوائل أصولها، وأدرج تحت الأصل مشتقاته. يبدأ بشرح الكلمة شرحاً لغوياً، ثم قرآنياً، ويبين عدد مرات ورودها في القرآن الشريف.

ويتحاشى تفسيرات المتكلمين والفقهاء، ويغفل الدخيل من الألفاظ، وكذلك الأعلام. يستشهد في شرحه بآيات، ويعتمد على المصحف الشريف المطبوع بالمطبعة الأميرية سنة ١٣٤٤ هـ (سنة ١٩٢٥ م).

صدرت الأجزاء الثلاثة الاولى في السنوات ١٩٥٣ — ١٩٥٩، وأعد الجزء الرابع منه شيخنا أمين الخولي وأصدرته دار الكاتب العربي عام ١٩٦٧، كما أعد الجزء الخامس حامد عبد القادر، والسادس محمد علي النجار، وأصدرهما المجمع عام ١٩٦٩ م.

وأعادت الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر (هيئة الكتاب حالياً) اصداره عام ١٩٧٠ م، فأصدرت المجلد الأول من الهمزة إلى السين، والثاني من الشين إلى الياء.

— معجم الألفاظ والأعلام القرآنية. الطبعة الثانية والتي اعتمدت عليها صدرت في القاهرة، دار الفكر العربي سنة ١٩٦٩ في حوالي ٣١١، ٢٩٨ صحيفة — أعده الأستاذ محمد اسماعيل ابراهيم ويشمل جميع ألفاظ القرآن مرتبة ألفبائياً وفق اوائل أصولها، ويفسرها لغوياً وحسب استعمالها في السياق القرآني. ويبين عدد مرات ورود كل لفظ ومواضع نصوصه في السور والآيات، مع تعريف بالأعلام التاريخية والجغرافية. ويجدر هنا أن الطبعة الأولى من هذا المعجم — الذي لم يأخذ حظه من الشهرة رغم جدية اعداده والجهد المبذول فيه — صدرت طبعته الأولى عام ١٩٦١ م في حوالي ٤٣٩ صفحة وكانت الطبعة الثانية منه مزيدة ومنقحة.

ـــ لغات القرآن للعلامة محمد خليل، يجمع ألفاظ القرآن الصعبة ويرتبها هجائياً ويشرحها بالاردوية ـــ صدر في لاهور سنة ١٨٩٥م في حوالي ٣١٠ صفحة.

ـــ قاموس غريب القرآن حسب ترتيب السور للأستاذ محمد الصادق قمحاوي صدر في القاهرة، عن مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح ١٩٧٠م في حوالي ٢١٧ صفحة مع مقدمة تشرح منهج واتجاه القاموس.

ـــ مكمل لغات القرآن للأستاذ العلامة محمد عبد الرشيد نعماني في دلهي الهندية عن دار ندوة المصنفين في ٦ مجلدات في الفترة ما بين: ١٩٤٩ ـــ ١٩٥٨ وهو معجم عربي أردوي لألفاظ القرآن ـــ المجلدان الأخيران بقلم سيد عبد الدايم الجلالي.

ـــ مصباح الفرقان في لغات القرآن ـــ للعلامة محمد عنايت علي، صدر في كلكتا الهندية سنة ١٩٣٨م في ٢٥٩ صحيفة وهو معجم عربي أردوي لألفاظ القرآن الكريم.

ـــ هدية الإخوان في تفسير ما أبهم على العامة من ألفاظ القرآن ـــ للأستاذ مصطفى يوسف صدر في القاهرة عن المطبعة الأميرية، ١٣٠٩هـ (١٨٠٩م) في حوالي ١٣٦ صفحة ومقدمة تقع في ٦ صفحات وهو عبارة عن معجم موجز في احتوائه على ألفاظ القرآن الصعبة، يوردها حسب ترتيبها في السور، ويعطي شرحها موجزاً أيضاً.

ـــ تيسير القرآن لتخريج لغات الفرقان ـــ للعلامة وزير علي بن منور علي، طبع في لكنو، في مطبعة نوالكشور، ١٩٠٦، في حوالي ٦٠٥ صفحات وهو معجم عربي اردوي لألفاظ القرآن.

ـــ سلك البيان في مناقب القرآن ـــ أعده وقدم له جوهان بينريس وهو عبارة عن معجم أو قاموس، قاموس لشرح الكلمات العويصة في القرآن الكريم، صدر

في لندن عن دار هنري. س. كينج سنة ١٨٧٣م في مجلدين في حوالي ١٦٦ صفحة.

ورتب هذا المعجم ألفبائياً وفق اوائل أصول الألفاظ القرآنية. وأدرج تحت الأصل مشتقاته مع شرح لها بالإنجليزية. ويستشهد ويشير الى آيات من القرآن، ويعتمد على طبعة فلوجل المنشورة في ليبزيج الالمانية سنة ١٨٣٤م.

ـ قاموس الألفاظ القرآنية أعده جواني وليام ـ صدر في عام ١٧٧٤ في ٨٢٤ صفحة، رتب فيه المفردات العربية القرآنية ألفبائياً وفق أصولها، وأدرج تحت الأصل مشتقاته، وأعطى معانيها باللغة اللاتينية، مبيناً الأصول الاشتقاقية للفظة.

ـ رسالة الكلمات غير العربية الواقعة في القرآن الكريم ـ صدر في القاهرة عن المطبعة الكبرى الأميرية، ١٩٠٢م في حوالي ١٧ صفحة جمعه الشيخ الجليل حمزة فتح الله من كتاب «المعرب» للجواليقي و«المهذب» و«الإتقان» للإمام السيوطي. رتبت فيه الكلمات هجائياً بأوائلها، دون مراعاة لأصلي أو مزيد، مميزة باللون الأحمر، مع ذكر معناها وبيان لغتها الأصلية على يسارها في حين يذكر على يمينها اسم السورة ورقمها، ورقم الآية، ثم نص الآية التي ذكرت فيها الكلمة.

ـ معجم الكلمات الأثرية في القرآن والمعلقات ـ لفراينكيل سيجسمنديس، صدر في عام ١٨٨٠م في حوالي ٢٧ صفحة ويعني بالكلمات الأثرية الـ٩٦ التي درسها وأعادها الى أصلها مع ذكر الأصل بلفظه، واعطاء الشرح باللاتينية يعني بها الكلمات القديمة جداً في اللغة العربية، الغريبة والواردة في القرآن والمعلقات الجاهلية.

ـ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ـ للأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي

صدر عن دار الشعب القاهرية وطبع أكثر من عشرين مرة طبعات مختلفة وهو عبارة عن جدول أبجدي لكل الكلمات الواردة في القرآن الكريم، مع تحديد مكان ورودها .

وهنا أوجه عتابي الشديد للأستاذ وجدي رزق غالي في كتابه (المعجمات العربية) الصادر عن الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر بالقاهرة ١٩٧١ م وقدم له د. حسين نصار أعتب عليه لتجاهله التام لكتاب (المعجم المفهرس) رغم أننا جميعاً كباحثين مدانين لهذا الجهد المتمكن الذي بذله أستاذنا عبد الباقي في معجمه ولا أعرف سر هذا التجاهل المقيت .

وبعد : فهذا جهد متواضع حاولنا فيه التعريف بتاريخ غريب القرآن الكريم والكتب المؤلفة فيه ثم رصدنا أهم الكتب التي تعرضت لغريب القرآن من قريب أو بعيد .

معاجم غريب الحديث

ـــ لم يُلتزم الترتيب الأ بجدي إلا في القرن السادس الهجري .

ـــ أول كتاب في غريب الحديث ينسب إلى أبي عبيدة بن المثنى .

ـــ الزمخشري ألف ثلاثة معاجم في هذا المجال .

لم يبدأ التدوين في هذا الفرع من اللغة مع نظيره «غريب القرآن» ، بل تأخر كثيراً عنه ، وان كان الكلام فيهما بدأ في وقت واحد .

ونسب أكثر الباحثين الكتاب الأ ول في غريب الحديث الى أبي عبيدة معمر ابن المثنى (ت ٢١٠ هـ) ، ويوجد مؤلفون كثيرون في هذا المجال أمثال : النضر ابن شميل (ت ٢١٣ هـ) وأبي عمرو الشيباني (٢٠٦ هـ) ، وقطرب (٢١٦ هـ) ، والأصمعي (٢١٣ هـ) ، وأبي زيد الأنصاري ، وألف أبو عبيد (٢٢٤ هـ) كتابه المشهور «غريب الحديث» فأطال ونظم وانتزع أعجاب الباحثين[١] .

وأما الزمخشري فقد ألف ثلاثة معاجم ، أحدها في غريب الحديث سماه «الفائق» ، وقد راعى فيه الترتيب الأ بجدي بالنسبة للحرفين الأ ول والثاني فقط ، فداخل الفصل يضع الكلمات بدون ترتيب ، لأن الحرف الأ ول يحدد الباب الذي توضع فيه الكلمة ، والثاني يحدد الفصل ، وينبغي أن ترتب الكلمات داخل الفصل اعتباراً للحرف الثالث ، ولكن الزمخشري لم يراع في فائقه الحرف الثالث ، وان كان راعى كل ذلك في معجمه الثاني وهو «أساس البلاغة» ، أما المعجم الثالث فهو معجم جغرافي[٢] .

(١) المعجم العربي .

(٢) أنظر مذكرات الدكتور الجرح والمعجم العربي .

وكما أن غريب القرآن لم يراع الترتيب الأبجدي الآ بعد ظهور المعاجم العربية، فان غريب الحديث لم يراع هذا الترتيب أيضاً الآ في القرن السادس الهجري، وكان المؤلفون يرتبون كتبهم حسب الموضوع، أو لنقل يرتبونها ترتيباً معنوياً، أي مراعاة معنى الكلمة، وليس ترتيباً لفظياً[1]، والبعض الذي رتب كتبه على أساس الأبجدية العادية لم يراع الآ الحرف الأول فقط.

لهذا نقول، كما قلنا عند الكلام على غريب القرآن، ان هذه التآليف لم تؤثر في بداية النشاط المعجمي عند العرب.

---

(١) جمع بعض المؤلفين بين غريب القرآن وغريب الحديث في كتاب واحد، فقد ألّف أبو عبيدة أحمد ابن محمد الهروي (ت ٤٠١ هـ) كتاب «الغريبين»، ويلاحظ أنه مرتب ترتيباً أبجدياً، وربما أفاد من ترتيبه الأبجدي بعض اللغويين الذين رتبوا معاجمهم ترتيباً أبجدياً...

المعاجم المتخصصة
أو معاجم الموضوع الواحد
[الأهمية والدور]

وتسمى معاجم الموضوع الواحد، وقد اضطلع بهذا النوع من التأليف جماعة من اللغويين عاشوا في القرن الثاني للهجرة ــ أي أنهم عاصروا الخليل بن أحمد الفراهيدي صاحب العين، وهو أول مؤلف لقاموس عربي ــ وتوفي هؤلاء قبل نهاية الربع الأول من القرن الثالث للهجرة ومنهم:

أ ــ أبو عبيدة معمر بن المثنى (١١٠ هـ ــ ٢٠٩ هـ) صاحب: ما تلحن فيه العامة ــ الإنسان ــ الزرع ــ الشوارد ــ معاني القرآن ــ غريب الحديث.

ب ــ أبو زيد الأنصاري: (١١٩ هـ ــ ٢١٥ هـ) صاحب: النوادر، والمطر، والمياه، وخلق الانسان، والشجر، وغريب الأسماء.

جـ ــ الأصمعي عبد الملك بن قريب أبو سعيد (١٢٢ هـ ــ ٢١٦ هـ) صاحب الكتابات في غريب الحديث، والابل، والأضداد، والنحل، والإنسان، والمترادفات، والنبات، والخيل.

د ــ أبو عبيد القاسم بن سلام (١٥٧ هـ ــ ٢٢٤ هـ) صاحب الغريب في القرآن، والغريب المصنف، وغريب الحديث، والانساب.

وقد جمع هؤلاء أسماء أو صفات كل إنسان أو حيوان أو حشرة أو نبات أو بئر أو مطر أو سلاح أو درع، محاولين توضيح معاني المفردات الخاصة بكل مجال على حدة، أو نقول بدقة أكثر: إنهم اقتصروا فقط على المفردات الصعبة أو (الغريب) وذلك بالشرح والتفسير.

فأبو عبيدة يكتب عن الخيل ، وأبو زيد يكتب عن المطر ، والأصمعي يكتب عن خلق الإنسان ، والخيل ، والشاء ، والنبات ، والشجر ، والنخل ، والكرم ، والوحوش . وأبو عبيد يكتب عن النعم والبهائم ، والوحش ، والسباع ، والطير ، والهوام ، وحشرات الأرض .

ويقال ان أول من ألف في كتب الحيوان هو أبو خيرة الاعرابي العدوي وهو أول من كتب في الحشرات أيضاً . هذا الرجل الذي أخذ عنه أبو عمرو بن العلاء ، ثم أبو عمرو الشيباني ت ٢٠٦ هـ وقد كتب عن النحل والعسل ، كما كتب أبو عبيد عن الحيات والعقارب .

وفي الخيل خاصة كتب أبو مالك عمرو بن كركرة ، ثم النضر بن شميل ت ٢٠٤ هـ ، ثم هشام الكلبي ٢٠٤ / ٢٠٦ هـ ، وأيضاً الأصمعي وابن الأعرابي[1] . وظل اهتمام الدارسين بهذه الكتب قاصراً أو غير متوائم مع قيمة مضامينها ، ذلك لأن الإشارة إلى هذه الكتب غالباً ما تجيء في معرض التمهيد للحديث عن التأليف المعجمي الشامل .

وقد وجه المستشرقون اهتمامهم إلى هذا التراث ، وعملوا على تحقيقه ونشره منذ بداية القرن العشرين .

فقد نشر أوجست هفنر Haffner (ضمن كتاب : الكنز اللغوي في اللسان العربي ، صدر في بيروت ١٩٠٣ م ، وفي ليبزج ١٩٠٥ م) كتاب خلق الإنسان للأصمعي الذي ذكر فيه اسماء أعضاء الانسان وأعماره وزواجه وولادته ، كما نشر له أيضاً كتاب الشاء الذي يبدأ به عن حمل الشاة ، وتعدد أسمائها أثناء الحمل وبعد الولادة ، وعن عمر الشاة وتدرجها في السن ، ثم عن أسمائها عند الحلب ، وأنواع الحلب ، وخلقة الشاة وعيوبها ، وما يستحب منها ، وتركيب قرونها ، وأسماء قطعانها حسب العدد .. والكتاب صغير جداً .

---

(١) د / حسين نصار : المعجم العربي ص ١١٦ وما بعدها ، ص ٣٢٢ وما بعدها .

وكذلك نشر كتاب الإبل الذي يتحدث فيه عن حمل الناقة وتعدد أسمائها أثناء الحمل، وأسماء الحوار في مراحل نموه، والممدوح من صفات الإبل والمذموم نشر في ليبزج سنة ١٩٠٥، ونشر له أيضاً كتاب النبات والشجر الذي يتحدث في أول فصل عن النبات عموماً، وأسماء بعض النبات الذي ينبت في جزيرة العرب. وكذلك عن النبت من الأحرار وغير الأحرار من بقول وأعشاب، وفصل آخر في اسماء الذكور من النبات، وآخر من غير الذكور، وفصل في أسماء الحمص، وفصل فيما ينبت في السهل، وفصل فيما ينبت في الرمل من الشجر وغيره.

ان كتاب النبات والشجر للأصمعي نشر في بيروت عام ١٨٩٨ بواسطة د. أوجست هافنر.

ونشر كتاب خلق الانسان في بيروت عام ١٣٢٢ هـ.

ونشر كتاب الإبل في بيروت عام ١٣٢٢ هجري ايضاً.

نشر كتاب الشاء في (فينا) عام ١٨٨٨م من قبل هافنر وبالمثل نشر فريتس كرنكوي كتاب الخيل لأبي عبيدة معمر بن المثنى، ونشر وليام رايت كتاب: صفة السرج واللجام لابن دريد البصري. ولا أعني بذلك أن الأمر اقتصر على المستشرقين وحدهم، ولكنهم على أية حال كانوا الطليعة في هذا المضمار، وبعدهم بنحو نصف قرن تقريباً بدأ الباحثون العرب يدلون بدلوهم، فنشر د. عزة حسن في دمشق كتاب النوادر لأبي عبدالله الأعرابي، وذلك سنة ١٩٦١م، وتلاه د. إبراهيم السامرائي الذي نشر كتاب خلق الإنسان للزجاج في بغداد سنة ١٩٦٣.

في سنة ١٩٧٠ نشر الاستاذ الدكتور/رمضان عبد التوّاب كتاب البئر لابن زياد الأعرابي، وتلاه د. عبدالله يوسف الغنيم الذي حقق كتاب النبات للأصمعي ونشره ١٩٧٢.

وقد دلنا د/أحمد طاهر حسنين على جهد مشكور قامت به باحثة عربية تحت

اشراف الأستاذ الدكتور حسين نصار ــ بإعداد رسالة للدكتوراه عن : « التأليف في خلق الإنسان من خلال معاجم المعاني » ونشرتها في دمشق بدون تاريخ .

والغريب هنا هو أن النظرة إلى مثل هذه الكتب لم توفها حقها ، لأن الباحثين قد مروا عليها مروراً عابراً حيث كان ما يشغلهم أكثر هو المعجم العربي بالكامل ، وبالمعنى الشامل لكلمة معجم ، لهذا فإنهم دائماً يركزون على الخليل ابن أحمد ومعجمه « العين » .

إن اهتمام الدارسين بمعجم « العين » شغلهم عن مؤلفات كانت متزامنة مع عين الخليل ، وكان مؤلفوها معاصرين للخليل . وهذه المؤلفات لا يمكن اعتبارها بأي حال مجرد «معبر» للتأليف المعجمي بمعناه الشامل ، ذلك لأنها لو كانت هكذا فلماذا استمرت حتى بعد ظهور عدد من القواميس الشاملة .

فالزجاج[1] (ت ٣١١ هـ) يكتب عن خلق الإنسان .

وابن دريد صاحب الجمهرة (ت ٣٢١هـ) يكتب عن السرج واللجام ويكتب عن المطر والسحاب في نفس الوقت الذي يكتب فيه الجمهرة والاشتقاق ، والملاحن ، واللغات ،

وابن خالوي (ت ٣٧٠ هـ) يكتب كتاباً عن الشجر ، وغيرهم كثيرون ممن ألفوا في نفس الموضوع مثل ابن فارس (أحمد بن زكريا القزويني أبو الحسين ت ٤١٥ هـ) صاحب مقاييس اللغة ، والمجمل ، والصاحبي ، والفصيح ، وفقه اللغة ، والإسكافي (محمد بن عبدالله الخطيب) المتوفى (٤٢٠ هـ) الذي كتب : غلط العين ، ومبادىء اللغة ، وعبدالله بن سعيد الخوافي (ت ٤٨٠ هـ) . بل إننا

---

(١) د / وجيهة السطل : التأليف في خلق الانسان ص ٢٥ .

نجد من المتأخرين: الصاغاني (ت ٦٥٠ هـ)، وشرف الدين علي بن يوسف بن حيدره الطبيب (ت ٦٦٧ هـ)، وجلال الدين السيوطي (ت ٩١١ هـ) وغيرهم[١].

ومن هنا تنتابنا حيرة في اعتبار ما كتب في القرن الثاني وأوائل الثالث الهجريين حلقة عابرة نجتاز منها إلى القواميس الشاملة، خاصة وأن التأليف في فرع خلق الإنسان على سبيل المثال قد امتد حتى القرن العاشر الهجري.

لا شك أن اللغويين العرب في العصور الوسطى كان يجدون أهمية وأهدافاً لهذا التأليف المعجمي المتخصص جداً، ربما لا تغني عنه القواميس الشاملة، ومن أجل ذلك فقد ظلت له ضرورته تماماً كالقواميس الشاملة، على مدى العصور، ولهذا فسوف نعتبره فرعاً من فروع التأليف المعجمي يضاف إلى معاجم الألفاظ ومعاجم المعاني، وهو وإن كانت له قرابة بهذا النوع الأخير، فإنه وما يزال متميزاً عنها، مما يستوجب عرضه على حدة.

وينبغي هنا ألا نغفل ما عرف بكتب الصفات التي كتب فيها كل من:

ـــ النضر بن شميل (النضر بن شميل التميمي أبو الحسن) ولد ١٢٢ هـ وتوفي ٢٠٣ هـ صاحب الكتابات في الصفات والسلاح وغريب الحديث.

ـــ قطرب: محمد بن المستنير صاحب المؤلفات العديدة في الصفات (ت ٢٠٦ هـ)، بصري اللغة، وله في النحو: العلل في النحو، والاشتقاق في الصرف، آراؤه في مجالس العلماء للزجاجي، والمزهر، والهمع والإنصاف.

ـــ الفراء (ت ٢٠٧ هـ) كوفي اللغة صاحب معاني القرآن (آراء نحوية وصرفية كثيرة)، وله: المذكر المؤنث[١].

---

(١) د / أحمد مختار: البحث اللغوي عند العرب.

(٢) من كتب الفراء: معاني القرآن، واللغات، مشكل اللغة، ما تلحن فيه العامة.

ـ الأصمعي غني عن التعريف بكتاباته (ت٢١٦ هـ).
ـ الديمرتي (ت ٣٥٥هـ)[1].

ونظراً لأهمية المعاجم المتخصصة فقد رأينا أن نعطي نماذج لها في مجال خلق الإنسان، وسيشمل عرض:

خلق الإنسان للأصمعي

كتاب الأصمعي هو أول كتاب وصلنا متكاملاً في هذا الغرض وهو يشمل الحمل والولادة، أعمار الإنسان، أسماء جماعة الخلق، جسم الإنسان وتسمية كل الأعضاء: الرأس، العنق، الكتف، الظهر، القلب، الصدر، البطن، اليد، الرجل، أعضاء التناسل عند الرجل والمرأة، أوصافاً عامة عن كل منهما.

وطبع هذا الكتاب لأول مرة في بيروت عام ١٣٢٢ هـ. ويلاحظ القارىء لهذا الكتاب أن الأصمعي عني عناية فائقة بالوصف التشريحي لجسم الإنسان من الخارج ومن الداخل على حد سواء. وكذلك فقد أشار إلى وظائف هذه الأعضاء وأدق خصائصها بل وعيوبها وأمراضها وطرق مداواتها.

وقد أورد الأصمعي الكلمات الخاصة بكل عضو دون ترتيب في ذكر كل معنى على حدة كذلك فإنه قد يكرر أحياناً على طريق ذكر شيء ثم الاستطراد إلى شيء آخر ثم العودة إلى ما ذكره أولاً وهكذا. الأصمعي رجل أصيل في بحثه هذا، يدل على ذلك أنه لم ينقل عن الآخرين، لأنه جمع كل هذه المفردات وعرف معانيها من الأعراب والبادية، ولا نجد إحالات إلى أسماء اللهم إلا الشعراء والرجاز أو ممن يستشهد بلغتهم.

(١) ابن النديم: الفهرست صفحات ٥٢، ٨١، ٨٦، وأيضاً د/وجيهة السطل: التأليف في خلق الإنسان صفحات ١٢١ ـ ١٢٣.

ان كتاب الأصمعي لم يكن فقط رائداً في بابه ، بل كان أيضاً مصدراً مهماً استقى منه العلماء الذين ألفوا في نفس الموضوع .

وبعض هؤلاء المؤلفين قد أشاروا إلى افادتهم من الأصمعي ، وبعضهم نقل عنه دون إشارة إليه .

ونظرة واحدة إلى ما كتبه ابن سيده في المخصص نجد ان معظم ما كتبه مأخوذ من كتب الأصمعي ككل .

والقارىء لكتاب (خلق الإنسان) للأصمعي (ت ٢١٦ هـ) ، ولكتاب (خلق الإنسان) لثابت بن أبي ثابت (ت ٢٧٦ هـ) يجد تشابهاً كبيراً بين الكتابين ، وبالطبع نرجح أن (ثابت) قد نقل عن (الأصمعي) الكثير دون إشارة إليه أحياناً ، ورغم أن «ثابت» قد خطا بهذا النوع من التأليف خطوات جيدة تمثلت في :

أ ـــ التنسيق والتبويب .

ب ـــ اغناء البحث من حيث كثرة الشواهد ومناقشتها .

جـ ـــ أورد آراء علماء اللغة والصرف والنحو في الألفاظ التي يوردها .

وهذا عكس ما فعله الأصمعي الذي كان يعنيه المعنى أكثر من أي شيء آخر .

خلق الإنسان للزجاج

يأتي «الزجاج» ت ٣١١ هـ فينقل عن الأصمعي وثابت بن أبي ثابت ، ليس فقط فيما يتعلق بالمادة اللغوية وطريقة عرضها ، بل أيضاً في المنهج الذي أخذ به نفسه ، هذا اذا استثنينا حذفه لموضوع الحمل والولادة وأسماء الإنسان في مختلف مراحل عمره .

أهم ملاحظة هنا هي أن الزجاج كان له أسلوبه الخاص ، حيث قسم كتابه إلى أبواب :

ـ باب لكل عضو ومن تحدث عنه .
ـ باب في صفات هذا العضو أو ذاك .

وواضح هنا التطور الذي طرأ على التأليف في خلق الإنسان ، فعلى حين يخلط الأصمعي بين الحديث التشريحي حول الأعضاء وصفاتها ، يخصص « ثابت » أبواباً من كتابه لصفات بعض الأعضاء ، أما « الزجاج » فلأنه متأخر عنهما مال إلى تنسيق أفضل حيث تحدث عن كل عضو في باب ثم عن صفاته في باب آخر .

مقالة في أسماء أعضاء الإنسان

هذه الرسالة بعنوان (مقالة في أسماء أعضاء الإنسان) لابن فارس اللغوي المتوفى (٣٩٥ هـ) ، وهي رسالة صغيرة الحجم جداً ، إذ تبلغ عشر ورقات فقط ، ويهمنا أن نشير إلى بدايتها عن سبب تأليفها وأنه كان لغرض عملي ، علمي : صحي أو طبي بوجه عام . وابن فارس يقول إنه ألف فيما ينبغي على المرء حفظه من خلق ، حتى لا يشكو المرء من وجع يعتريه في عضو من أعضائه ، ولا يعرف اسمه . وأتمنى ان تعرض رسالة ابن فارس على طبيب متخصص يعطينا رأي العلم والطب فيما قاله ابن فارس في هذه الرسالة وإلى أي مدى يتفق رأيه مع الطب الحديث ، وفي الواقع ليس رسالة أو كتيب ابن فارس الذي يحتاج إلى ذلك بل كل تراثنا العلمي والطبي كي نجمع بين الوافد والموروث ، أو الأصالة والمعاصرة .

ونعود لنقول ان ابن فارس كسابقيه ممن ألفوا في نفس الموضوع يتبع نفس الترتيب بدءاً من الرأس ومعرجاً على أعضاء التناسل عند الرجل والمرأة ، ثم يذكر أسماء الشخص عامة ، وموجز رحلة العمر البشرية بقوله :

« يكون ابن آدم طفلاً رضيعاً ، ثم فطيماً ... » وينتهي في مقالته بقوله : « هذا أوجز ما يقال في خلق الإنسان » .

وقد لاحظت الدكتورة وجيهة السطل ان ابن فارس أهمل ذكر بعض الصفات ، ربما بسبب الإيجاز الشديد الذي أخذ به نفسه ، مما كان له أيضاً أثر كبير في خلو مقالته من أي شاهد او استطراد لغوي أو أي اسم لغوي آخر رغم أن ابن فارس عالم متميز ، له إبداعاته وسبقه وابتكاراته .

خلق الإنسان للإسكافي

لا نعرف الوقت الذي ولد فيه محمد بن عبدالله الخطيب الاسكافي بينما تؤكد المراجع التي بين أيدينا أنه توفي ٤٢١ هـ (١٠٢٩ م)[١] ، الاسكافي صاحب غلط العين ومبادىء اللغة ويبدو أنه لم يأخذ حظه من الشهرة مثله في ذلك مثل : البرمكي أبي المعالي ، وابن التياني الاندلسي وغيرهم من الذين ساهموا مساهمة إيجابية في بناء المعجم العربي .

أما كتاب خلق الإنسان للإسكافي فيبدأ بمرحلة ولادة الولد ثم يسميه في مراحل الطفولة المبكرة ، ويتابع سلسلة أسماء الإنسان مع تدرجه في السن ونموه ، ويقف عند مرحلة الشيب وقفة لغوية .

ثم يذكر الاسكافي جملة خلق الإنسان وعرض جسمه عرضاً تشريحياً عضوياً مفصلاً ، بادئاً بالرأس وحتى القدمين ، وأخيراً يخصص باباً للحمل والولادة . ويلاحظ على الاسكافي أنه عرض مادته في شكل منظم وأسلوب متماسك يفضي بعضه إلى بعض دون تكلف أو عناء .

(١) يرى د . عدنان الخطيب نقلاً عن الزركلي في الاعلام أن وفاة الإسكافي سنة ٤٢٠ هـ .

ورغم وحدة اللغة والموضوع والمعاني فإن الإسكافي يتميز عن سابقيه بعدة أمور نوجزها فيما يلي :

١ ــ يذكر مرادف اللفظ أو الشرح التفصيلي .

٢ ــ يورد أسماء العضو المتحدث عنه أولاً .

٣ ــ يتبع ذلك بذكر الحديث عنه من الناحية التشريحية ، وصفاته وأحياناً عيوبه .

٤ ــ يعطي إشارات لغوية مهمة .

ولكن يلاحظ عليه أنه تحلل من الشواهد ، وأحياناً كان يورد دلالة اللفظ عند اللغويين .

ومن التعريفات الغريبة التي أوردها في هذا المجال : (البكر : التي لم تتزوج ، والبكر : التي ولدت واحداً) .

وربما كان ذلك من المشترك اللفظي الذي تتعدد فيه المعاني لكلمة واحدة ، وذلك بحسب الاستخدام . كذلك فإنه أورد العكس أي تعدد الألفاظ والدلالة واحدة (الترادف) .

برغم تأثر الإسكافي بالسابقين عليه في هذا المجال ، فإنه لم يراعِ الروح العلمية ولم يقدرها حق قدرها وذلك إذ غمط السابقين حقهم ، وأخذ منهم دون الإشارة إليهم[١] .

---

(١) د / وجيهة السطل : التأليف في خلق الانسان صفحات ٧٩ ــ ٨٢ ، ٨٤ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٩٠ ــ ٩٣ بتصرف .

«كتب الحيوان»
في تراثنا اللغوي

ألف الكثير من اللغويين المسلمين كتباً خاصة تتحدث عن الحيوان، وكلنا يعلم منزلة بعض الحيوانات عند العرب، فالفرس عدة الحرب والفروسية، وآلة الصيد في الصحراء، والجمل كان وسيلة للتنقل بل وسيلته الوحيدة، والحيوان الصبور وسط هذه البيداء القاحلة، لذا لم يكن غريباً أن يتحدث علماء اللغة عن أسماء حيواناتهم المختلفة وأجناسها وصفاتها واعضائها. تحدث العرب عن كثير من حيواناتهم وخاصة الإبل، كما تحدثوا عن الإنسان في كثير من كتبهم.

وتذكر لنا المراجع الإسلامية والعربية كثيراً من المؤلفين ومؤلفاتهم من أمثال الأصمعي ومن كتبه:

ــ **كتاب الوحوش**: وفيه أسماء الوحوش وصفاتها. ويبدأ بأسماء الحمار الوحشي وصفاته وأعضائه. وأسماء البقر وصفاتها وأسماء أولادها مع ذكر ما قيل فيها من شعر أو رجز، وذكر أعضائها ولبنها وأسماء قطعانها؛ ثم أسماء الظباء وصفاتها وأسماء أولادها؛ وأسماء الوعول وصفاتها، وأسماء النعام وصفاتها وصغارها؛ والأسود وأسمائها وصفاتها، والذئب وصفاته، والضبع وأوصافها، والثعلب وأسمائه؛ والأرانب وصفاتها.

ــ **كتاب الابل**: ويتحدث فيه عن حمل الناقة وتعدد اسمائها أثناء الحمل، وأسماء الحوار في مراحل نموه، والممدوح من صفات الإبل والمذموم.

هذا وقد طبع كتاب «الوحوش» لأول مرة في «فينا» عام ١٨٨٨ بواسطة الدكتور «رودولف جيير»، أما كتاب «الإبل» فقد طبع لأول مرة في بيروت عام ١٣٢٢ هـ.

وللأصمعي تنسب كتب **خلق الفرس والخيل والشاء** ومن الذين كتبوا عن «الحيوان» : أبو مالك عمرو بن كركرة وهو أعرابي كان يعلم في البادية العربية ويعمل وراقاً في الحضر مولى سعد ، وراوية أبي البيداء الرياحي البصري ، ويقال ان أمه كانت تمت إلى أبي البيداء هذا ، ويقال ان أبا مالك كان يحفظ اللغة كلها ، وكان بصري المذهب وقال الجاحظ عنه : كان أحد الطياب يزعم أن الأغنياء عند الله أكرم من الفقراء ، ويقول ان فرعون عند الله أكرم من موسى ويلتقم المحاد الممتنع ولا يورطه وهذا الكلام في حاجة إلى تمحيص ودراسة . ولأبي مالك بن كركرة كتب في : خلق الإنسان ، وفي الخيل وكتب النضر بن شميل والكلبي ، والشيباني ، وقطرب (محمد بن المستنير) ومن مؤلفاته : (خلق الفرس) ، (خلق الإنسان) وغيرها . ثم يأتي ابن سيدة في معجمه الشهير «**المخصص**» :

ابن سيدة ، أبو الحسن علي بن إسماعيل النحوي ، اللغوي ، الأندلسي ، المعروف بابن سيده المرسي كان مولده بمرسية في شرق الأندلس ، وكان ضريراً هو وأبوه ، كان أبوه قيماً يعلم اللغة وعليه اشتغل ولده في أول الأمر ثم على أبي العلاء صاعد البغدادي ، وقرأ أيضاً على أبي عمر الطلمنكي . وتوفي بمدينة دانية في شرق الأندلس أيضاً سنة ٤٥٨ هـ وعمره ستون سنة أو نحوها .

ومن مؤلفاته : كتاب **المحكم** ، وهو معجم لغوي جامع كبير طبعت منه ثلاثة أجزاء بالقاهرة . وكتاب الأنيق في شرح الحماسة ويقع في ستة مجلدات . وأما كتابه «**المخصص**» فهو من معجمات المعاني ، وسار فيه على نمط لم يسبق إليه فبدأ كتابه بخلق الإنسان وما يتعلق بحمله وولادته ورضاعه وصفة أعضائه في تفصيل وتبويب ، وكذا تناول القول في نعوته وأخلاقه وطباعه ، وحركاته وجماعاته وأشباه ذلك .

وخصص كتاباً بعده للنساء ونعوتهن الخلقية ، وكتاباً للباس ، وآخر للطعام

وللسلاح ، وكتاباً للخيل ونحوها ، وكتاباً للأتيسة ، وآخر للسلاح وللقتال والضرب ونحوه . ثم تكلم عن الحيوان بمختلف أنواعه من الإبل والغنم والدواب والهوام والطير .

وإذا فرغ من الحيوان تناول الأنواء والسماء والفلك وما يتعلق بها ، والأ يام والليالي والرياح والسحاب والمطر ، والماء وأدواته ونحو ذلك ، ثم ساق القول في ضروب الأرض وجبالها ووديانها وما ينبت فيها ، ثم تكلم على النبات في تفصيل واسع .

وتكلم ابن سيدة على تصرفات البشر ومشاعرهم وعلاقة بعضهم ببعض ، والمعاملات المادية والمعنوية ، ثم ساق بعض الخصائص اللغوية كالمكنيات والمبنيات والمثنيات ، وكلاماً في النسب والإضافة والنفي والأضداد والإبدال والهمز والقلب والاتباع والمعربات وحروف المعاني وأنواع المبنيات ، والتصغير والأفعال والمصادر والصيغ ونحو ذلك من المسائل الصرفية ، والفروق اللغوية ، كما تكلم عن المقصور والممدود ، والمذكر والمؤنث ، والعدد . وختم كتابه باشتقاق أسماء الله عز وجل .

وإذا كان لنا ملاحظة على ما كتبه ابن سيده الأندلسي فنحن نؤكد أن ابن سيدة تأثر تماماً بما كتبه الأصمعي في مؤلفاته المختلفة . على سبيل المثال نقل ابن سيدة ما قاله الأصمعي في **كتاب خلق الإنسان** وذكر فيه أعضاء الإنسان وأعماره وزواجه وولادته ، **وكتاب الإبل** الذي تحدث فيه عن حمل الناقة وتعدد اسمائها أثناء الحمل ، وأسماء الحوار في مراحل نموه ، والممدوح من صفات الإبل والمذموم ، وما كتبه في **كتاب النبات والشجر** حيث تحدث الأصمعي في أول فصل عن النبات ، وأسماء بعض النبات الذي ينبت في جزيرة العرب وكذلك عن النبت من الأحرار وغير الأحرار من بقول وأعشاب ، وفصل آخر في أسماء الذكور من النبات ، وآخر من غير الذكور ، وفصل في أسماء الحمص ، وفصل

فيما ينبت في السهل، وفصيل فيما ينبت في الرمل من الشجر وغيره. وما كتبه الأصمعي في **كتاب الوحوش**، **وكتاب الخيل** حيث تحدث عن أسماء أعضاء الخيل وأعمارها مع ذكر ما قيل في ذلك من أشعار. ثم يبحث عما يستحب من خلقة الفرس، وما يكره منه؛ وفي صفة مشي الخيل وعدوها وألوانها وشياتها ـــ أي علاماتها من غرر وحجول ـــ، وفي أنساب الخيل العربية المعنقة المعروفة بالعدو والطرد، ويذكر بعض الحكايات عن ذلك. كما تأثر ابن سيده بما جاء في **كتاب الفرق** للأصمعي (بفتح الفاء وتسكين القاف): وقد جاء فيه ما خالق الإنسان فيه من البهائم، ويبدأ بالفم، ثم الشفة، ثم الأنف، فالظفر، فالرجل، فالصدر، فالثدي، فالفرج، ثم المخاط، والبصاق، والعرق، والجلوس، والتغوط، ثم الغلمة ـــ أي البلوغ ـــ والنكاح والحمل والولادة، وأسماء الأولاد، ثم أسماء جماعات الأشياء، وأنواع أصوات الطير والبهائم والوحش.

ان عملية التأثير والتأثر أمر وارد لا مرية فيه، والباحث في كتب التراث يلمح ذلك جلياً وبالذات تلك الكتب التي تحتوي مواداً لغوية، قد يأخذها رواد المعاجم من كتب الحيوان، وخلق الإنسان، والهمز، والنوادر، والغريب ولكن هذا الأخذ لا يتعدى المادة اللغوية. أما المنهج فمختلف فكل معجم له منهجه أو إتجاهه اللغوي الذي يسير عليه، إذن فلا غضاضة أن نرى مواد الأصمعي الغزيرة في «**مخصص**» ابن سيدة، فالأصمعي معلم أهل اللغة الاول وأثره واضح في كل تصانيفهم.

نلتقي بكتاب آخر عن (الحيوان) انه (كتاب الحيوان) للجاحظ والجاحظ غني عن التعريف فهو أبو عثمان بن بحر بن محبوب البصري، لقب بالجاحظ، وعمر أكثر من تسعين سنة، عاش أغلبها في القرن التاسع الميلادي، وتوفي سنة ٨٦٨، ألف كتباً كثيرة، ومن أشهرها «الحيوان».

والكتاب سفر ضخم يقع في أجزاء سبعة. وقد طبع في القاهرة سنة ١٩٠٥م. وقد قسم الحيوان إلى أقسام أربعة:

— شيء يمشي .
— شيء يطير .
— سيء يسبح .
— شيء ينساح .

أما النوع الذي يمشي فعلى أربعة أقسام :

— ناس .
— سباع .
— بهائم .
— حشرات .

ثم يشرح كل قسم على حدة ، والكتاب بالاضافة إلى كونه من كتب علم الحيوان التجريبي ، فهو موسوعة أدبية ، علمية طريفة .

وإذا كان « أبو عبيدة » قد ألف كتاباً بعنوان « الحيات والعقارب » وابن الأعرابي ألف كتاباً عن « الذباب » ، وأبو حاتم السجستاني ألف كتاباً عن « الحشرات ، والجواد ، والنحل والعسل » ، فان الثعالبي يتكلم هو الآخر في كتابه : « فقه اللغة » عن الحشرات ، وابن سيدة في مخصصه أيضاً يعقد لها فصلاً خاصاً .

ويقصد هؤلاء المؤلفون بالحشرات الزواحف وهوام الأرض كالدواب الصغيرة واليربوع والضب والقنفذ والفأر وغيرها .

ان كتب الحيوان عند العرب أمر يحتاج إلى دراسة مطولة لا نجد أن هذا المجال مجالها لذلك اكتفينا بهذه السطور القليلة .

كتب النوادر والهمز
ورحلة المعجم العربي

كتب النوادر هي تلك الكتب التي تذكر بعض الألفاظ العربية ، وربما كانت هذه المفردات لهجة تنتسب إلى لهجة من لهجات العرب غير المعروفة أو لغة من اللغات غير المشهورة .

ويقال ان أول من ألف في هذه النوادر أبو عمرو بن العلاء (١٥٧ هـ) ، ذلك العالم الجليل الذي ولد سنة ٧٠ هـ ومات سنة ١٥٤ أو ١٥٧ هـ على الأرجح وهو في طريقه للشام . وهو أحد القراء السبعة ، ورئيس مدرسة البصرة وأمين اللغة ، ثقة ، عالم بالقرآن والعربية والشعر وأيام العرب ، وقد وجه عناية كبيرة إلى تدوين كميات هائلة من الشعر الجاهلي والأخبارالمتعلقة به والنوادر واللهجات ، ويقال إنه أحرقها فيما بعد تحت تأثير ديني .

وقد قال عنه الأصمعي : « جلست إليه ثماني حجج ، فما سمعته يحتج ببيت إسلامي » .

وقال عنه ابن سلام : كان أبو عمرو أوسع علماً بكلام العرب ولغاتها . وقال ابن سلام في موضع آخر : « سمعت يونس يقول : لو كان أحد ينبغي أن يؤخذ بقوله كله كان ينبغي لقول أبي عمرو بن العلاء في العربية أن يؤخذ كله » .!

وقال أبو عبيدة عنه : « كان أعلم الناس بالأدب والعربية والقرآن والشعر ، وكانت عامة أخباره عن أعراب ادركوا الجاهلية ، له أخبار وكلمات مأثورة . »

وللصولي كتاب بعنوان « أخبار أبي عمرو بن العلاء » ويقول عنه الفرزدق :

« مــــا زلــت أغـلـق أبواباً وأفـتـحـهـا
حــتــى أتـيـت أبـا عـمـرو بـن عـمـار»

وهو (أبو عمرو بن العلاء) لأن اسمه بالكامل : أبو عمرو بن العلاء ، زبان ابن العلاء بن عمار بن عبدالله .

وحاولت قدر طاقتي البحث عن كتاب أبي عمرو في « النوادر » ولكن لم أعثر عليه ، وقد أكد لي أكثر من عالم ثقة أن هذا المؤلف المبكر مفقود .

وتتابع بعد ذلك التأليف في هذا المجال متمثلاً في مؤلفات كل من اللحياني ، علي بن حازم أبو الحسن المتوفى ٢٠٧ هـ ، وأبو زيد الأنصاري ، سعيد ابن أوس المولود ١١٩ هـ والمتوفى ٢١٥ هـ وأبو مسحل الأعرابي ، عبد الوهاب بن جُريش المتوفى ٢٢٨ هـ وابن الأعرابي ، محمد بن زياد أبو عبدالله المولود ١٥٠ هـ المتوفى ٢٣١ هـ ، ويونس بن حبيب ، وأبو مالك الأعرابي ، عمرو بن كركرة التميري ، والكسائي عالم النحو المشهور ، والزبيدي ، وقطرب ، وأبي عمرو الشيباني وأبي عبيدة والأصمعي ، وغيرهم من الرواة والنحويين وسنعرف القارىء ببعض هؤلاء العلماء الأجلاء :

ــ أبو زيد الأنصاري :

هو سعيد بن أوس الأنصاري من الخزرج ، وكان أعلم من أبي عبيدة ، والأصمعي بالنحو . يقول ابن النديم : « ولا أعلم أحداً من علماء البصريين في النحو واللغة أخذ عن أهل الكوفة شيئاً من علم العرب إلا أبا زيد فإنه روى عن المفضل الضبّي . »

وقد حدث عن عمرو بن عبيد ، وأبي عمرو بن العلاء ، وروى عنه : أبو عبيد القاسم بن سلام ، ومحمد بن سعد الكاتب ، وأبو حاتم السجستاني ، وأبو زيد عمرو بن شبه ، وكان ثقة ، ثبتاً ، من أهل البصرة ، وكان أبو زيد أعلم من الأصمعي وأبي عبيدة بالنحو ، وكان كثير السماع من العرب .

وكان سيبويه إذا قال : « سمعت الثقة » فإنه يريد أبا زيد الأنصاري ،

وكان من أوثق الرواة، مات بالبصرة العراقية سنة ٢١٤ هـ وله من العمر ٩٣ سنة. وله كتب كثيرة ذكرها ابن النديم في الفهرست منها كتب في النوادر.

ــ قطرب:

هو أبو علي محمد بن المستنير ويقال ان اسمه أحمد بن محمد، ويقال أن اسمه الحسن بن محمد أيضاً والأخير هو الأرجح. أخذ اللغة عن سيبويه، وعن جماعة من علماء البصرة، وكان ثقة فيما يحكيه ومعنى كلمة (قطرب) في اللغة الدويبة التي تدب، لا تفتر، ويقال إن سيبويه لقبه بذلك لمباكرته الدائمة إياه في الأسحار، قال له يوماً: ما أنت الا قطرب ليل. وكان قطرب من المعلمين المشهود لهم بالكفاءة فقد تعهد بالتأديب ولد أبي دلف القاسم بن عيسى وهو من أعيان عصره. توفي قطرب سنة ٢٠٦ هـ وله العديد من الكتب المصنفة في معاني القرآن، والنوادر، والأزمنة، والفرق، والأصوات، والصفات، والعلل في النحو، والمثلث، والأضداد، وخلق الفرس، وخلق الإنسان، وغريب الآثار، والرد على الملحدين في متشابه القرآن، والهمز، وإعراب القرآن، وفعيل وأفعل.

ــ أبو عمرو الشيباني:

كوفي واسع العلم في اللغة، ثقة في الحديث. أصله من الموالي، وكان يؤدب في أحياء بني شيبان فنسب إليهم بالولاء وقيل بالمجاورة وبالتعليم لأولادهم، وأخذ عنه دواوين أشعار القبائل كلها، وكان يلزم مجلسه الإمام أحمد بن حنبل، وكتب عنه حديثاً كثيراً، روي عن ابنه عمرو بن أبي عمرو أنه قال: لما جمع أبي أشعار العرب كانت نيفاً وثمانين قبيلة، فكان كلما عمل فيها قبيلة وأخرجها الى الناس كتب مصحفاً، وجعله في مسجد الكوفة الكبير حيث كتب نيفاً وثمانين مصحفاً بخطه، وكان يكتب بيده إلى أن مات، وبلغ ١٢٠ سنة ومات سنة

٢١٣ هـ وقيل سنة ٢٠٦ هـ ، وأخذ عنه يعقوب بن السكيت ، واسم أبي عمرو : إسحق بن مرار ، ويقال إنه ولد سنة ١٠٠ هـ ـــ ٧١٩م وهو أحد رؤساء مدرسة الكوفة وقال ابن السكيت . «مات أبو عمرو الشيباني وله مائة وثماني عشرة سنة ، وكان يكتب بيده الى أن مات ، وكان ربما استعار مني الكتاب وأنا إذ ذاك صبي ، وكنت آخذ منه وأكتب من كتبه .

ـــ ابن الأعرابي :

هو أبو عبدالله محمد بن زياد الملقب بإبن الأعرابي ، ولد سنة ١٤٥ هـ ـــ ٧٦٢م وكانت وفاته بسامرا العراقية سنة ٢٢٥ هـ ـــ ٨٣٩م . وقيل سنة ٢٣١ هـ ، وكان عمره إحدى وثمانين سنة ، وهو عالم كوفي ، قال عنه أبو العباس :

« قد أملى على الناس ما يحمل على أجمال ، لم ير أحد في الشعر أغزر منه . »

وقال ثعلب : «شاهدت مجلس ابن الأعرابي ، وكان يحضره زهاء مائة إنسان ، وكان يسأل ويقرأ عليه ، فيجيب من غير كتاب ، قال : ولزمته بضع عشرة سنة ما رأيت بيده كتاباً قط ... قرأ على القاسم بن معن ، وسمع من المفضل بن محمد ، وكان يذكر أنه ربيب المفضل » .

ومن الذين كتبوا في « النوادر» و « الهمز» أبو سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعي ، صناجة العرب ، الإمام ، الراوي المشهود له بالأمانة والصدق والنزاهة ، كان ثقة مصدقاً لدى جميع العلماء والنقاد والباحثين ، ومن كتبه في هذا الموضوع « كتاب الهمز» ، و « كتاب النوادر» و « كتاب نوادر العرب » ، و « كتاب ما تكلم به العرب فكثر في أفواه الناس » وهذه المؤلفات ذكرها (ابن خلكان) في كتابه (وفيات الأعيان) و (الفهرست) (لابن النديم) .

ومنهم « عمرو بن كركرة» ويكنى بأبى مالك النميري ، كان يعلم في

البادية ، ويورق في الحضر ، ويتردد على البصرة ، ويعطي ما يجمعه من القبائل الى طلاب الفوائد الأدبية لقاء أجر. وكان معيناً لا ينضب في النوادر والأخبار، ويحفظ اللغة كلها على مذهب أهل البصرة. وله زميل آخر يدعى «أبا عرار العجلي» ، لا يقل عنه فصاحة وحفظاً للنوادر العربية.

ومنهم الكسائي : واحد من مشاهير علماء البصرة ، ورواة الأدب والشعر ، كان سيد بلاط الرشيد في اللغة والأدب ، جاءوا بالأصمعي ليكون نداً له ، وهو معلم الرشيد وأحد مشايخ الكوفة الأفذاذ.

مات الكسائي قبل نكبة البرامكة وهو من أساتذة الكوفة الذين قدموا البصرة وأخذوا النحو على علمائها ، ولا ندري إذا كان الأصمعي ، قد أخذ عنه شيئاً ، ولكن الذي نعلمه انهما التقيا في بلاط هارون الرشيد فيما بعد ، وتناظرا مرات كثيرة أمام الخليفة.

ونلتقي مع كتاب «النوادر في اللغة» لأبي زيد ، سعيد بن أوس الأنصاري. طبع لأول مرة في بيروت ، مطبعة اليسوعيين ، ١٨٩٤ م.

وأبو زيد اسمه : سعيد بن أوس بن ثابت الأنصاري البصري ، شيخ سيبويه ، والأصمعي ، غلب عليه الاهتمام باللغة والنوادر والغريب ، ويعد من أئمة اللغة والنحو ، ولد سنة ١٢٢ هـ وتوفي سنة ٢١٥ هـ. وسبق لنا التعريف به.

ولابي زيد كتب منها : كتاب اللبأ واللبن — كتاب المطر — كتاب الهمز.

وكتابه «النوادر في اللغة» يشتمل على أبواب من الشعر والرجز ونوادر من كلام العرب. وقد فسر فيه الشعر والرجز كما فسرت تلك النوادر التي يعني بهاغريب اللغة ، وقال في أوله : «ما كان فيه من شعر القصيد فهو سماعي من المفضل بن محمد الضبّي ، وما كان من اللغات وأبواب الرجز فذلك سماعي من العرب.»

وقد طبع الكتاب من رواية أبي الحسن على سليمان الأخفش للمرة الأولى في بيروت، بعناية سعيد الخوري الشرتوني صاحب كتاب أو معجم «أقرب الموارد» اللبناني مع آخر لأبي زيد سمي كتاب «مسايئه» فمن الناس من يضيفه إلى النوادر الزيدية ومنهم من يفرده ككتاب مستقل بذاته.

ومن المؤلفين الذين اهتموا بموضوع «الهمز» أيضاً ابن جني في «سر صناعة الاعراب»، وسيبويه في «الكتاب» والخليل بن أحمد في «العين»، والأزهري في «تهذيب اللغة»، وابن منظور في «لسان العرب»، والسيوطي في «المزهر» والزركشي في «البرهان في علوم القرآن» والخضري في: «حاشيته على ابن عقيل» والصبان في «حاشيته على الأشموني»، وأحمد بن علي بن مسعود في «مراح الارواح» والقلقشندي في «صبح الأعشى» والزجاجي في «الجمل» وغيرهم وغيرهم من الاوائل أمثال عبدالله بن زيد المعروف بعبد الله بن إسحاق الحضرمي، وقطرب، وأبي زيد الأنصاري، وأبي عبيد القاسم بن سلام، وابن دريد صاحب الجمهرة، وابن سيدة صاحب المخصص، على كل سنعود إلى هذا الموضوع بعد قليل.

فلنتفق أولاً أن كتب النوادر مليئة بالألفاظ اللغوية المهملة في اللغة، ربما لأنها لهجة لم تدخل اللغة النموذجية الشائعة على ألسنة الناس.

أما قول أستاذنا الدكتور حسين نصار[1] «إن هذه الكتب (يقصد كتب النوادر) هي الخطوة الأولى في سبيل المعاجم، حتى أن هذه المعاجم تأثرت كثيراً بمنهجها في داخل المواد فلم تحاول ترتيب الألفاظ فيها، وأوردت المترادفات التي كانت تولع بها هذه الكتب وسارت في علاج الأفعال والأسماء على نمطها، بذكر الماضي والمضارع والمصدر والصفة منها مرة وإغفالها أخرى، وذكر المفرد والجمع

---

(١) د. حسين نصار، المعجم العربي جـ ١ ص ١٤٠.

من الأسماء آونة واغفالها كثيراً . ولكن أكثر المعاجم تأثراً بها الجمهرة التي أفردت لها جزءاً كبيراً في ملحقاتها الختامية التي ألصقتها بدون داع فيها » .

هذا هو كلام د . نصار ولنا عليه اعتراضات نجملها فيما يلي :

— اذا كان قد تأثر بكتب النوادر معجم واحد وهو جمهرة ابن دريد البصري ، فلا يعني هذا أن جميع المعاجم قد تأثرت دون استثناء بها .

— الجمهرة لابن دريد لم تأخذ الا المادة فقط من كتب النوادر .

— منهج كتب النوادر لم تتأثر به المعاجم والدليل على ذلك أن أول معجم وهو معجم العين ، لم يتأثر بهذه الكتب .

— ان أول مؤلف في كتب النوادر كان لأبي عمرو بن العلاء المتوفى ١٥٤ هـ أو ١٥٧ .هـ وقام بحرق كل كتبه ومدوناته التي ألفها تحت تأثير ديني وتفرغ للعبادة في المساجد كما يؤكد ابن خلكان والسيوطي وابن النديم وغيرهم من الثقات .

— الخليل بن أحمد الفراهيدي رتب مواده اللغوية في العين داخل الباب ترتيباً كمياً أي حسب عدد الحروف الثنائي ثم الثلاثي ثم الرباعي ثم الخماسي .

— ان احتمال تأثر الخليل في معجمه بنوادر أبي عمرو بن العلاء احتمال ضعيف جداً ، وربما تأثر بها في المادة اللغوية فقط ، وفي ذكر المترادفات . ولا يعني ذلك تأثره بمنهج كتب النوادر .

— جاء بعد أبي عمرو من مؤلفي النوادر القاسم بن معن ، ويونس بن حبيب وهما ليسا في شهرة الخليل ولا علمه ولا ذكائه ، مما يقطع بعدم تأثره بنوادرهما إلى جانب ترتيبه الكمي الذي ابتدعه ولم يسبقه إليه أحد .

- إذا كان قد جاء بعد القاسم ويونس مؤلفون في النوادر فقد جاءوا بعد اتمام أول معجم في العربية وهو معجم العين .
- المعاجم التي جاءت بعد العين تأثرت بالخليل منهجاً ومادة من أمثال : الجمهرة لابن دريد ، والبارع للقالي ، وتهذيب اللغة للأزهري ، والمحيط للصاحب بن عباد ، ومختصر العين للزبيدي ، والمحكم لابن سيدة .
- وأريد هنا أن أضيف أنه اذا كانت المعاجم العربية تأثر بعضها بكتب النوادر العربية ، كان هذا التأثر في المواد فقط ، وليس في المنهج ، فربما أخذ بعض مؤلفي المعاجم بعض المفردات الغريبة أو النادرة من كتب النوادر .

نعود إلى الهمزة وكتبها فنعرفها بأنها صوت ساكن (Consonant) أو مطابق ، أو متفق ، أو موائم ، بمعنى أنه صوت مختلف عن الحركة أو الشكلة (Vowel) .

والهمزة صوت موجود في اللغة العربية وفي اللغات السامية أيضاً ذكره نصر بن عاصم كأول حرف من حروف المعجم وفق ترتيبه ، وجعله الخليل الحرف رقم (٢٦) في العين ، وجعله سيبويه الحرف الأول في الكتاب ، وجعله القالي الحرف رقم (٢٨) والأخير في ترتيبه والهمزة كانت تسهل في لهجة كثير من القبائل ومنها قريش حيث كانت تسهل الهمزة فتنطقها ألفاً (حركة طويلة) فيقول في كلمة (رأس) «راس» ، بينما تخففها تميم وقيس ، وقد نزل القرآن الكريم مخففاً الهمزة ، وبالرغم من تسهيل القبائل لهذا الصوت الصعب في النطق .

وكتب الهمز تذكر الألفاظ التي بها همزة ، سواء أكانت في الأول أو في الوسط أو في آخر الكلمة (سواء أكانت قطعاً أو وصلاً) ، ثم تفسر هذه الألفاظ أو تذكر معانيها . وممن ألف في هذا النوع كما ذكرنا الحضرمي وقطرب وأبو زيد ، في كتابه الهمز ، وابن سلام (٢٢٤ هـ) ، كما عقد لها صاحب الجمهرة بابا سماه « أبواب النوادر في الهمز» أورد فيه كل ما فيه همزة من ألفاظ ثلاثية أو رباعية ، سالمة أو معتلة .

اما ابن سيدة فجعل في كتابه « المخصص » عشرة أبواب كاملة للهمزة ، أتى بالألفاظ المهموزة ممن سبقه من المؤلفين في هذا المجال .

ويهمنا الآن أن نقول ان كتب الهمز ما هي إلا جمع لمادة لغوية غير مرتبة ترتيباً منطقياً تدخلها في عداد المعاجم مجازاً ، وما هي إلا رسائل جامعة لبعض المواد اللغوية المشتملة على همزة .

أما المعاجم فشيء مختلف تماماً عن ذلك ، لأنها شاملة للمواد اللغوية للغة معينة ، ثم ترتيبها ترتيباً لفظياً ، أي حسب اللفظ ، أو ترتيبها معنوياً ، أي بحسب معنى الكلمة . وقد نشأ الفرعان في المعاجم العربية ، وان كانت المعاجم اللفظية طغت على سواها من المعاجم المعنوية ، ومن الطريف هنا أن غالبية المعاجم في اللغات المختلفة بدأت معنوية ، ونجد هذا واضحاً في اللغات الصينية واليونانية والأشورية البابلية .

والله الموفق

الخليل بن أحمد ومعجمه «العين» بين المنهجية والريادة[1]

يعرف جيل الشباب الخليل بن أحمد معرفة تقتصر على كونه واضع علم العروض العربي وواضع جميع مصطلحاته تقريباً ولكن ما لا يعرفه شباب هذا الجيل عن الرجل أنه كان عالماً فذاً من علماء اللغة، وصاحب أول معجم في العربية (معجم العين)، وصاحب مدرسة في المناهج اللغوية ونعني بها مدرسة (التقليبات) أو (مدرسة المخارج الصوتية) وقبل أن نتعرض للمعجم وصاحبه الخليل من الناحية اللغوية يجدر بنا أن نستعرض حياة الرجل. فاذا تصفحنا الكتب التي ترجمت له نجد أنها تتفق على اسمه: الخليل بن أحمد بن عمر بن تميم الفراهيدي البصري الأزدي صاحب العربية والعروض، ولد عام مائة للهجرة ومات في ١٧٤ هـ الموافق ٧٩١م في أوائل خلافة الرشيد، يقول السيرافي: كان غاية في استخراج مسائل النحو وتصحيح القياس فيه. وهو أول من استخرج العروض وحصر الأشعار العربية بها وعمل أول كتاب العين المعروف المشهور الذي به يتهيأ ضبط اللغة، وكان من الزهاد في الدنيا والمنقطعين الى الله تعالى. وكانت له معرفة بالايقاع والنظم وهو الذي أحدث له علم العروض فانهما متقاربان في المأخذ، وكان آية في الذكاء، وكان الناس يقولون لم يكن في العربية بعد الصحابة أذكى منه، وكان يحج سنة ويغزو سنة.

ويقول صاحب طبقات اللغويين، حدثنا أحمد قال: حدثنا مروان قال: حدثنا العباس بن الفرج عن الأصمعي قال: كادت الاباضية تغلب على

---

(١) مجلة الفكر التونسية ــ السنة ٢٩ ــ العدد ٨ ــ مايو ١٩٨٤ دراسة كتبها كاتب هذه السطور.

الخليل ، حتى منَّ الله عليه بمجالسة أيوب السختياني الملقب بأبي بكر البصري سيد فقهاء عصره والذي نصح الخليل بترك هذا المذهب .

ومن أساتذة الخليل الذين ذكرتهم كتب التراجم : أبو عمرو بن العلاء وأيوب السختياني البصري ، وعاصم الأحول . والعوام بن حوشب وغيرهم . ومن أشهر تلاميذه الأصمعي وسيبويه ، والنضر بن شميل ، ومؤرج السدوسي والليث ابن المظفر وغيرهم .

لقد رتب الخليل بن أحمد معجمه ترتيباً لم يسبق اليه ، وقام هذا الترتيب على عدة مبادىء هي :

أولاً : الترتيب المخرجي .
ثانياً : التقليب .
ثالثاً : الكمية .
رابعاً : الجذرية .

وقبل أن نتحدث عن المبادىء التي اعتمد الخليل عليها في معجمه نحب أن نذكر أن بعض رجال اللغة والأدب كان لهم مواقف من كتاب العين :

ــ منهم من أنكر نسبة العين الى الخليل ونسبه الى الليث بن نصر بن سيار ، ومال لهذا الرأي الأزهري صاحب تهذيب اللغة وابن فارس صاحب المجمل والمقاييس والقالي صاحب البارع والآمالي كذلك النووي .

ــ ومنهم من قال ان الخليل عمل من العين قطعة من أوله وأكمله الليث ويتزعم هذا الفريق السيرافي وابن نباتة .

ــ فريق ثالث يرى أن الخليل رتب أبوابه ثم مات قبل أن يحشوه ومن هؤلاء الناقد اللغوي ثعلب وصاحب مختصر العين الزبيدي الأندلسي .

ـــ فريق رابع قال ان الخليل أشار بعمل العين ولم ينفذه ومن أصحاب هذا الرأي ابن جني وأبو علي الفارسي .

ـــ أما الفريق الخامس وهو صاحب الرأي الأرجح فيرى أن الخليل ألف العين بنفسه ويؤيد ذلك ابن خلدون في مقدمته والإمام السيوطي وصاحب الجمهرة ابن دريد والمستشرق بروكلمان .

ـــ أولاً : الترتيب المخرجي :

نظر الخليل في الكتب المؤلفة على عهده والسابقة له فوجدها لا تخرج عن ترتيبين :

أ ـــ الترتيب المعنوي ، وهو وضع الكلمات المتشابهة معنوياً في باب واحد ، بدون ترتيب داخل الباب نفسه ، ولقد اتبع هذا النظام بعض كتب غريب القرآن وغريب الحديث ، وبعض كتب النوادر . ووجد الخليل ان هذا الترتيب لا يحصر كل مفردات اللغة ، كما أنه ينطوي على صعوبة عند النظر في معنى كلمة ويستلزم معرفة معنى الكلمة التي يراد بحثها .

ب ـــ الترتيب الثاني وهو الترتيب الأبجدي (أ ب ت ث ج ... الخ) وحاول الخليل أن يسير على هذا الترتيب في كتابه ولكنه كما يقول : وجد أنه سيبدأ بالهمزة التي تتغير كثيراً الى ألف وهو حرف علة ، ووجد الحرف الثاني الباء فكره أن يبتدىء بالثاني بدون حجة .

ولنأخذ من مقدمة معجمه ترتيبه . يقول الليث عن الخليل : « فأعمل فكره فيه فلم يمكنه أن يبتدىء التأليف من أول أ ب ت ث وهو الالف ، والالف حرف معتل ، فلما فاته الحرف الاول كره أن يبتدىء بالثاني ـــ وهو الباء ـــ الا بعد حجة واستقصاء النظر ، فدبر ونظر الى الحروف كلها وذاقها فصير أولاها بالابتداء أدخل حرف منها في الحلق » .

ويقول في موضع آخر : «قال الليث قال الخليل : العربية تسعة وعشرون حرفاً منها خمسة وعشرون صحاح لها أحياز ومدارج وأربعة أحرف جوف مثال الواو ومثله الياء والألف اللينة ، والهمزة سميت جوفا لأنها تخرج من الجوف لا تقع في مدرجة من مدارج الحلق ولا مدارج اللسان ولا مدارج اللهاة ، انما هي هاوية في الهواء فلم يكن لها حيز تنسب اليه الا الجوف ، وكان يقول كثيراً الألف اللينة والواو والياء هوائية أي أنها في الهواء» .

«قال الخليل : فأقصى الحروف كلها العين ثم الحاء ولولا بحة في الحاء لاشبهت العين لقرب مخرجها من مخرج العين ثم الهاء ولولا هتة في الهاء .. وقال مرة ههة لاشبهت الحاء ، لقرب مخرج الهاء من مخرج الحاء ، فهذه ثلاثة أحرف في حيز واحد بعضها أرفع من بعض .. » .

ثم يسير الخليل مع الترتيب فيضع كل حرف في مخرجه حتى يصل الى الشفتين .

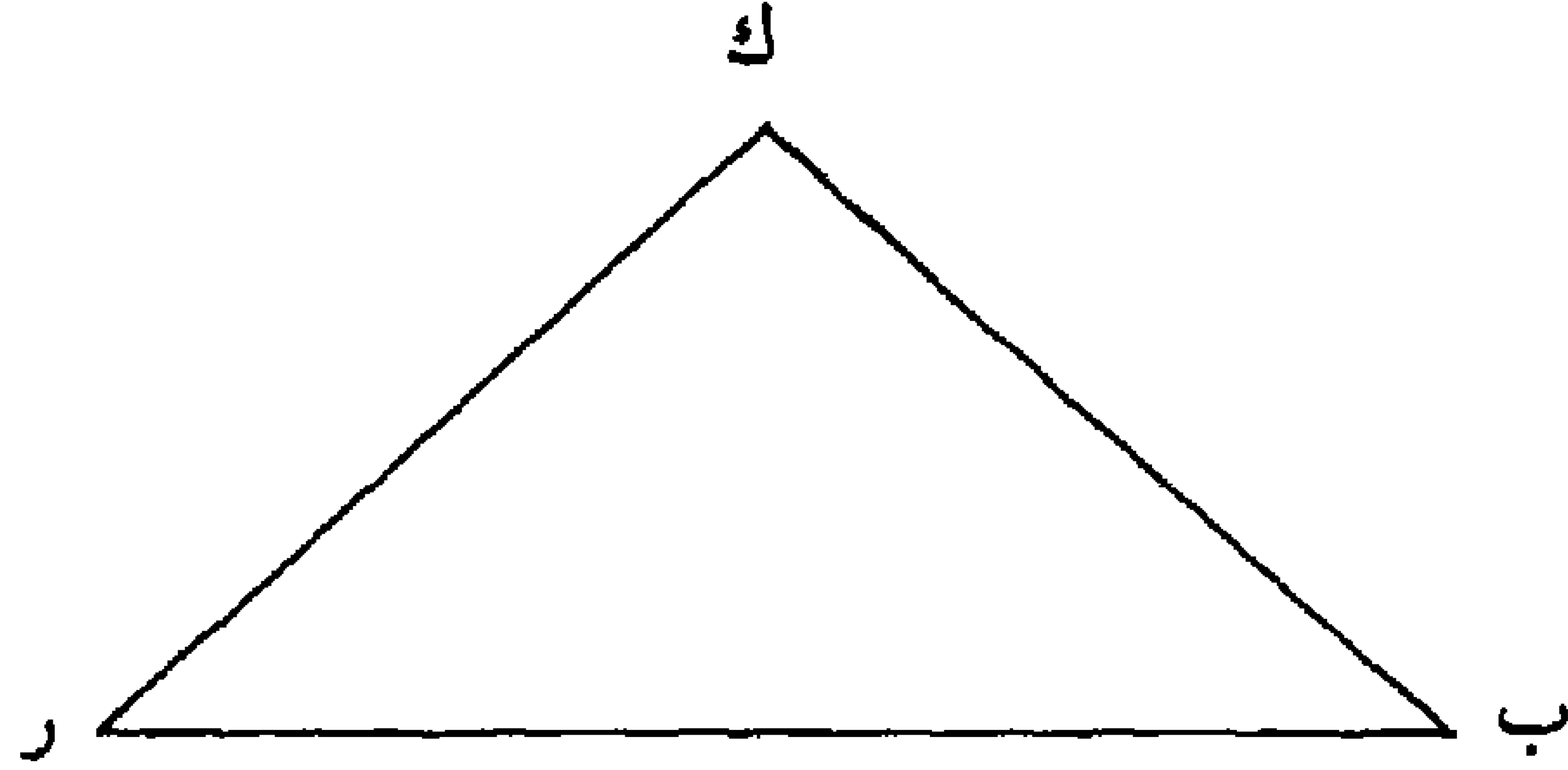
وجاء ترتيب الابواب في كتابه على النحو التالي :

ع ح هـ ــ خ غ ــ ق ك ــ ج ش ض ــ ص س ز ــ ط د ت ــ ط ذ ث ــ ر ل ن ــ ف ب م ــ و ا ي ــ الهمزة .

ــ ثانياً : التقليب :

سار الخليل على نظام التقليب أيضاً ليضمن أنه سيأتي بكل مفردات اللغة بحيث لا يفوته شيء منها .

فلو كان معنا كلمة مكونة من حرفين تأتي منها صورتان ، فكلمة مثل «قد» تأتي منها صورتان «قد ، دق» ، والكلمة الثلاثية تأتي منها ست صور ، وقد مثل لذلك ابن دريد في كتابه الجمهرة بمثلث عند كل زاوية فيه حرف هكذا :



فلو بدأنا من الزاوية التي بها الكاف ثم الباء ثم الراء خرجنا بكلمة «كبر»، ولو سرنا في الاتجاه الثاني، خرجنا بكلمة «كرب»، فهاتان صورتان.. ولو بدأنا بالباء وسرنا في الاتجاه الاول خرجنا بكلمة «بكر» وفي الاتجاه الثاني «برك»، وبنفس الطريقة لو بدأنا بالراء، أي تقليب الكلمة الثلاثية يخرج لنا ست صور كما رأينا. وليس من الضروري أن تكون كل هذه الصور مستعملة.

أما اذا كانت الكلمة رباعية فان تقليباتها تخرج لنا أربعا وعشرين صورة ويمكن أن نمثل لذلك بمستطيل مقسم الى أربعة أقسام في كل قسم حرف من الكلمة الرباعية، فكلمة «طمأن» مثلا يمكن أن نبدأ فيها بالطاء ونغير الحرف الثاني ثم الثالث ثم الرابع وهكذا.

(١)	(٢)	(٣)	(٤)	الصور
ط	م	أ	ن	١ ــ طمأن
		ن	أ	٢ ــ طمنأ
	أ	م	ن	٣ ــ طأمن
		ن	م	٤ ــ طأنم
	ن	م	أ	٥ ــ طنمأ
		م	م	٦ ــ طنأم

وبهذا لو بدأنا بالطاء لخرجنا بست صور، وبالمثل لو بدأنا بالميم، أو بالهمزة أو بالنون. أي أن تقليبات الرباعي تخرج لنا أربعاً وعشرين صورة. ولو غيرت الأربع والعشرين صورة من الحرف الخامس خرجت بمائة وعشرين صورة. وأغلب هذه الصور غير مستعملة في اللغة ولكن الخليل أراد أن يحصر مفردات اللغة بطريقة رياضية حتى لا يفوته شيء.

ــ ثالثاً: الكمية:

ولكن كيف رتب الخليل مفردات اللغة داخل كل باب من أبواب معجمه العين، فلو فرض أن معنا عدة مفردات في كل منها الحاء أمثال: «حل ــ حلم

ـــ حلب ـــ بلح ـــ بحث ـــ سح .. الخ .. كيف يرتب الخليل أمثال هذه الكلمات داخل باب الحاء أو الكتاب كما يسميه ؟! ، لنترك الخليل يحدثنا ، يقول : « قال الليث ، قال الخليل ، كلام العرب مبني على أربعة أصناف : على الثنائي والثلاثي والرباعي والخماسي ، فالثنائي على حرفين نحو : قد ، لم ، هل ، بل ... الخ . من الادوات ، والثلاثي من الافعال نحو قولك : ضرب ، خرج ، دخل مبني على ثلاثة أحرف ، ومن الاسماء نحو : عمر ، هبل ، جمل ، شجر مبني على ثلاثة أحرف .

والرباعي من الافعال نحو : دحرج ، هملج ، قرطس . مبني على أربعة أحرف . ومن الاسماء : عبقر ، عقرب ، جندب .. الخ . والخماسي من الأفعال : اقشعر ، اسبكر ، وشبهه ، مبني على أحرف خمسة . ومن الاسماء : سفرجل ، همرجل ، شمردل ، كنهيل ، قرعيل ، عقنقل ، قبعثر ، وشبهه .

ويقول : « وبدأنا من الابنية بالمضاعف ، لأنه أخف على اللسان وأقرب مأخذا للمتفهم » .

وبهذا يمكننا أن نلخص منهج الخليل داخل الباب الواحد ، بأنه يأتي أولا بالثنائي ويدخل فيه الثنائي المكون من حرفين فقط : « كم » ، « هل » ، كما يدخل فيه ما يسميه الصرفيون الثلاثي المضعف مثل : « هلّ ، شدّ ، وأيضاً الرباعي المضعف مثل : « قدقد ، زلزل » . فيعالج الخليل كل هذه الأنواع داخل الثنائي . فاذا انتهى من الثنائي داخل الباب الذي يعالجه ، أخذ في ذكر الثلاثي الصحيح ، ثم الثلاثي المعتل وهو ما فيه حرف علة واحد ، ثم اللفيف وهو ما فيه حرفا علة في أي موضع أي يشمل اللفيف المقرون والمفروق ، ثم يذكر الرباعي ثم الخماسي ، ثم يصنف بابا للمعتل وقد ذكر فيه أصحاب المعاجم التي اتبعت طريقة الخليل بحجة أنها قد تسهل الى أحد الحروف المعتلة .

ولكن كيف يرتب صاحب كتاب العين المفردات داخل الثنائي أو الثلاثي ؟

اولاً ــ لو تتبعنا باب العين الثنائي لوجدناه يذكر المفردات التي تكون بدايتها العين ، ثم يثني بالمفردات التي يكون حرفها الثاني العين ، ثم لا يذكر المهمل . كما أنه يذكر الرباعي المضعف مثل : « معمع » أحياناً قبل الثنائي « مع » ، وإذا وجد ثلاثي مضعف مثل : « رعّ » فانه يذكره قبل الرباعي المضعف من المادة وهو : « رعرع » وذلك لأن الخليل يعتبر ذلك كله ثنائياً (قد ــ قدقد) .

ثانياً ــ وربما يرتبها حسب صحتها أو شهرتها في الاستعمال .

وقد التزم شيخنا الخليل في الثنائي الحرف الاول ثم الثاني ، فيأتي مثلاً : بـ« عم » ثم يثني بـ« مع » ، ولكنه لم يلتزم هذا الترتيب في الثلاثي ، فيأتي مثلاً بمادة : « ق ع د » مثل : « ع ق د » ، « د ع ق » وقد الزمه من الحرف الثاني في نفس المادة فأتى بـ(قعد) قبل (قدع) ، وأتى بـ(دعق) قبل (دقع) .

أي انه يمكننا أن نقول : إن الخليل التزم ترتيب الحروف المخرجي في أبواب معجمه ، ولكنه لم يلتزمه في بعض الفصول كما نرى في استعراض باب العين الثلاثي ، وان كان التزمه في البعض الآخر ، كما نرى مثلاً في فصل العين والقاف والنون حيث أورد المواد هكذا : « ع ن ق » ، « ق ع ن » ، « ق ن ع » ، « ن ع ق » ، « ن ق ع » ، أما مادة « ع ق ن » فهي غير مستعملة لأنه لم يذكرها .

ــ رابعاً : الجذرية :

المبدأ الرابع هو الجذرية ، وتعني عند الخليل أن كل مفردات اللغة العربية ترجع الى ثلاثة حروف هي أصل المادة ، ما عدا بعض الأدوات : « هل ، كم ، بل » الخ . وقد تبع هذا المبدأ كل أصحاب المعاجم ، بل كل اللغويين العرب .

وما عدا هذه الحروف الثلاثة فهو زائد ولا يلتفت اليه في الترتيب، فكلمة «المعتز» مثلا يكشف عنها في مادة «عزز» لان الالف واللام والميم زائدات، وكلمة «المنقادون» يكشف عنها في مادة «ق و د»، لان الألف واللام والميم والنون الاخيرة كلها زوائد، كما أن الالف في «قاد» أصلها منقلبة عن واو، لأن المضارع يقود.

وباختصار، لو أردنا أن نكشف عن أية مادة في معجم العين، نتبع الآتي:

١ ــ نجرد الكلمة أولا من حروف الزيادة والتي يجمعها علماؤنا العرب في (سألتمونيها) أو (أمان وتسهيل) وتأتي بأصل الكلمة.

٢ ــ ننظر في الحروف الاصلية، ونتبين أيها اسبق في الترتيب الخليلي الذي سار عليه، فمهما وجدنا الحرف في أول الكلمة أو وسطها أو في آخرها، فاننا سنجد الكلمة تحت باب هذا الحرف. وكمثال فان كلمة «المقمعة» لو جردناها من الحروف الزائدة صارت «قمع»، واذن فهي تعالج تحت باب العين حيث هي أسبق من القاف والميم في ترتيب الخليل، وكلمة «مضراب» التي تتكون من مادة (ضرب) تعالج تحت باب الضاد، لأنها أسبق في الترتيب الخليلي من الراء والباء.

٣ ــ اذا حددنا الباب الذي تعالج فيه الكلمة وجب علينا بعد ذلك أن نحدد كميتها، أي عدد حروفها، هل هي ثنائية (كما سبق ان قلنا فان الثنائي يدخل فيه الثلاثي المضعف والرباعي المضعف) أم ثلاثية أم رباعية أم خماسية؟ وسنجدها تحت فصلها، مع ملاحظة خلوها من حروف العلة، والا عولجت تحت باب المعتل، أو تحت باب اللفيف اذا كان بها حرفا علة، مثل كلمة «المولى» فأننا سنجدها تحت باب «اللام» الثلاثي اللفيف (باب اللام والواو والياء).

عودة إلى الخليل

رجل وقضية

هذا الرجل عقله أكثر من علمه !

سيد أهل الأدب في علمه وزهده ، الغاية في تصحيح القياس واستخراج مسائل النحو وتعليله ، من أشهر تلاميذ أبي عمرو بن العلاء ، أستاذ سيبويه . وكل ما يذكره سيبويه في كتابه منسوب إلى الخليل . وكل مسألة يقول فيها سيبويه « سألته » أو « قال » من غير أن يذكر القائل فهو الخليل .

أول من ضبط اللغة ، وأول من استخرج علم العروض (علم موازين الشعر) رجل زهد الحياة والمناصب وعشق العلم والمعرفة ، كان فقيراً زاهداً ، لا يبالي بالدنيا .

اجتمع الخليل وعبدالله بن المقفع ليلة يتحدثان إلى الغداة ، فلما تفرقا قيل للخليل : كيف رأيت ابن المقفع ؟ فقال : رأيت رجلاً علمه أكثر من عقله ، وقيل لابن المقفع : كيف رأيت الخليل ؟ قال : رأيت رجلاً عقله أكثر من علمه . !!

الدفاع قبل الحكم

لقد خالف الخليل ترتيب نصر بن عاصم الليثي المتوفى ٨٩ هـ وابتدع صاحب العين ، ترتيباً خاصاً به قيل انه راعى فيه مخارج الحروف ، فبدأ بحروف الحلق ، ثم ما بعدها من حروف الحنك ، ثم الأضراس ، ثم الشفة ، وجعل حروف العلة آخراً ، وهي الحروف الهوائية ، ويدعي أصحاب دائرة المعارف الإسلامية ، أن عبقري العرب : الخليل بن أحمد اتبع في ترتيبه لحروف الهجاء ، ما كان يتبعه علماء النحو في اللغة السنسكريتية ، فقد كانوا يبدأون بحروف الحلق وينتهون بحروف الشفة وهذا كلام عجيب ، ليس له سند صحيح .

ونحب أن نشير هنا أن حرف العين في الحقيقة ، ليس أقصى الحروف مخرجاً ، وإنما أقصاها الهمزة ثم الهاء ، كما يتضح من الرسم الذي يبين لنا مخارج الحروف العربية ، وقد ألحقناه بهذا البحث المتواضع ، فكيف بدأ الخليل بحرف العين إذن ، إذا كان قد تبع في ترتيبه لحروف الهجاء مخارج هذه الحروف ؟ ولماذا لم يأخذ الخليل بن أحمد ترتيب نصر بن عاصم ؟

فزع الحجاج بن يوسف الثقفي عندما استشرى التصحيف بالعراق وتوجه إلى كتابه ، وسألهم أن يضعوا لهذه الحروف المشتبهة علامات ويقال إن الذي قام بذلك نصر بن عاصم فوضع النقط أفراداً وأزواجاً ، وخالف بين أماكنها ، فعبر الناس بذلك زماناً لا يكتبون الا منقوطاً ، فكان مع استعمال النقط يقع التصحيف ، فاحدثوا الاعجام ، فكانوا يتبعون الاعجام .

*

قام بعض العلماء بالدفاع عن الخليل بن أحمد وتولوا الإجابة عنه ، وأسندوا إليه أنه قال :

ــ لم أبدأ بالهمزة لأنه يلحقها النقص والتغيير والحذف .

لم ابدأ بالهاء لأنها مهموسة خفية لا صوت لها .

نزلت إلى الحيز الثاني وفيه العين والحاء ، فوجدت العين أنصع الحرفين .

*

والحقيقة ان جميع ما أسند إلى الخليل ، فيما يتعلق بكتاب العين ، ينقصه السند الصحيح المتصل ، حتى ان بعض الأقوال التي تناقلها الأقدمون في كتبهم لا يصح أن تنسب إلى عالم جليل مثل الخليل علو مكانة ووقدة ذكاء ، على أنه قد يكون صحيحاً أنه راعى في ترتيبه لحروف الهجاء مخارجها ، لأنه كان مولعاً بتمييز الأصوات وهو الذي وضع علم العروض ، وقد يكون صحيحاً أنه بدأ بالعين لنصاعته ، ولكن لماذا عدل عن الأخذ بالترتيب الذي كان معروفاً يومئذ ؟

ولم يعرض أحد من العلماء للإجابة على هذا التساؤل، لذلك فنحن نعتقد أن اختراع الخليل ترتيبه الجديد، لم يكن إلا ليبتعد عن الأخذ بترتيب كان معاصروه يعرفون مبتدعه نصراً، وكأن عبقرية الخليل أبت عليه، وهو العبقري الفذ، أن يكون تبعا لمثل نصر بن عاصم في أمر يستطيع الإتيان بمثله أو بأفضل منه، فأعمل فكره ثم أوجد ترتيباً لحروف الهجاء لم يسبقه أحد إليه، وكانت «العين» أول الحروف فيه.

وكما فعل الخليل بن أحمد الفراهيدي، فعل سيبويه، ونهج من بعدهما نهجهما أبو علي القالي صاحب البارع وذكرنا ترتيبه وغيره من علماء الأندلس، مما أدى الى أن ينتشر في بلاد المغرب العربي، وحتى اليوم، ترتيب لحروف الهجاء يختلف عن ترتيبها في المشرق: [أ ـ ب ـ ت ـ ث ـ ج ـ ح ـ خ ـ د ـ ذ ـ ر ـ ز ـ ط ـ ظ ـ ك ـ ل ـ م ـ ن ـ ص ـ ض ـ ع ـ غ ـ ف ـ ق ـ س ـ ش ـ هـ ـ و ـ ي].

عودة

أضع أمامي جزءاً من كتاب العين لعبقري لغتنا الشاعرة الخليل بن أحمد ذلك الجزء الذي نشرة محققاً الأب أنستاس الكرملي في مجلة: لغة العرب، عدد أغسطس والصادرة في بغداد ١٩١٤ [في نحو مائة وبضع صفحات]. وأضع كتاب العين الجزء الأول منه والذي قام أستاذنا الدكتور عبدالله درويش بتحقيقه ونشره، وكان لسيادته فضل السبق في العثور على مخطوطتين كاملتين لكتاب «العين»: إحداهما في العراق، والأخرى في ألمانيا.

وما كتبه د. إبراهيم محمد نجا عن (التقليبات) في كتابه الهام: المعاجم اللغوية (ط ٣، القاهرة ١٩٧٤).

وما كتبه الدكتور / أحمد مختار عمر في دراسته عن (البحث اللغوي عند العرب) [القاهرة، ١٩٧٦].

وكتاب أبي عمرو الشيباني: كتاب الجيم، الذي حققه الأستاذ/إبراهيم الأبياري وآخرون (٣ أجزاء) القاهرة ١٩٧٤ ــ ١٩٧٥.

ويسطر القلم: أن هذا المعجم الذي تحدثنا عنه من معاجم الألفاظ في اللغة العربية، بل من أهمها وأشهرها وأولها.

وهذا النوع من المعاجم معاجم الألفاظ نستطيع أن نقسمه إلى ثلاثة أنواع تبعاً لترتيب المادة اللغوية في المعاجم:

(١)	(٢)	...	(٣)
حسب مخارج الحروف	حسب القافية	أو حسب الحرف الأصلي الأخير في الكلمة	حسب الحرف الأصلي الأول

وبالطبع يأتي ذلك بعد أن تجرد الكلمة من جميع أحرف الزيادة في كل مرة تكشف فيها عن الكلمة المرادة.

ومن المعاجم اللفظية حسب المخارج:

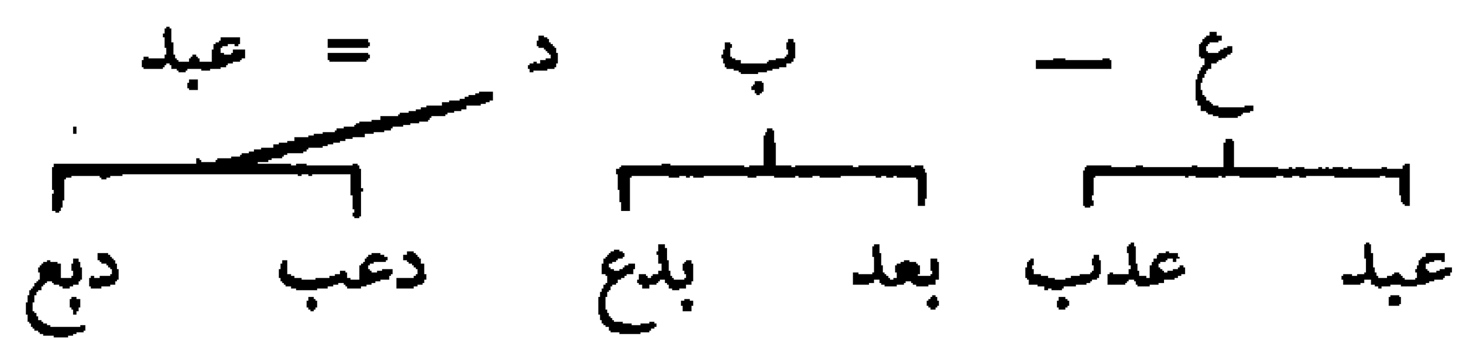
١ ــ العين للخليل بن أحمد وسبق الحديث عنه.
٢ ــ تهذيب اللغة لأبي منصور محمد بن أحمد (الأزهري) ت/٣٧٠ هـ.
٣ ــ البارع لأبي علي القالي ت/٣٥٦ هـ.
٤ ــ مختصر العين للزبيدي ت/٣٧٩ هـ.
٥ ــ المحكم والمحيط الأعظم في اللغة لابن سيده (علي بن إسماعيل) ت/٤٥٨ هـ.

ــ ومن المعاجم اللفظية حسب الحرف الأصلي الأخير في الكلمة أو حسب القافية:

١ ــ الصحاح للجوهري ت/٣٩٨ هـ (أو في حدود ٤٠٠ هـ).
٢ ــ لسان العرب لإبن منظور ت/٧١١ هـ.
٣ ــ القاموس المحيط للفيروزابادي ت/٨١٦ أو ٨١٧ هـ من المعاجم اللفظية الألفباء العربية بترتيبها المألوف تحت الحرف الأول في الكلمة بعد تجريدها الزوائد:

١ ــ كتاب الجيم لأبي عمرو الشيباني ت/٢٠٦ هـ.
٢ ــ ديوان الأدب للفارابي ت/٣٥٠ هـ.
٣ ــ معجم مقاييس اللغة لابن فارس ت/٣٩٥ هـ.
٤ ــ المجمل لابن فارس ت/٣٩٥ هـ.
٥ ــ أساس البلاغة للزمخشري ت/٥٣٨ هـ.

لقد كان هدف الخليل من (العين) حصر وضبط جميع مفردات اللغة في اب خاص، وقد وجد طريقه إلى هذا في محاولة تبديل الحروف، وتقليب كنها في الكلمة الواحدة، كأن يسجل الإمكانات النظرية التي تعطيها مادة ، ع ب د، عن طريق البدء بكل حرف منها مع الحرفين الآخرين، فيتحصل كل مرة صورتان، وحيث أن هذه الكلمة ثلاثية، ولكل حرف منها صورتان الحرفين الآخرين فإن الحاصل يكون ست صور على النسق التالي والذي سبق ضحناه.



المشكلة التي صادفت الخليل هنا هي أن هذه الحصيلة بعضها مستعمل، ضها مهمل، ولكي يسقط المهمل من حسابه اعتمد على خبرته الصوتية غوية بقوانين اللغة العربية، والحدود التي تسمح بها هذه القوانين.

ولكي يرتب الخليل ما جمعه من مادة ، اتبع ترتيباً مخرجياً أساسه وضع الحروف حسب مخارجها ، بادئاً بالحلق وحتى الفم .

وكان عليه والحالة هذه أن يبدأ بالألف ، ولكنه وجد أنه يعتريها بعض التغير كالحذف والقلب وما شاكلهما ، ولهذا فقد اعتمد حرف العين بداية لقاموسه حيث وجدها أنصع الحروف من وجهة نظره .

وجاء ترتيبه على النحو التالي :

ع ــ ح ــ هـ ــ خ ــ غ ــ ق ــ ك ــ ج ــ ش ــ ض ــ ص ــ س ــ ز ــ ط ــ ت ــ د ــ ظ ــ ذ ــ ث ــ ر ــ ل ــ ن ــ ف ــ ب ــ م ــ ء/ي ــ و ــ ا

وقد سجل الباحثون ترتيباً يختلف بعض الشيء داخل بعض المجموعات :

الباحث	الترتيب
نصر بن عاصم	أ ــ ب ــ ت ــ ث ــ ج ــ ح ــ خ ــ د ــ ذ ــ ر ــ ز ــ س ــ ش ــ ص ــ ض ــ ط ــ ظ ــ ع ــ غ ــ ف ــ ق ــ ك ــ ل ــ م ــ ن ــ هـ ــ و ــ ي
سيبويه	ء/ا ــ هـ ــ ع ــ ح ــ غ ــ خ ــ ق ــ ك ــ ج ــ ش ــ ي ــ ض ــ ل ــ ن ــ ر ــ ط ــ د ــ ت ــ ز ــ س ــ ص ــ ظ ــ ذ ــ ث ــ ف ــ ب ــ م ــ و .
عند القالي صاحب (البارع)	هـ ــ ح ــ ع ــ خ ــ غ ــ ق ــ ك ــ ض ــ ج ــ ش ــ ل ــ ر ــ ن ــ ط ــ د ــ ت ــ ص ــ ز ــ س ــ ظ ــ ذ ــ ث ــ ف ــ ب ــ م ــ و ــ ي/ء .

وللكشف عن الكلمة التي معنا وهي عبد، نضطر إلى ترتيب حروفها على أساس المخارج من الحلق وحتى الفم، والقيام بهذا العمل في حاجة إلى معرفة صوتية بمخارج الحروف. العين حرف حلقي، والباء شفوي، والدال حرف اسناني. ومن هنا فإن الترتيب يجب أن يكون ع د ب تمشيا مع خطة العين وترتيبه، الكلمة إذاً موجودة في مادة ع د ب ولا ننسى هنا أننا سنجد معها أيضاً كلمات أخرى نتيجة التقليبات التي يقوم بها الخليل ويعتبرها من المقبول لغوياً.

كان الخليل ينتقل من حرف هجائي إلى الحرف الذي يليه فالذي يليه حتى يكمل الأبجدية. فاذا بدأ بالعين استقصى وجودها بمعنى أنه أورد كل الكلمات المشتملة على حرف العين وذلك قبل الحرف الحلقي اللاحق وهكذا.

وطريقة الخليل تستوجب حشد الطاقات الصوتية والصرفية قبل التجرؤ على استفتائه والكشف في معجمه «العين». ورغم ذلك فمن الملاحظ أن طريقة الخليل هذه قد راقت العديدين من مؤلفي القواميس في المشرق والمغرب على السواء. ومن هنا نجد بعض المؤلفين الذين عاشوا في القرن الرابع الهجري وبعضهم عاش في القرن الخامس الهجري ينحون منحى الخليل في تأليف معاجم على نسقه، ويبدو أن الإعجاب بهذا العمل كان كبيراً لدرجة أن معظمهم نقل الكثير من العين، وهذا لا ينفي أنه كانت لهم أيضاً شخصياتهم المستقلة.

ومن هؤلاء نذكر:

- ابن دريد في الجمهرة ت/ ٣٢١ هـ.
- القالي في البارع ت/ ٣٥٦ هـ.
- الأزهري في تهذيب اللغة ت/ ٣٧٠ هـ.
- الصاحب بن عباد في المحيط ت/ ٣٨٥ هـ.
- الزبيدي في مختصر العين ت/ ٣٧٩ هـ.
- ابن سيدة في المحكم ت / ٤٥٨ هـ.

ـ يجب أن نقرر أن تأثير « العين » للخليل بن أحمد الفراهيدي لم يكن مقتصراً على علماء المشرق وحدهم ، بل تعدى ذلك إلى المغرب العربي أيضاً ، ودليل هذا المعجم الذي تعرض له وهو معجم « البارع » للأديب العالم أبي علي القالي) صاحب كتاب (الأمالي) الـذي يدل على ذوقه الأدبي ، وحسه المرهف فيما أملى واختار ذلك المعجم الذي سار مؤلفه فيه على طريقة الخليل بن أحمد ، وإن كان ذلك لم يمنع من ملاحظة بعض الفروق .

والتوافق المبدئي بين « العين » و « البارع » أن كليهما يتبع تقريباً الخطة نفسها في عرض المفردات ومراعاة التقليبات إلى جانب اعتبار الأسس الصوتية والصرفية .

الأولى : واضحة في ترتيب الحروف على المخارج .

الثانية : في تقسيم الكلمات حسب كميتها الى ثنائية وثلاثية ورباعية وخماسية .

هذا عن التوافق ، أما عن الفروق فبرغم أنها يسيرة ، إلا أننا نجد ضرورياً أن ننبه إليها في الصفحات القادمة ونحن نتناول معجم القالي .

ـ وسنلاحظ في الفرق بين المعجمين أن مجموعة الحروف الحلقية وهي خمسة حروف عدا الهمزة ، يختلف وضعها في معجم القالي عن ترتيب الخليل ، بالرغم من مجيئها متتالية وتمثل مجموعة واحدة في المعجمين .

وإن كان من ملاحظة هنا ، فقد يكون السبب صعوبة تحديد مخرج كل حرف حلقي لأن الحيز الذي تخرج منه هذه الحروف محدود نسبياً ، وقد كان من الصعب التمييز الدقيق لموضع كل حرف على هذا الحيز المحدود ، خاصة وان هؤلاء العلماء قد اعتمدوا على وسائلهم المتواضعة لتوضيح مثل هذه الفروق .

صحيح أن أجدادنا العظماء من علماء اللغة نجحوا تماماً في تحديد المخارج ،

وإسقاط الحروف في كل مخرج ولكن أيهما قالٍ: الحاء أم العين ؟ الغين أم الخاء فهذا ما نجد فيه بعض التضارب نحن دارسي معاجمنا العربية في تطورها ومراحلها المختلفة .

وهنا ندعو بالحاح الى ضرورة دراسة الأصوات اللغوية من معطيات التكنولوجيا الحديثة التي هي السبيل الإيجابي الذي يمكن الباحث من الحصول على نتائج سليمة ، دقيقة في هذا الموضوع .

لا نقول ذلك بهدف النيل من القدماء ، ولكنا نود أن تجيء الدراسات المبرزة لجهدهم في إطار الحقيقة العلمية والتاريخية على حد سواء .

لا يعيب الأجداد بعض القصور في تحديد مواضع الحروف على المخرج الواحد ، لأن نبوغهم مشهود به في مجالات أوسع وأرحب .

ابن دريد

هذا الرجل ظلمه الأعداء !

ابن دريد و «معجم الجمهرة»

هذا ثاني معجم وصل إلينا بعد كتاب العين للخليل بن أحمد الفراهيدي وصاحبه محمد بن الحسن بن دريد بن عتاهية. ولد بالبصرة العراقية. وكان أبوه من الأعيان في البصرة، واستطاع أن يؤدب ولده بثقافة عصره، وابن دريد يشبه الخليل في أن الرجلين من أصل عربي — جنوبي.

وقد روي عن ابن دريد أنه كان واسع الحفظ، قوي الذاكرة، كانت تقرأ عليه دواوين العرب الشعرية فيعيها حفظاً من أول مرة. كما قد أخبر هو عن نفسه بأن شيخه كلفه يوماً بحفظ معلقة الشاعر الجاهلي الحارث بن حلزة حتى يرجع من غذائه، فلما رجع الشيخ وجد التلميذ قد حفظ ديوان الحارث بأكمله. وقد أمكنه أن يستغل ذاكرته في ملء كتبه بالألفاظ الغريبة خصوصاً ما يعرف باسم النوادر وقد ظهر ذلك جلياً في مؤلفيه: «الاشتقاق»[1] و «الملاحن».

ويقال إن ميلاده كان بالبصرة سنة ثلاث وعشرين ومائتين ويقول أبو الطيب اللغوي صاحب كتاب: «مراتب النحويين» عندما ذكر ابن دريد:

هو الذي انتهت إليه لغة البصريين، وكان أحفظ الناس، وأوسعهم علما وأقدرهم على شعر، وكان يقال: ابن دريد أشعر العلماء، وأعلم الشعراء.

ويروى عنه أنه كان سكيراً، والذي رماه بذلك الأزهري في مقدمة كتابه: «تهذيب اللغة»، بل قال عنه: وممن ألف في زماننا الكتب فوسم بافتعال

---

(١) كتاب الاشتقاق، حققه استاذنا/عبد السلام هارون، وصدر بالقاهرة سنة ١٩٥٨ م.

العربية أبو بكر محمد بن دريد صاحب كتاب «الجمهرة»، وربما كان الأزهري يريد الانتقاص من كتاب ابن دريد «الجمهرة» كي يعظم من شأن معجمه بين الناس .

نعود لابن دريد فنعرف أنه تلقى العربية عن عبد الرحمن بن أخي الأصمعي وأبي حاتم السجستاني وأبي الفضل الرياشي، والحسين بن دريد عمه، والعتبي، وغيرهم .

وروى عن ابن دريد خلق كثير منهم أبو سعيد السيرافي وأبو عبيد الله المرزباني، وأبو الفرج علي بن الحسين الأصبهاني صاحب الأغاني، والقالي صاحب الأمالي . وابن خالويه والرماني والزجاجي والقاساني والسري السراج وابن ميكال وابن حيوية وغيرهم وهم يبلغون (٤٣ تلميذاً) في الوقت الذي يبلغ عدد شيوخه (١٨ شيخاً) .

ابن دريد الذي كان أحفظ الناس وأوسعهم علماً وأقدرهم على شعر. وما ازدحم العلم والشعر في صدر أحد ازدحامهما في صدر خلف الأحمر وابن دريد الأزدي . وتصدر ابن دريد في العلم ستين سنة وكان بحق أشعر العلماء وأعلم الشعراء ويقول الخطيب البغدادي : كان واسع الحفظ، لم ير من هو احفظ منه، كما كانت تقرأ عليه دواوين العرب كلها وأكثرها فيسابق إلى إتمامها وما قرىء ديوان عليه قط الا وسابق في روايته لحفظه له .

ويقول المسعودي : انه كان ببغداد ممن برع في زمنه في الشعر وانتهى إليه السبق في اللغة وقام مقام الخليل بن احمد فيها، وأورد أشياء في اللغة لم توجد في كتب المتقدمين وكان يذهب في الشعر كل مذهب فطوراً يجزل وطوراً يرق . ويقول الكمال ابن الأنباري : انه كان من أكبر علماء العربية، مقدماً في اللغة وأنساب العرب وأشعارهم .

الجمهرة

كتاب «جمهرة اللغة» لابن دريد الأزدي أول طبعة له صدرت عن حيدر آباد الدكن، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ١٣٤٥ ـــ ١٣٥١ هـ (١٩٢٦ ـــ ١٩٣٢م) في ٤ مجلدات وأشرف على تصحيحه السيد زين العابدين الموسوي المصحح في دائرة المعارف العثمانية.

ولكتاب الجمهرة أكثر من نسخة منها:

أ ـــ النسخة القديمة المحفوظة في مكتبة جمعية العلوم بليدن الهولندية وهي كاملة في ثلاثة مجلدات قد كتبت بغاية الصحة في القرن السابع الهجري إلا أن المجلد الأول منها ناقص نحو ستين ورقة ولكن هذا النقص أكمل حديثاً من نسخة لا يعلم اين هي؟ أما المجلدان الثاني والثالث فهما من رواية أبي سعيد الحسن بن عبدالله السيرافي المتوفى سنة (٤٦٨ هـ) وهي أكمل روايات هذا الكتاب الجليل، وقد أتقن أبو سعيد وصحح ما قرأه على أبي بكر بن دريد نفسه وزاد فيما أظن تفسير الشواهد ولكن قد ظهر في مواضع عديدة أن تفسيره هذا من أمالي شيخه المؤلف ولا يوجد في هذه النسخة الا القليل من التحريفات والأغلاط.

ب ـــ أما النسخة الثانية فإنها محفوظة في خزانة المتحف البريطاني في لندن إلا أنها ناقصة إذ لا يوجد منها إلا الجزءان الأول والثاني فقط وهذان الجزءان من عداد سبعة أجزاء للنسخة الكاملة وخطها على ثلاثة أشكال فنجد القسم الأول بالخط المغربي القديم وهو في غاية الحسن والصحة من رواية أبي إسماعيل القالي أحد تلامذة المؤلف والقسم الثاني لا يجاوز مائتي سنة بالخط العراقي وليس هو في الصحة كالأول والثالث أما القسم الثالث فهو بالخط القديم وأظنه كتب في القرن الرابع أو أوائل القرن الخامس وأن كانت الرواية أقصر من سائر النسخ ولكنها في غاية الصحة وفيها زيادات في بعض المواضع.

جـ ــ وفي المتحف البريطاني نسخة أخرى وهي مختصر الجمهرة إلا أنها قديمة الخط جداً كتب في أولها أنها كتبت في عهد المؤلف وهذا ما يوافق كيفية الخط لأنها بالخط البغدادي القديم في أكمل الضبط وأحسنه غير أن الكاتب أسقط من هذا المختصر كل شاهد من التنزيل والشعر وغير ذلك .

د ــ أما النسخة الرابعة فهي نبذة من آخر الكتاب محفوظة في المتحف البريطاني أيضاً الا أنها كتبت قريباً من عهد ابن دريد كما نظن وعلى حواشيها تصحيحات لأ بي عمر غلام ثعلب ويظهر أن هذه التصحيحات من املائه ويتضح أن أبا عمر هذا واحد من تلاميذ ابن دريد ويذكر أنه روى الجمهرة وألف كتاباً في تنبيهات على أغلاط المؤلف وما باليد حيلة فلا يوجد من هذه الرواية أكثر من هذه النبذة .

هـ ــ النسختان الخامسة والسادسة محفوظتان في خزانة المكتبة الوطنية (الملكية سابقاً) بباريس العاصمة الفرنسية ويوجد عند المقابلة انهما حديثتان نسبياً غير صحيحتي الضبط إلا أنه يوجد في بعض المواضع أن رواية احداهما توافق النسخة الليدنية الهولندية في الزيادات وإنما الناسخان لهاتين النسختن قصرا في عملهما من كسل أو من جهالة باسقاط كثير من متن الكتاب فلا فائدة فيهما إلاَّ في نقل الزيادات التي ظهرت .

وقد بقيت عدة نسخ من الجمهرة لم نحصل على رؤيتها أو معرفة مكانها ولكن لا أظن أنها تزيد على رواية النسخ السابق الإشارة لها .

وقد اطلعت على نسختين سقيمتين في دار الكتب المصرية ، وقد أفادنا العلامة المفضال المرحوم أحمد تيمور باشا بوصفهما بأنهما نبذة من أول الكتاب آخرها في حرف الدال من الثلاثي الصحيح ونسختان في جامع القرويين بمدينة فاس المغربية ولا نعرف ما يتضمنانه وقد أخبرت أنهما قديمتان فقط لا غير .

ويوجد نسخ أخرى للجمهرة في العراق في بغداد وبعض خزائن الكتب الخاصة في العراق أيضاً بالإضافة إلى أكثر من ثماني نسخ في العاصمة التركية .

الكتب المؤلفة على الجمهرة

مذ ألفت موسوعة الجمهرة لأ بن دريد عكف الأدباء وعلماء اللغة عليها من بين درس وحفظ واختصار وإيضاح ولما تزل قراءتها إلى القرن السادس أو بعده قليلاً ثم تركها الناس وعكفوا على كتب المتأخرين ـــ ولا بأس من القول هنا بأن أول من ألف في ذلك أبو عمر الزاهد غلام ثعلب وكان واسع الرواية غير أن له نوادر وغرائب أخطأ فيها واستدرك ما فات ابن دريد وسماه (فائت الجمهرة) وكان يقرأ عليه كتاب الجمهرة أيضاً فيما أظن وألف أبو العلاء المعري كتاباً في شرح شواهد الجمهرة وسماه (نشر شواهد الجمهرة) يذكر أنه ثلاثة أجزاء .

كما ألف الشاعر الأمير الصاحب بن عباد مختصراً وسماه (جوهرة الجمهرة) ولما فرغ منها قال هذا البيت :

لمـــا فـــرغـــنـــا مـــن نـــظـــام الجـــوهـــرة
أعـــورت الـــعين ومـــات الجـــمـــهـــرة

واختصرها شرف الدين محمد بن نصر بن عنين الشاعر وكان يحفظها عن ظهر قلب .

وجمعها ابن مكرم في (لسان العرب) .
وابن سيده في (محكمه ومخصصه) .

غير أن (لسان العرب) كموسوعة ضخمة يرى البعض أن فيه تخليطاً وتكراراً وقد فاته لغات وفوائد وشواهد ، كما يظهر للناظر عند الإعتبار ، وكذا إبن سيدة لم يأت

عليها في «مخصصه» وذكر أبواباً فاقتصر فيها على (كتاب إصلاح المنطق) لابن السكيت وهي في الجمهرة أبسط.

وعلى كل حال ليس الخبر كالعيان فلنقرأ الجمهرة ولنقارن بين الدر والسخب.

ولا يفوتنا في هذا المقام إلاَّ أن نحيي هذا الجهد المشكور الذي قام به المرحوم السيد زين العابدين الموسوي في تصحيح الجمهرة وعمل الفهرس لها فذكر فيه كل ما في الأصل من اللغات والأمثال والابيات ولم يذكر من الأسماء ما ذكره المؤلف ابن دريد في المواد اللغوية وكذا لم يذكر أسماء المواضع الواقعة في الابيات إلا ما شرحه المؤلف.

أما الأشعار فذكر قافيتها مرتبة وربما يذكر المؤلف مصراعاً ولم يقف المحقق على تمامه أو بعض مصراع فجعل آخره بمنزلة القافية وذلك أقل وقد رغب المحقق في ذكره جميع الأ بيات التي ينشدها إبن دريد فذكر أوائلها وقوافيها غير أن الأصل فيه الشعر الأخير وقافيته.

وهنا نشير الى أن الفهارس أكملها وحققها وضبطها السيد زين العابدين الموسوي أما الذي وضعها بالفعل فهو الشيخ محمد السورتي الذي كان أول من صحح جمهرة ابن دريد لصالح دائرة المعارف العثمانية.

هذا هو كتاب «جمهرة اللغة» للشيخ الجليل إمام اللغة والأدب أبي بكر محمد ابن الحسن بن دريد الأ زدي البصري رحمه الله تعالى المتوفى ببغداد سنة إحدى وعشرين وثلاث مائة من الهجرة.

منهج الجمهرة

١ ــ الترتيب الأ بجدي :

رتب أبواب الجمهرة ترتيباً أبجدياً عادياً ويعلل ذلك في مقدمة الجمهرة ص ٣ بأنه اذا كانت الحروف المرتبة على الألف باء بالقلوب ألزم وفي الاسماع أنفذ وكان علم العامة بها كعلم الخاصة ، وطالبها من هذه الجهة بعيد من الحيرة ، مشف ٍ على المراد لذلك يبدأ ابن دريد بحرف الهمزة أو بابها وينتهي بباب الماء ، وقدم ابن دريد الواو على الهاء في الترتيب وهذا يخالف الأ بجدية العربية ، كما نعرفها الآن ، حيث تقدم فيها الهاء على الواو .

٢ ــ الجذرية والتقليبية :

هنا يتبادر إلى الذهن سؤال : لماذا وضعنا ابن دريد الأ زدي في المدرسة الأ ولى مدرسة « التقليب » مدرسة الخليل بن أحمد ؟ والإجابة يصل إليها القارىء دون أدنى معاناة فقد اتبع الرجل نظام الخليل في تقليب مفردات الكلمة ، وهذه الخاصية هي التي جعلتنا نضع كتاب الجمهرة في المدرسة الأ ولى والتي أطلقنا عليها مدرسة التقليبات .

أما عن الجذرية فهذا مبدأ عام اتبعته كل المعاجم العربية حتى وقتنا الحاضر ، الا وهو تجريد الكلمة من حروفها الزائدة حروف (سألتمونيها) أو (أمان وتسهيل) وترتيبها تبعاً للحروف المعجمية .

٣ ــ الكمية :

وهي وضع الثنائي أولاً ثم الثلاثي ثم الرباعي ثم الخماسي ، ولكن يلاحظ القارىء أن هناك فروقاً كثيرة في ترتيب أبواب الجمهرة عنها في كتاب العين للخليل ، ففي كتاب العين نجد أنه بدأ بباب العين ، قسم هذا الباب كمياً ، أي

بدأ فيه بالثنائي ثم بالثلاثي ثم بالمعتل ثم باللفيف ثم بالرباعي ثم بالخماسي ، أي أنّ التقسيم الكمي يكون داخل الباب .

أما كتاب الجمهرة فتقسيمه يختلف حيث نجد ابن دريد يقسم المعجم كله تقسيماً كمياً ـ بخلاف العين الذي يقسم الباب تقسيماً كمياً وهكذا ، وفي الجمهرة نجده يذكر الثنائي الصحيح أولاً وهو ما يطلق عليه الصرفيون الثلاثي المضعف ويخصه بصيغ : فَعْل (فتح فاء الكلمة وتسكين العين) وفُعْل (بضم الفاء وتسكين العين) وفِعْل (بكسر الفاء وتسكين العين من الاسماء والمصادر. ويبدأ بالهمزة (أ ب ت ...) إلى باب الهاء . ثم يأتي بعد ذلك بالثنائي الملحق ببناء الرباعي المكرر مثل : «بتبت» ، يثبت إلى نهاية الأ بجدية عنده وهي حرف الهاء هَيْ هَيَ الأولى بالفتح والتسكين والثانية بالفتح للحرفين وهذا الباب ما يطلق عليه الصرفيون الرباعي المضعف ، وقد وضعه الخليل مع الثنائي ، ولكن ابن دريد فصله عن الثنائي في باب خاص . ويعود ابن دريد في الجمهرة ويذكر لنا باباً خاصاً سماه باب الهمزة وما يتصل به من الحروف في التكرار مثل : «بأبأ وتأتأ .. إلى باب هأهأ .

ثم يذكر بعد ذلك الثنائي المعتل وما تشعب منه ، مثل بأوى ، تأوى ، وأوى ، هأوى ثم يصل الى ابواب الثلاثي وما تشعب منه ، ويبدأ بالباء إلى الهاء ويورد بعده باب ما كان عين الفعل منه أحد حروف اللين ، ثم يأتي بأبواب ما لحق بالثلاثي الصحيح بحرف من حروف اللين ، وتلاحظ عليه أنه يدخل الهمزة في حروف اللين وذلك يجعلنا في كثير من مواده نقع في خلط ولا ندري أين الألف واين الهمز وأحياناً لا ندري أيضاً سر هذه الفوضى داخل ما لحق بالثلاثي فهو لا يلزم الترتيب الأ بجدي ثم يذكر باب اللفيف في الهمزة وهو يعتبر الهمزة حرفاً من حروف العلة رغم أنه اعتبرها حرف صحيح في الثنائي . !!

وبعد أن ينهي ابن دريد الملحق بالثلاثي وكان آخرها عنده باب المقصور،

والمهموز، وبعض الأبواب التي لم تأت على هذا الوزن، يأتي الرجل إلى أبواب الرباعي الصحيح. ويلاحظ أنه يهتم بالصيغ فيذكر ما جاء من الرباعي على (فعل) بفتح الفاء والعين وتشديد اللام و (فعل) بكسر الفاء والعين و (فعل) بضم الفاء والعين وتشديد اللام. وهو يأتي بصيغ أخرى كثيرة كلها رباعية مثل فوعل وفعل. ثم يأتي بأبواب متناثرة أمثال «باب ما جاء في الشدة والصلابة»، وبعض الصيغ الأخرى...

ونصل مع صاحب الجمهرة ابن دريد إلى الباب الخامس أو باب الخماسي الذي يعدد لنا فيه صيغ الخماسي ولفيفه، وبمعنى أوضح ما يلحق بالخماسي من صيغ صرفية.

ثم يختم الجمهرة بأبواب متناثرة كثيرة ضمها إلى معجمه بدون ترتيب يذكر وهي تذكر في معالجتها لمادتها اللغوية بتلك الرسائل اللغوية الصغيرة.

أهم خصائص معجم الجمهرة

يمكنني القول أن الميزة الرئيسة في معجم ابن دريد هو اتباعه الترتيب الابجدي المألوف (أ ب ت...) ونبذه الترتيب الصوتي المخرجي المعقد والذي يحتاج إلى دراية كافية بمخارج الأصوات لا تتوفر لجمهور الناس ولكن تتوافر للخاصة، كما أن هناك بعض ميزات نذكر منها:

١ ــ عناية صاحب الجمهرة بالمعرب والدخيل، وتنبيهه على أن هذه الكلمة حبشية أو رومية أو سريانية أو عبرية أو نبطية أو فارسية، وعقد لهذه الكلمات الدخيلة فصلاً خاصاً سماه «باب ما تكلمت به العرب من كلام العجم حتى صار كاللغة» وهذا الباب نراجعه في الجزء الثالث من الجمهرة ص ٤٩٩.

وفي هذا الباب استعراض جاد وشيق للكلمات الدخيلة التي يرجع أصلها إلى

اللغات المختلفة ، فمثلاً يذكر أن كلمة « تسبجا » في قول الرجاز العجاج بن رؤبة ما هي إلا فارسية ، يقول ابن دريد « والسبجة بقيرة وأصله شبي وهو القميص وانشد للعجاج بن رؤبة : (كالحبشي التف أو تسبجا) .

وهذه الميزة من ميزات المعاجم التاريخية ، وان كانت المعاجم الحديثة تنص على تاريخ دخول الكلمة الأجنبية إلى اللغة القومية .

ولكن يذكر لابن دريد هذا الاتجاه الذي لو تابعه اللاحقون لكان خطوة كبيرة إلى الأمام .

٢ ــ عنايته باللغات ويقصد ابن دريد باللغات لهجات القبائل ، فهو يذكر لهجات القبائل المختلفة : كالأزد وتميم وقيس وثقيف وطيّيء .. الخ .

٣ ــ الاهتمام بالاشتقاق ، حتى أنه يكاد يكون المعجم الوحيد في اللغة العربية الذي اهتم باشتقاق الصيغ ، وان كان يؤخذ عليه الاضطراب الشديد في معالجة هذه الصيغ فمثلاً يذكر في باب ما جاء من الرباعي أبوابا كان من الأولى أن توضع في الثلاثي ولنراجع ص ٣٤٩ الجزء الثاني من الجمهرة لنرى أكثر من أنموذج لهذا الاضطراب البين .

ولعل هذا النوع من عدم الدقة هو الذي جعل ابن جني العالم اللغوي الشهير يرميه بعدم الدقة في الاشتقاق اللغوي وانه وقع في أخطاء كبيرة بسبب عدم معرفته الكاملة بعلم الصرف الذي هو أساس الاشتقاق وبالتالي أساس التأليف المعجمي[١] .

وفي نهاية حديثنا عن ابن دريد يجب أن نؤكد مع أستاذنا الدكتور عبدالله درويش بأنه كثيراً ما نلحظ التشابه الكامل بين أسلوب ابن دريد في شرح الكلمات وبين أسلوب الخليل ، وكذلك الحال بالنسبة للشواهد الشعرية ،

(١) الخصائص لإبن جني ص ١٧٠ ج ١ .

فالأبيات هي هي مكررة في الكتابين. وهذه ظاهرة عامة في كل كتب اللغة حيث يعتمد بعضها على بعض ولكننا نلحظ أن ابن دريد كان يتمتع بأمانة كبيرة حين صرح بأنه اعتمد كثيراً على معجم العين وهذا ما يجعلنا نستبعد نفطويه في اتهامه ونفطويه صديق الأزهري صاحب التهذيب وذلك حين طعن على ابن دريد ورماه بالسرقة وانه سرق كتاب العين للخليل مغيراً ترتيبه تحت عنوان جديد، إذ أن هذا ينطبق أيضاً إلى حدٍ كبير على ابن منظور ولسان العرب وعلى الفيروزابادي وقاموسه وغيرهما من كبريات المعاجم.

وشيخنا الموسوعي الإمام السيوطي يذكر في المزهر صحيفتي ٥٨، و ٥٩ أن الأزهري قد سأل عن ابن دريد، سأل نفطويه، فلم يعبأ به ولم يوثقه في روايته وهنا رد السيوطي على هذا الموقف: «معاذ الله، هو بريء مما رمي به، ومن طالع الجمهرة رأى تحريه في روايته، ولا يقبل طعن نفطويه.»

ولعل طعن نفطويه النحوي وصديق الأزهري يرجع في الأساس إلى منافرة كانت بين الرجلين، قال ابن دريد يهجو اليه نفطويه:

أحرقه الله بنصف اسمه
وصير الباقي صراخاً عليه

وهجا نفطويه ابن دريد:

ويدّعي من حمقه وضع كتاب الجمهره
وهو كتاب العين إلا انه قد غيره[1]

غفر الله للرجلين، ونفعنا بعلمهما

---

(١) كتاب جمهرة اللغة (٤ أجزاء) نشر في بيروت بدون تاريخ عن الطبعة الأولى بحيدر آباد ١٣٤٤ هـ.

صاحب « البارع »

عصامي جاء من بغداد

هذا الرجل يحق لنا أن نصف معجمه بالتفرد ، وبمعنى آخر انه صاحب اتجاه وحيد ، لم يتبعه أحد .

عصامي جاء من بغداد

أبو علي إسماعيل بن القاسم القالي . ذلك الرجل الذي هاجر من بغداد العباسية إلى الأندلس العربية بحثاً عن حياة أحسن ، ورزق أوفر ، في بغداد عانى القالي شظف العيش والحاجة حتى أنه اضطر إلى بيع كتاب الجمهرة لابن دريد البصري بخط يد أستاذه ابن دريد بمبلغ أربعين ديناراً ، أكل بها وسدد ديونه في يومين ، وكان قد قدم اليه فيها قبل ذلك ثلثمائة مثقال فرفض . لكن عندما سافر إلى الأندلس اتصل بالخليفة عبد الرحمن وابنه الحكم ، وعرف هناك باسم البغدادي ، وأظهر الرجل قدراته العلمية والفكرية مع حسن أخلاقه وورعه ، وتقواه وصلاحه وإقامته للكثير من الصداقات مع أهل الأندلس ، كل ذلك أهله إلى أن يتولى شئون القضاء في قرطبة الأندلسية إلى أن قابل باريه عام ٣٥٦ هـ .

حتى يكون المغرب مشرقياً !!

حاول القالي الأديب ، اللغوي الموسوعي أن ينقل بكل ما أوتي من جهد علم الشرق إلى المغرب العربي ، وأن يؤلف هناك في الغرب كتباً وتصانيف تضارع ما ألف في الشرق ، فأملى أماليه المشهورة ، فاشتهرت في المشرق والمغرب وذاع صيتها ، كما ألف معجمه وسماه « البارع » من أجل أن يضارع المعاجم اللغوية التي ظهرت في المشرق العربي .

ويحكي رواة سيرة الرجل أن القالي بدأ العمل في معجمه عام ٣٥٠ هـ، واستمر في جمع مواده إلى أن توفاه الله عام ٣٥٦ هـ قبل أن يتمه ويهذبه، فتولى تهذيبه محمد بن الحسين الفهري، والذي كان يساعد القالي وهو من أهل قرطبة الأندلسية، ومحمد بن معمر الجياني. فاستزجياه من الرقاع والصكوك، وهذباه من أصوله التي بخط القالي. هذا، وقد تلقى القالي علوم النحو والعربية والأدب على يد ابن درستويه والزجاج والأخفش الصغير ونفطويه وابن دريد البصري وابن السراج وابن الأنباري وغيرهم.

خرج القالي في محاولته للبحث عن حياة أفضل، خرج من بغداد سنة ٣٢٨ هـ فدخل قرطبة ٣٣٠ هـ فأكرمه صاحبها وأحسن مثواه وأجزل له العطاء، وقرأ عليه الناس العديد من كتب اللغة والأخبار وصنف بها الأمالي والنوادر والمقصور والمنقوص، وشرح المعلقات، والإبل والخيل والبارع في اللغة الذي لم يتم وغير ذلك.

ومن أشهر رواته أبو بكر الزبيدي الأشبيلي، نزيل قرطبة، صاحب «مختصر العين» وكانت وفاة القالي بقرطبة ــ كما أسلفنا ــ وكما يؤكد السيوطي في بغية الوعاة (ص ١٩٨).

معجم هجره الناس

برغم اشتهار هذا المعجم اللغوي فإن الناس لم تمل إليه، وقد يكون هذا هو السبب في أنه لم يصل إلينا منه نسخة كاملة، فقد ضاع منه أجزاء كثيرة وخاصة مقدمته، لذا فإننا لم نستطع أن نستخلص فلسفته أو طريقته ونظرته الى ما سبقه من معاجم ومعجّمين.

وإذا تحدثنا عن ترتيب هذا المعجم نجد أن القالي صاحب البارع لم يسر على نهج أستاذه ابن دريد البصري في «الجمهرة»، فقد عاد إلى الترتيب المخرجي

كما فعل الخليل بن أحمد الفراهيدي في « العين » ، وكان أولى به أن يتابع التطور الجديد الذي أدخله ابن دريد . ورتب القالي أبواب معجمه ترتيباً يوافق ترتيب الخليل عامة ولكنه يخالفه في بعض الحروف ، وان نظرة إلى الترتيبين معاً ترينا مدى الاختلاف بينهما :

ترتيب الخليل : ع ح / هـ خ غ / ق ك / ج ش ض / ص س ز / ط د ت / ظ ذ ث / ر ل ن / ف ب م / و ا ي / همزة .

ترتيب القالي : هـ ح / ع خ غ / ق ك / ض ج ش / ل ر ن / ط د ت / ص ز س / ظ ذ ث / ف ب م / و ا ي / همزة .

ويلاحظ أن القالي كان أدق في وضعه (ل ر ن) قبل (ظ ذ ث) بخلاف الخليل الذي وضعها بعد (ظ ذ ث) ، مع أن (ظ ذ ث) أصوات من بين الأسنان فمخارجها متقدمة في الفم عن اللام والراء والنون .

كما أن القالي في معجمه البارع خالف الخليل في وضعه (ط د ت) قبل (ص ز س) ، ويخالفه أيضاً في ترتيب بعض الحروف في داخل المجموعات . ويتفق القالي مع الخليل في نظام التقليبات فهو يقلب المادة اللغوية على جميع الأوجه الممكنة .

أما في الكمية فقد تابع فيها الخليل إجمالاً ، وخالفه في جمعه المعتل واللفيف[1] في باب واحد سماه (أبواب الثلاثي المعتل) ، وجاءت أبوابه هكذا :

---

(١) اللفيف من أنواع الفعل المعتل وينقسم الى لفيف مفروق ، وهو ما اعتل أوله وآخره ، نحو ولى ، وعى ، وقى ، وفى ، وذلك لأن الحرف الصحيح فرق بين حرفي علته ، ولفيف مقرون ، وهو ما اعتلت عينه ولامه (وسطه وآخره) ، فاقترن فيه حرفا علته نحو: زوى وهوى ، وقوى ونوى ، وحيي ولم يرد فعل معتل الأول والوسط ، ولا معتل الأول والوسط والآخر.

ـــ أبواب الثنائي المضاعف ويسميه الثنائي في الخط والثلاثي في الحقيقة .
ـــ أبواب الثلاثي الصحيح .
ـــ أبواب الثلاثي المعتل .
ـــ أبواب الحواشي او الاوشاب .
ـــ أبواب الرباعي .
ـــ أبواب الخماسي ..

وذكر القالي في باب الاوشاب أسماء الأصوات ، ومحاكاة الطيور والحيوانات . وقسمه في بعض الحروف إلى الفصول الآتية :

ـــ الثنائي المخفف .
ـــ الثلاثي الصحيح .
ـــ المضاعف الفاء واللام .
ـــ الثلاثي المعتل .
ـــ اللفيف .
ـــ المضاعف الرباعي .

كما يلاحظ أن القالي أدمج ما يسميه علماء الصرف بالرباعي المضاعف مثل : زلزل في الثنائي المضاعف ، كما فعل الخليل تماماً ويلاحظ أيضاً أن القالي أسرف بحكم كونه أديباً موسوعياً ، غلب عليه هذا الطابع في أماليه ـــ في التفسيرات والتعريفات ـــ ولجأ الى الاطناب باستعمال المترادفات وإيراد النصوص والشواهد الشعرية الكثيرة .

وفيما عدا ذلك سار البارع على نهج معجم العين للخليل ، وليس بعسير تصور طريقة استعماله نظرياً برغم عدم وجود نسخة منه في أيدينا مطبوعة أو مصورة عن المخطوطة . اللهم إلا بعض اجزاء منه مخطوطة بدار الكتب المصرية .

وهنا نشير إلى محاضرة مطبوعة بعنوان: (المعاجم العربية ، مدارسها ومناهجها) ألقاها د . عبد الصبور شاهين على طلاب الفرقة الرابعة بكلية دار العلوم جامعة القاهرة في العام الجامعي ٧٣ / ١٩٧٤ وهي بكل أسف مليئة بالأخطاء المطبعية ولكن الذي يهمنا ما يتعلق بالفرق بين القالي والخليل في الترتيب الصوتي. والمعروف أن القالي خالف الخليل في الترتيب الداخلي للأصوات وترتيب المجموعات ويذكر د. شاهين ترتيب القالي فلا يذكر حرفي (ق ــ ك) وهما بعد (هـ ح/ع خ غ) عند القالي ، وبعد (ع ح/ هـ خ غ) عند الخليل ولا نعرف سر تجاهل د. شاهين لهذين الحرفين لعله خطأ مطبعي مثل عشرات الأخطاء في هذه المذكرة . وفي نهاية كلامنا نقول ان القالي في معجمه (البارع) سار على نظام الخليل بن أحمد وأهمل نظام ابن دريد البصري في معجمه (الجمهرة) وكان الأولى أن يسير عليه :

نواحي اتفاقه مع الخليل	نواحي الاختلاف مع الخليل
١ ــ في المخارج التي سار عليها الخليل ٢ ــ في الاشتقاق ٣ ــ في الكمية كنظام عام	١ ــ انه خالفه في مخارج بعض الألفاظ وخاصة أنه قدم (ل ر ن) على (ظ ذ ث) وهذا أدق وكذلك قدم (ظ د ت) على (ص س ز) ٢ ــ خالفه في جمع المعتل كله في باب واحد سماه باب الثلاثي المعتل .

الأزهري

« نرجسي » يهذب اللغة !

الأزهري وتهذيب اللغة

الأزهري :

محمد بن أحمد الأزهر بن طلحة بن نوح أو ابن الأزهر بن نوح بن حاتم بن سعيد بن عبد الرحمن الأزهري أبو منصور ـ عالم لغة وأديب شافعي المذهب هروي الموطن .

يقول أبو النصر عبد الرحمن بن عبد الجبار بن سعيد الفامي يقول في كتابه عن تاريخ هراة إنه مات سنة ٣٧٠ هـ ووافقه الحاكم أبو عبدالله الحسين بن محمد بن الحسين الكتبي الهروي في كتابه « الوفيات » وزاد أن وفاة الأزهري كانت في ربيع الآخر .

وفي تاريخ ابن الفرات للهروي المعنون بـ « تاريخ السنين » ان مولده في سنة ٢٠٢ هـ .

ومن أساتذة الأزهري : ابن أبي جعفر المنذري وثعلب والمزني والبغوي ومحمد ابن هاجك .

رحل رجلنا من هراة إلى بغداد وأدرك ابن دريد صاحب الجمهرة فلم يرو عنه رغم أنه زاره في داره ببغداد العراقية وهو يتهم ابن دريد بأنه يتعاطى الخمر بل يؤكد أنه لاقاه على كبر سن سكران لا يكاد يستمر لسانه على الكلام من سكره !! وفي بغداد قابل (نفطويه) صديقه الحميم وأخذ عنه كما أخذ عن ابن السراج .

ـ أهم مؤلفات الأزهري:

أ ـ التهذيب في اللغة وحسب علمي أو رؤيتي فقد اطلعت على أربعة عشر جزءاً أخرجها أستاذنا عبد السلام هارون.

ب ـ معرفة الصبح.
جـ ـ التقريب في التفسير.
د ـ تفسير ألفاظ المزني.
هـ ـ علل القراءات.
و ـ الروح وما جاء فيه من القرآن والسنة.
ز ـ تفسير شواهد غريب الحديث.
ح ـ تفسير إصلاح المنطق.
ط ـ تفسير السبع الطوال.
ي ـ تفسير شعر أبي تمام.
ك ـ كتاب الأدوات.
ل ـ مصطلحات الفقهاء.

ويذكر لنا أنه وقع في أسر القرامطة وكان هذا الأسر مفيداً له فلا يكاد يلمح في منطقهم لحن أو خطأ فاحش، فبقي في أسرهم ردحاً طويلاً، يقضي الشتاء بالدهناء، والربيع بالصمان، والصيف بالستارين، وقد استفاد الأزهري من محاورة القرامطة ومخاطبة بعضهم بعضاً ألفاظاً جمة ونوادر كثيرة أوقع أكثرها في كتابه «التهذيب» وكان الرجل كما يقول ابن خلكان: جامعاً لشتات اللغة، مطلعاً على أسرارها ودقائقها، ويقع كتابه في أكثر من عشرة مجلدات.

هذا هو الأزهري صاحب تهذيب اللغة كما اطلعنا على سيرته في معجم الأدباء لياقوت الحموي، وبغية الوعاة للسيوطي، ووفيات الأعيان لابن خلكان ومقدمة التهذيب للأستاذ عبد السلام هارون.

التهذيب :

نعود لنقول ان تهذيب الأزهري ثالث المعاجم التي اتخذت التقليب كأساس في ترتيب المفردات أو بعبارة أخرى اتبعت ترتيب الخليل في كتابه العين .

ولا شك أن الأزهري يعد من اللغويين الذين اعتمد عليهم المتأخرون في مادتهم وعلى الأخص ابن منظور صاحب لسان العرب . قلت ان الرجل أسر عند القرامطة ونجح القرامطة في تجنيد الرجل وإقناعه بدعوتهم دليل بقائه معهم فترة طويلة تشي بأن هذا البقاء بمحض إرادته ، يتنقل معهم في مشاتيهم ومصايفهم ويمدح لغتهم وينقل حوارهم وأحاديثهم ، ثم يتعلم على يد المنذري ونفطويه الذي لقنه خصومة ابن دريد ومهاجمته .

ويرتحل الرجل لبغداد ليقابل ابن دريد وابن السراج كما ذكرت كتب الطبقات ورغم مقابلته لهما لم يرو عنهما وينكر هذا إنكاراً شديداً ولكن بين طيات التهذيب إقتباسات كثيرة نجدها مأخوذة بالنص من ابن دريد وابن السراج ولا يقل في ذلك عن إقتباساته عن غيرهما من علماء اللغة . والأزهري عندما يأخذ عن الرواة السابقين لم يكن بدعاً في ذلك الوقت فقد كان طابع العصر كله .

ومن علماء اللغة من أتيحت له فرصة السماع من العرب فسجل ما سمع في مؤلفاته وكان للأزهري من هذا حظ كبير عندما وقع أسيراً في أيدي القرامطة . فسنحت له فرصة ذهبية كعالم لغة باختلاطه بالبدو والعرب الخلص الذين كانوا يتحدثون العربية الفصحى دون لحن أو خلط .

الغرض من تأليف التهذيب

يقول الأزهري في مقدمة التهذيب أن الداعي إلى تأليف هذا المعجم خلال ثلاث :

أ ــ تقييد نكت حفظها ووعاها عن أفواه العرب الذين شاهدهم وأقام بين ظهرانيهم سنتين يقصد القرامطة .

ب ــ النصيحة الواجبة على أهل العلم لجماعة المسلمين في إفادتهم ما لعلهم يحتاجون إليه .

جـ ــ انه قرأ كتباً تصدى مؤلفوها لتحصيل لغات العرب فيها ، مثل «**كتاب العين المنسوب إلى الخليل**» ثم كتب من احتذى حذوه في عصرنا هذا . وقد أخل بها ما يذكره الأزهري ــ من وجهة نظره ــ من دخلها وعوارها ، بذكر الأئمة المتقنين وعلماء اللغة المأمونين على ما دونوه من الكتب وافادوا ، وحصلوا من اللغات الصحيحة التي رووها عن العرب واستخرجوها من دواوين الشعراء المعروفين ، وحفظوها عن فصحاء الأعراب[1] .

ويتهم الأزهري أهل زمانه من العلماء والطلاب بأنهم لا يعرفون من آفات الكتب المصحفة المدخولة ما عرفه ، ولا يميزون صحيحها من سقيمها كما ميزه هو!!

وهو يزعم أن كتابه نضح عن لغة العرب ولسانها العربي الذي نزل به الكتاب، وجاءت به السنن والآثار، وأن الكتاب تهذيب للغة اعتمد فيه على جهده ، كل ذلك ليكشف تصحيف المتحاذقين وتفسيرهم المزال عن وجهه الصحيح ، لئلا يغتر به من يجهله ولا يعتمده من لا يعرفه .

وحاول الأزهري بشكل **نرجسي غريب** أن ينسب العلم كله الى نفسه وإلى كتابه التهذيب :

ــ ذم الليث ونسب إليه كتاب العين وعده من غير الثقات .

(١) مقدمة التهذيب ص ٦ جـ ١ .

ـــ ذم قطرب محمد بن المستنير المتوفى ٢٠٦ هـ .

ـــ وذم الجاحظ وزعم أن أهل المعرفة بلغات العرب ذموه ، وعن الصدق دفعوه . رغم أنه أوتي بسطة في لسانه وبياناً عذباً في خطابه ، ومجالاً واسعاً في فنونه .

ـــ ذم ابن دريد وكتاب الجمهرة .

ـــ ذم البشتي صاحب كتاب « التكملة » .

ـــ ذم أبا الأزهر البخاري صاحب كتاب « الحصائل » .

التهذيب والترتيب المخرجي

سار الأزهري في ترتيب معجمه على الترتيب الذي عمله الخليل في معجمه العين . فجاء ترتيب معجمه مطابقاً لترتيب العين ، لذا فهو معجم يسير على أساس مخرجي بحت .

والأزهري يتبع منهج (التقليب) فيقلب مواده اللغوية على جميع الأوجه الممكنة كما فعل الخليل في العين .

وحاول الأزهري أن يلتزم الحرف الاول ثم الثاني ، فيأتي أولاً بالمفردات التي تبدأ بحرف العين مثلاً ثم بالمفردات التي تثنى بها ، وهكذا ، وان كان لم يلتزم ذلك كلية ، فذكر مواد باب العين والقاف مع الدال هكذا : (عقد ، عدق ، قعد ، دعق ، قدع ، دقع) . ويلاحظ أن الأزهري إلتزم ذلك أيضاً في الحرف الثاني ، فأتى (بقعد) قبل (عدق) ولكنه في مادة (ع . ق . ن) لم يلتزم ذلك ، فأتى بالمواد هكذا (عنق ، قنع ، قعن ، نعق ، نقع) وكان الأصح أن ترتب هكذا : (عنق ، قعن ، قنع ، نعق ، نقع) واضطرب الأزهري أيضاً في مادة العين والكاف مع النون فأتى بها مرتبة هكذا : (عنك ـــ عكن ـــ كنع ـــ نكع ـــ كعن) . وطبق الأزهرى منهج شيخنا الخليل تماماً في (الكمية) فبدأ الأبواب

بالثنائي ثم الثلاثي المضعف ثم الرباعي المضعف فعالج: (مع: معَّ، معمع) في مكان واحد مثل الخليل تماماً.

الأزهري فقيهاً!

لعل رسوخ قدم الأزهري في علوم الفقه بجانب علوم اللغة هو الذي دفعه إلى تأليف كتاب هام «مصطلحات الفقهاء» شرح فيه من الناحية اللغوية بعض المصطلحات الفقهية التي كانت مستعملة في عصره واهتم الأزهري بإيضاح الصلة بين المعنى الفقهي والمعنى اللغوي سجلها في التهذيب في أكثر من موضع. فمثلاً في المادة «جعجع» تحت المجموعة (عج) نجد أنه في شرحه لهذه الكلمة قد حمل على العلويين في عبارته إذ قال: «كتب عبدالله بن زياد اللعين إلى عمرو بن سعيد أن جعجع بالحسين».

والشيء الذي يستغرب له أن رجال الطبقات ومن أرّخوا للأعلام في تأريخهم للأزهري لم يذكروا هذا الكتاب الذي اعتقد أنه من أهم مؤلفات الأزهري بغض النطر عن شيعته الواضحة.

التهذيب بين المخطوط والمطبوع

قام أستاذنا عبد السلام هارون بتحقيق تهذيب الأزهري وان كان تاريخ هذا التحقيق مجهولاً بالنسبة لنا ولكن الدكتور عبدالله درويش يقول ان كتاب التهذيب لا يزال مخطوطاً ونسخه متفرقة ما بين لندن والقاهرة واستانبول التركية ويقول ان قطعة صغيرة منه نشرها المستشرق زوترستين واعتمد على نسخة استانبول وهذا الجزء يحتوي على تصدير موجز للناشر ومقدمة مطولة عن الأزهري استعرض فيها بإيجاز تاريخ وتراجم اللغويين بصريين وكوفيين منذ أبي الأسود الدؤلي إلى عصره. وفي آخر المقدمة عندما أراد أن يوضح طريقته التي سيسير عليها

في تنظيم الكلمات في التهذيب أخبرنا أنه لم يجد أصوب ولا أوفى من مقدمة العين التي وضعها الخليل ولذلك سيعتمد هو عليها وينقلها بين يدي كتابه. والجزء الذي من صلب التهذيب ونشر يبدأ من أول حرف العين إلى المجموعة: (ع ث) يعني الأصلين (عث، وثع) هذا هو كلام الدكتور عبدالله درويش في كتابه عن (المعاجم العربية) مع اعتنائه الخاص في كتابه بمعجم العين للخليل بن أحمد (ص ٢٧، ٢٨) وهذا الكتاب صدر سنة ١٩٦٢ وواضح أن د. درويش لم يكن لديه أي فكرة عن تحقيق الأستاذ هارون للتهذيب فلعل تحقيق التهذيب كان بعد خروج كتاب الدكتور درويش للنور والله أعلم.

الشغف بالمادة والبراعة

نعود إلى زوترستين الذي قام بنشر جزء من التهذيب لنجده مشغوفاً إلى حد كبير بالبراعة التي أظهرها الأزهري في كتابه، وبسعة اطلاعه وكثرة المواد فيه، الأمر الذي جعله عمدة ومرجعاً هاماً لكتاب اللسان لابن منظور. ولتسلط هذه الفكرة على الناشر بشكل غريب أثبت في هوامش التهذيب أرقام الصفحات المقابلة من لسان العرب التي فيها اقتباس الأخير عن الأول دون التصريح بالنقل حتى يرينا إلى أي حد اعتمد ابن منظور على الأزهري في كتابه وبالتالي فقد كان اللسان عمدة لما ظهر بعده من الكتب.

وان كان الناشر أراد أن يقنعنا بأن التهذيب هو بهذه الطريق المصدر الاول للمعاجم العربية المتأخرة فإننا وبنفس الطريقة يمكن أن نرجع أغلب ما في التهذيب إلى كتاب العين للخليل بن أحمد لاتفاقهما في كثير من التعبيرات فضلاً عن تنظيم الكلمات وتبويب الأبواب الأمر الذي يجعلنا نقول إن كتاب العين هو الأصل لكل ما أتى بعده من المعاجم.

مميزات معجم الأزهري

أولاً : إيراده لكثير من الروايات اللغوية واستشهاده بكثير من الشعر والقرآن الكريم والحديث .

ثانياً : اهتمامه الملحوظ بأسماء الأماكن والبلدان .

ثالثاً : عنايته بالنوادر عناية كبيرة وبالمترادفات .

رابعاً : اهتمامه باللهجات وإيراده الكثير من أقوال قبائل مختلفة .

خامساً : اتساع المادة اللغوية داخل المعجم ، وربما يكون السبب في ذلك هو كثرة نقله عن اللغويين السابقين له ، كما أنه أيضاً أخذ جُل مادته اللغوية من كتاب « العين » للخليل رغم هجومه الحاد عليه .

مآخذ على التهذيب

أما المآخذ التي يمكن لنا أن نأخذها على الأزهري في معجمه ، فإننا يمكن أن نحصرها في النقاط التالية :

١ ــ تعصبه المقيت لمعجمه ، ومحاولته أن يهدم كل التآليف المعجمية التي سبقته . وقد هاجم من أجل هذا الغرض علماء أجلاء شهد لهم بطول الباع في العلم والمعرفة كابن دريد صاحب « الجمهرة » الشاعر الأديب اللغوي ، والجاحظ إمام الكتاب في العصر العباسي دون منازع والليث بن المظفر وغير هؤلاء ممن عرفوا وشهد لهم بالصلاح والتقوى والذين رماهم الأزهري بما لا يليق بعالم مثله .

٢ ــ تكراره لكثير من الشروح وذلك نتيجة جمعه الأقوال الكثيرة في تفسير اللفظ الواحد لصدورها من علماء لغة مختلفين ، فورد أكثر من قول للمعنى الواحد بدون زيادة في كل منها ، بل ربما أنفصل بعضها عن بعض بمعانٍ وصيغ أخرى .

وبعد: فإن تهذيب اللغة الذي ألفه أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري المولود ٨٩٥م والمتوفى ٩٨٠م والذي أخرجته الدار المصرية للتأليف والترجمة في حوالي ١٥ مجلدا كان الغرض منه كما زعم مؤلفه تخليص اللغة مما أصابها ودخلها من الشوائب والأخطاء. وهو يتبع منهج الخليل في «العين» بحذافيره، أي وفق مخارج الحروف.

وفي التهذيب المحقق ملحق بكل مجلد عبارة عن كشاف ألفبائي بالمواد الواردة فيه لتسهيل استعماله.

ولكن الأزهري لم يتقدم بحركة التأليف في المعاجم خطوة إلى الأمام، بل رجع مرة ثانية إلى النقطة التي وقف عنها الخليل فجاء معجمه مطابقاً في المنهج لمعجم العين. ولو أكمل الأزهري «المشاكس» ما بدأه ابن دريد صاحب الجمهرة أو طور فيه، لخطت معاجمنا العربية خطوة كبيرة إلى الأمام في سبيل عمل معاجم عربية ميسرة، وكل ما أتى به الأزهري زيادة على الخليل بن أحمد هو غزارة مادته اللغوية التي استقاها ممن سبقه من اللغويين.

« المحيط »

والصاحب بن عباد

« الصاحب بن عباد » هذا الاسم كلما أتى للذاكرة تجل معه وتقدر مبدأ الصداقة ، ومعه أذكر هذين البيتين وهو يذم الشماتة :

وكم شامتٍ بي بعد موتي جاهلاً
يظل يَسُلُّ السيف بعد وفاتي
ولو علم المسكينُ : ماذا ينالهُ
من الظلم بعدي؟ مات قبل مماتي

لقد لقب بالصاحب لكثرة ما صاحب الوزير ابن العميد (ت ٣٦٠ هـ) الذي كان قصره ملتقى الأدباء والمبدعين ، وعنه أخذ أدبه ، والصاحب هو الصاحب أبو القاسم إسماعيل بن أبي الحسن عباد بن العباس بن عباد بن ادريس الطالقاني .

كان شاعراً ، لغوياً ، كاتباً ، أخذ الأدب واللغة عن أبي الحسين أحمد بن فارس اللغوي صاحب معجمي « المجمل » و « المقاييس » ، كما أخذه عن ابن العميد من قبل .

كان مولده علم ٣٢٦ هـ بمدينة اصطخر وقيل ان وفاته كانت بالري عام ٣٨٥ هـ وهناك رأي يذهب إلى أن ميلاده كان بالطالقان وليس بالاصطخر .

وللصاحب العديد من المؤلفات نذكر منها :

ــ معجم « المحيط » .
ــ الكافي في الرسائل .

ـــ فضائل النيروز .

ـــ كتاب الإمامة : يذكر فيه فضائل سيدنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ويثبت إمامة من تقدمه .

ـــ كتاب الوزراء .

ـــ كتاب الكشف عن مساوىء شعر المتبني .

المحيط :

خُيل للصاحب بن عباد ، وهو من رجال القرن الرابع الهجري ، أنه قادر على الإحاطة بمفردات العربية ، فأطلق على المعجم الذي صنعه اسم « المحيط » ثم أخذ بعد الصاحب كثير من علماء العربية ، الذين تصدوا لجمع مفرداتها ، يطلقون على مؤلفاتهم إسماً من أسماء البحر أو صفة من صفاته ، فأطلق ابن سيده على معجمه اسمه « المحكم والمحيط الأعظم » وأطلق الصاغاني على مؤلفه اسم « العباب » أو « مجمع البحرين » وانتهى التأليف إلى الفيروزابادي وهو من رجال القرن التاسع للهجرة ، فأطلق على معجمه اسم « القاموس المحيط » لأنه على حد تعبيره البحر الأعظم ، وعلق الزبيدي صاحب تاج العروس على هذه التسمية قائلاً :

«قال شيخنا : وإنما سمى كتابه بالقاموس المحيط ، على عادته في إبداع أسامي مؤلفاته ، لأحاطته بلغة العرب كاحاطة البحر للربع المعمور» .

*

كان من المنتظر أن يرتب الصاحب بن عباد معجمه على نهج أستاذه ابن فارس (ت ٣٩٥ هـ) ـــ ابن فارس الذي اعتمد على ترتيب نصر بن عاصم تبعاً لحروف الكلمة الأولى مع الاحتفاظ بنظام الابنية . الا أن الصاحب إلتزم ترتيب الخليل والأزهري ، والتزم منهج الأزهري في ترتيب الابنية ووافقهما في نظام المقلوبات إلاّ أنه اختصر وأفاض في مواد كثيرة .

على كل نحن لا ندري السبب في إتباع الصاحب منهج الخليل لأن المعجم معظمه مفقود والموجود منه في دار الكتب المصرية بعض أجزاء اطلعت عليها وهي (ف ــ ر ــ ز ــ ط ــ د ــ ذ ــ ل ــ ج ــ ش ــ ض ــ ص ــ س) . أما باقي الأجزاء التي تشمل على باقي الحروف فمفقودة ، كما أن مقدمة المعجم نفسه مفقودة أيضاً لذا لا نعرف غرض الصاحب بن عباد من تأليف معجمه أو منهجه الذي اتبعه داخل المعجم . إن كل ما نجده هو إشارات عابرة في بعض كتب التراجم .

يقول ابن خلكان في « وفيات الأعيان» في معرض حديثه عن الصاحب بن عباد :

« وصنف في اللغة كتاباً سماه « المحيط» وهو في سبعة أجزاء (مجلدات) رتبه على حروف المعجم ، أكثر فيه من الألفاظ وقلل الشواهد فاشتمل من اللغة على جزء متوفر» . وبفحص الأجزاء التي عثرنا عليها في دار الكتب يتضح لنا التالي :

١ ــ المحيط يسير وفقاً لنظام مدرسة التقليبات التي ابتدعها الخليل في « العين » .

٢ ــ قسم الصاحب أبواب « المحيط » تقسيماً كمياً ورتب الحروف ترتيباً مخرجياً .

٣ ــ رتب المواد أنفسها ومقدارها في كل حرف . فعلى حين يتناول حرف الكاف اللهوي قدراً كبيراً جداً لا يتناول حرف الفاء الشفوي غير القليل جداً .

والسبب :

سير المؤلف على نظام التقليب فدخلت معظم مواد حرف الفاء فيما سبقه من حروف . أما حرف الكاف فلهوي لا يسبقه إلا عدد ضئيل من الحروف الحلقية فبقيت مواده وافرة .

ومن خصائص المحيط للصاحب :

ـ عنايته الكبيرة بالعبارات المجازية ، فبعد أن يذكر المعاني الحقيقية يثني بالمعاني المجازية ـ وأعتقد أن هذه المحاولة استثمرها الزمخشري (ت ٥٣٨ هـ) فيما بعد في كتابه : (أساس البلاغة) رغم أنه اعتمد ترتيب نصر بن عاصم لحروف المعجم تبعاً لحرف الكلمة الأول مع الاحتفاظ بنظام الأبنية .

ـ تخلص الصاحب من الكثير من الشواهد والروايات والأمثلة التي كانت تزخر بها المعاجم العربية التي سبقته وخاصة كتاب «تهذيب اللغة» للأزهري .

ـ ميله إلى الاختصار وحذف كثير من أقوال من سبقه من علماء اللغة ، والاقتصار على تفسير واحد ، بل حذف الكثير من أسماء أئمة اللغويين السابقين عليه .

ـ انفراد الصاحب في المحيط بكثير من الأقوال والصيغ التي لم تأت فيما سبقه من المعاجم .

ولعل ما يؤكد هذه النقطة ما قاله ابن خلكان في الجزء الأول من وفيات الأعيان (ص ٢١٦) عندما وصف محيط الصاحب بأنه في سبعة مجلدات مرتبة على حروف المعجم ، أكثر فيه الألفاظ وقلل الشواهد ، فاشتمل من اللغة على جزء متوافر .

ان معجم المحيط للصاحب بن عباد لم يقدم جديداً من حيث المنهج ، فقد سار على نهج من سبقه من أصحاب مدرسة التقليبات ، وكل ما قدمه إنما هو اختصار في المادة واعتناء بالمجاز أو اختصار في الشواهد والروايات . . .

ولكن ذلك لا يجعلنا نلتزم الصمت تجاه هذا المعجم بل ندعو أهل اللغة والدراسات اللغوية إلى البحث عن بقية أجزاء هذا المعجم وأعتقد أنه موجود وغير مفقود ولكن بالبحث الجاد سنصل إليه ، ويكفي ما فيه من ثروة لغوية مفيدة لكل من يعشق لغة الضاد الأم .

الـزُّبيدي الأندلسي

الإشبيلي الذي اختصر العين !

الـزُّبيدي الأندلسي و «مختصر العين»

الـزُّبيدي :

محمد بن الحسن الـزُّبيدي الإشبيلي (أبو بكر محمد بن الحسن بن عبدالله بن بشر ، الـزُّبيدي ، الاشبيلي ، نزيل قرطبة) أخذ عن أبي إسماعيل القالي ، واعتمد عليه الحكم بن عبد الرحمن [بن محمد بن عبدالله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم ابن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس] ، اعتمد عليه في تعليم ولده ، مات الزبيدي باشبيليه في جمادى الأول سنة ٣٧٩ هـ كما ذكر ابن بشكوال صاحب الصلة .

قال الحميدي : توفي قريباً من سنة ٣٨٠ هـ ، وروى عنه غير واحد منهم : ابنه الوليد محمد ، وإبراهيم بن محمد الافليلي النحوي وغيرهما والزُّبيدي بضم الزاي وفتح الباء وسكون الياء والدال ـــ هذه النسبة زُبيد ، واسمه منبه بن صعب بن سعد العشيرة بن مذحج ، وزُبيد قبيلة كبيرة باليمن خرج منها خلق كثير من الصحابة وغيرهم ، رضي الله عنهم .

سمع الزُّبيدي من عبيدالله بن يحيى الليثي ومن غيره . وكانت وفاة عبيدالله هذا قريباً من سنة ٣٢٠ هـ ويقول ياقوت إنه سمع من بعض الناس أن عبيدالله هو والد أبي بكر محمد بن الحسن الزُّبيدي النحوي مؤلف كتاب الواضح ، ويشبه أن يكون ذلك والله أعلم .

كان الـزُّبيدي من الأئمة العظام في اللغة والعربية ، وألف في النحو كتابه : (الواضح) ، كما اختصر كتاب العين للخليل اختصاراً حسناً ، وله كتاب في أبنية سيبويه ، وله كتاب ما يلحن فيه عوام الأندلس ، وكتاب طبقات النحويين .

ومن أساتذته: القالي البغدادي، وقاسم بن أصبغ، وسعيد بن فحلون، وأحمد ابن سعيد بن حزم، وأصله من جند حمص المدينة التي بالشام.

كان أهل الأندلس ينافسون في كتبه خصوصاً كتابه الذي اختصره من كتاب العين، لأنه أتمه باختصاره وأوضح مشكله، وزاد ما عساه كان مفتقراً إليه، وللزبيدي تصانيف غير ما ذكر هنا مثل: كتاب الرد على ابن مسرة وأهل مقالته سماه «هتك ستور الملحدين» وغيره.

وكان الزبيدي شاعراً كثير الشعر وروى عنه أبو عمر بن عبد البر وأبو مسلم ابن فهد وهناك قصيدة رواها أبو محمد علي بن أحمد (منظومة) نفهم منها أن الزبيدي عمل في وظيفة صاحب الشرطة وتبادل خواطر وأحاديث شعرية كثيرة مع الوزير أبي الحسن جعفر بن عثمان المصحفي.

وكان الرجل عالماً باللغة يحفظ كتاب الالفاظ ليعقوب بن السكيت بالاضافة إلى تآليفه الخاصة في علوم اللغة.

ويقال إنه استأذن الحكم المستنصر في الرجوع إلى إشبيلية، فلم يأذن له فكتب قصيدة عينية إلى جارية واضح أنه متيم بها حباً قال:

ويحـك يـا سلم لا تراعي
لا بـد للـبين مـن زمـاع
لا تحسبيني صبرت إلا
كصبر ميت على النزاع
ما خلق الله من عذاب
أشد من وقفة الوداع
ما بينها والحمام فرق
لولا المناحات والنواعي

إن يـفـتـرق شـمـلـنـا وشـيـكـاً
مـن بـعـد مـا كـان ذا اجـتـمـاع
فـكـل شـمـل إلى إفـتـراقٍ
وكـل شـعـبٍ إلى انـصـداع
وكـل قـرب إلى بـعـادٍ
وكـل وصـل إلى انـقـطـاع

مختصر العين:

سمى الزبيدي معجمه «مختصر العين» لأنه يتفق مع ما سبقه من المعاجم التي سارت على نهج الخليل ولذا يقال ان مختصر الزبيدي يمثل «العين» أصدق تمثيل، وان التسمية لتدل على تواضع جم من الزبيدي بخلاف أصحاب المعاجم المتقدمين، الذين حاولوا أن ينسبوا كل الفخر لمعاجمهم وان يحطوا من قدر المعاجم التي سبقتهم كالأزهري والقالي مثلاً حيث سميا «التهذيب» و «البارع».

واذا كان التواضع من سمات الزبيدي فالوفاء أيضاً من سماته فهو يقول عن أستاذه القالي: «ولا نعلم أحداً من اللغويين ألف مثله» يعني كتابه «الأمالي».

وسوف نقتبس طائفه من آراء العلماء عن الزبيدي ومختصره:

أ ــ ابن خلدون: ذكر ابن خلدون في المقدمة ص٤٥٩ أن الخليل الفراهيدي كان أول من فكر من اللغويين العرب في وضع معجم أبجدي وسماه العين وقد وضعه مفصلاً مطولاً، وقد اختصره الزبيدي بطريقة بديعة حيث حذف ما يستغنى عنه مبقياً على روح الكتاب وأصله.

ب ــ بروكلمان ودائرة المعارف الإسلامية: ذكر بروكلمان ودائرة المعارف الإسلامية عند الكلام على الخليل وكتابه العين أنَّ العين يعتبر في حكم

المفقود وهذا كلام غير دقيق بالطبع فهناك عدة نسخ اعتمد عليها في تحقيقه أستاذنا عبدالله درويش، ولكنهما وجدا ان هذا موضع مناسب لذكر أفضل كتاب يقوم مقام العين فذكرا اسم مختصر العين للزبيدي وأخذا يسردان الأماكن التي يوجد فيها مختصر العين للزبيدي وأرقامها. كأنهما اقتنعا بأن المختصر يمثل العين أصدق تمثيل.

جـ ـ **ياقوت:** ذكر ياقوت في كتابه معجم الأدباء عند ترجمته للزبيدي مبيناً علاقة المختصر بكتاب العين «إن الزبيدي قد أتمه باختصاره» يعني بذلك كما وضح هو أن الزبيدي حذف من عين الخليل ما ليس مهماً وأضاف إليه ما لا بد منه، ورتب بعض الكلمات في مواضعها الأصلية، واستشهد ياقوت على رأيه برأي مماثل نقله عن الحميدي في كتاب «أخبار الأندلس».

د ـ **كشف الظنون:** ذكر حاجي خليفه في كتابه كشف الظنون على «العين» ان الزبيدي قد اختصره وحذف منه الكلمات المصحفة والشواهد المختلفة ووضع الأصول في مواضعها. وصاحب الكشف في هذا إنما ينقل ما اقتبسه عن كتب الطبقات والرجال. كما يتضح هذا بمقارنة رأيه برأي ياقوت السالف الذكر.

هـ ـ **السيوطي:** الإمام السيوطي في الجزء الأول من (المزهر في علوم اللغة وأنواعها) يحدثنا في ص (٤٨، ٤٩، ٥٠) عن الجهد الذي بذله أبو بكر محمد بن حسن الزبيدي اللغوي مؤلف مختصر العين ودفاعه الحار عن الخليل الذي عقد فصلاً له: (استدراك الغلط الواقع في كتاب العين) ورد الزعم والافتراء ضد هذا العلم وفي المزهر أيضاً نقل السيوطي عن أبي ذر الخشني أن من بين المختصرات التي فاقت أصولها مختصر ابن هشام لسيرة ابن اسحاق ومختصر الزبيدي لعين الخليل واستطرد السيوطي فقال إن الناس قد عكفوا على قراءة المختصر وفضلوه على العين ذاكراً جملة أسباب نذكر منها:

ــ انه حذف منه الكلمات المصحفة والأ بنية المختلة .

ــ لأنه حذف منه الشواهد .

ــ لأن أصغر حجماً ، ويظهر أن الإمام السيوطي في هذا يميل إلى رأي ابن خلدون في المقدمة من أن الاختصار يعين الناس في ذلك الوقت على الحفظ عن ظهر قلب .

ولكن السيوطي من ناحية أخرى نراه لم يقطع برأي في هذه المسألة بل نقل فيما بعد عن بعض العلماء أن الزبيدي قد أخل بكتاب العين حين حذف الشواهد النافعة والآيات والأحاديث المشتملة على الحجج اللغوية المفيدة .

خصائص مختصر العين

تميز هذا المعجم عدة خصائص نذكرها فيما يلي :

أولاً : انه اختصر كثيراً من الشواهد والروايات ــ كما أسلفنا ــ ولذا يكاد يتفق أصحاب التراجم والرجال والطبقات على أن الزبيدي في مختصر العين حذف أشياء ليست مهمة من أصل عين الخليل وأضاف إليه ما لا بد منه .

ثانياً : يحمد لهذا المعجم أنه وضع بعض المواد في مواضعها الصحيحة ، ومثال لذلك مادة (ع هـ ق) ، فقد ذكر الخليل لها صيغتين مستعملتين فقط هما : (هقع ، عهق) ، وكان الواجب أن يذكر الخليل مادة (عهق) أولاً ثم يثني بالمادة الثانية (هقع) لأن العين أسبق مخرجاً من الهاء فكان واجب الخليل أن يبدأ بالمادة التي تبدأ بحرف العين . ولكن الخليل ذكر (هقع) أولاً ثم ذكر (عهق) بعدها .

أما الزبيدي فقد صحح هذا الوضع فذكر (عهق) أولاً ثم أتى بعد ذلك بـ (هقع) .

وقد نال هذا المختصر العيني للزبيدي ثناء الكثير من المتأخرين فقيل انه حذف من العين الكلمات المصحفة والأ بنية المختلة، كما حذف الشواهد وقد أشرنا إلى ذلك ولذا جاء المختصر أصغر حجماً وذلك يعين الناس على الحفظ.

وأخيراً فالزبيدي أندلسي آخر جاء بعد القالي استاذه ولكن كان أكثر تواضعاً من أستاذه على الأقل في تسمية معجمه إذ أسماه مختصر العين، عكس ما فعله القالي حين أطلق على معجمه «البارع» بما يوحي بأنه كان معتداً بنفسه وبعمله وأنه أراد أن يظهر أهمية معجمه وتفوقه ولكن هذا الاعتداد لا يصل لنرجسية الأ زهري صاحب تهذيب اللغة.

وما دام الكتاب مختصراً فقد كان عليه أن يحمل سمات الاختصار في أكثر من ناحية.

ذلك أن ترتيبه جاء موافقاً تماماً لترتيب عين الخليل ولم يتصرف في شرح المفردات بالاضافة إليها أو الحذف منها بل جاء تعبيره وفق ما جاء في العين خاصاً بهذه الناحية.

كان الزبيدي الأندلسي دقيقاً في إيراد مواد المعجم، وقد جاء ترتيبه متمشياً والباب الذي يعالج فيه كل كلمة.

عبقري القرن الخامس :
أندلسي كفيف !!

المحكم وابن سيدة

علي بن أحمد بن سيدة (بكسر السين وفتح الدال والتاء) اللُغوي الأندلسي — أبو الحسن الضرير.

وقيل ابن إسماعيل أبو الحسن النحوي اللغوي المعروف بابن سيدة الضرير.

كان أبوه ضريراً أيضاً من أهل الأندلس على حد قول الحميدي الذي سماه (علي بن أحمد).

وفي كتاب ابن بشكوال الأندلسي ان اسمه: «علي بن إسماعيل» وفي كتاب صاعد الجياني «علي بن محمد» وفي نسخة ثانية «علي بن إسماعيل» ونرى أن قول الحميدي أرجح. مات ابن سيدة بالأندلس سنة ٤٥٨ هـ عن ستين سنة أو نحوها.

يقول القاضي الجياني: كان مع إتقانه لعلم الأدب والعربية متوفراً على علوم الحكمة وألف فيها تأليفات كثيرة ولم يكن في زمنه أعلم منه بالنحو واللغة والأشعار وأيام العرب وما يتعلق بعلومها وكان حافظاً.

ومن أهم مؤلفاته:

— كتاب «المحكم والمحيط الأعظم» رتبه على حروف المعجم في اثني عشر مجلداً.

— كتاب «المخصص» مرتب على الأبواب كغريب المصنف.

— كتاب شرح اصلاح المنطق (واصلاح المنطق لابن السكيت).

— كتاب «الأنيق في شرح الحماسة»، عشرة أسفار.

ـــ كتاب العَالَم (بفتح العين واللام) في اللغة على الأجناس في غاية الإيعاب وهو نحو مائة سفر بدأ بالفلك وختم بالذرة (النملة الصغيرة).

ـــ كتاب العَالِم (بتسكين اللام وفتح العين وكسر اللام والميم) والمتعلم أو العالم المتعلم على المسألة والجواب.

ـــ كتاب الوافي في علم أحكام القوافي.

ـــ كتاب شاذ اللغة في خمسة مجلدات.

ـــ كتاب العويص في شرح إصلاح المنطق.

ـــ كتاب شرح كتاب الأخفش ... الخ، الخ.

ومن أشهر الذين روى عنهم ابن سيدة: والده وصاعد البغدادي.

ويحدثنا أبو عمر الطلمنكي: دخلت مرسية (من حواضر الأندلس) فتشبث بي أهلها ليسمعوا عني غريب المصنف فقلت لهم: انظروا من يقرأ لكم وأمسك كتابي، فأتوني برجل أعمى يعرف بابن سيدة، فقرأه عليَّ من أوله إلى آخره من حفظه، فعجبت منه[1] !!. ويقول الحُميدي (بضم الحاء): كان ابن سيدة منقطعاً إلى الأمير أبي الحسين مجاهد بن عبدالله العامري، ثم حدثت له نبوة (جفوة) بعد وفاته في أيام إقبال الدولة بن الموفق فهرب منه، وقال قصيدة اعتذارية طويلة يستعطفه فيها فوقع عنه الرضا مع وصولها إليه فرجع.

ويقول صاحب (أنباه الرواة)[2]: ان ابن سيدة الضرير الأندلسي إمامٌ في اللغة والعربية جمع في اللغة الكتاب المحكم يقارب عشرين مجلداً لم ير مثله في فنه، لا يعرف قدره إلاَّ من وقف عليه. ويقول: إن وفاته كانت ٤٦٠ هـ ويصفه صاحب (بغية الوعاة)[3] بأنه كان حافظاً ولم يكن في زمانه أعلم منه وأعاد حكاية أبي عمر الطلمنكي التي وردت في (معجم ياقوت) وفي (أنباه الرواة).

(١) معجم الأدباء لياقوت الحموي جـ ١٢/ص ٢٣٣.
(٢) ص ٤٦٧.
(٣) ص ٣٢٧.

الرجل والعصر:

لقد شهد القرن الخامس الهجري أشهر علماء وفقهاء اللغة في الأندلس ألا وهو ابن سيدة فقد كان يعد بحق ــ دون أي تعصب ــ معجزة عصره وأوانه إذا عرفنا أنه على معارفه الواسعة وعقليته المنظمة كان محروماً من نعمة البصر وقد تلقى علوم اللغة والدين على يد والده الذي كان هو الآخر كفيفاً والذي تتلمذ على الزبيدي صاحب مختصر العين وعرفنا الزبيدي من قبل تلميذاً نجيباً لأبي علي القالي صاحب « الآمالي » ومعجم « البارع » وبمعنى أكثر إيجازاً إن ابن سيدة أخذ اللغة وعلومها كابراً عن كابر.

ومع أن الطبيعة حرمته من البصر فقد عوضته بذاكرة قوية جداً وأوضحنا ذلك من قبل، ذاكرة قادرة على الحفظ والهضم لما يحفظ حتى من ابن دريد!!

هذا ولم يرد إلينا من كتب ابن سيدة المتعددة غير معجمين أحدهما يسير على نظام الموضوعات وترتيب الأشياء المتشابهة من حيث المعنى تحت باب واحد وأعني به « المخصص » والنسخة التي معي طبعت في بولاق ١٣١٦ هـ.

المخصص:

ذكر ابن سيدة منهجه في هذا الكتاب كما ذكر الغرض منه في مقدمته المطولة وهو يقول إنه وضع المحكم أصلاً ليدل الباحث على مظنة الكلمة المطلوبة وأراد أن يعدل به كتاباً يضعه مبوباً حين رأى ذلك أجدى على الفصيح المدره، والخطيب المصقع، والشاعر المجيد.

وفي مكان آخر يقول: إنه من طريف ما أودع إياه بالاستقصاء الممدود والمقصور والتأنيث والتذكير، وما يجيء من الأسماء والأفعال على بناءين أو ثلاثة فصاعداً وما يبدل من حروف الجر بعضها مكان بعض....

المحكم: قلنا ان ابن سيدة النحوي الأندلسي وضع معجمين مختلفي الغرض:

أحدهما: للباحث الذي يريد أن يعرف معنى الكلمة بسرعة وهو المحكم.

ثانيهما: خاص بالأديب والشاعر اللذين لا يكتفيان بمعنى واحد للكلمة وذلك هو المخصص المعجم اللغوي المشهور والمحكم موضع حديثنا الآن معجم أبجدي على نظام العين للخليل بن أحمد ولا يزال مخطوطاً تتفرق أجزاؤه بين دار الكتب القاهرية ولندن واستامبول التركية.

لقد طبق ابن سيدة منهج الخليل، فمعجمه يسير على نظام التقليب وأبوابه مرتبة على أساس مخرجي، كما انه تابع النظام الكمي داخل الأبواب، لذا فان كل حرف فيه ينقسم إلى الابواب التالية:

أ ـــ الثنائي المضاعف الصحيح.
ب ـــ الثلاثي الصحيح.
جـ ـــ الثنائي المضاعف المعتل.
د ـــ الثلاثي المعتل.
هـ ـــ الثلاثي اللفيف.
و ـــ الرباعي.
ز ـــ الخماسي.

هذا، وقد التزم ابن سيدة الفصل بين أنواع المعتل فعالج المهموز أولاً ثم المعتل بالياء أو بالألف المنقلبة عن الياء ثم الواو أو بالألف المنقلبة عن واو ثم المعتل بألف أصلية غير مقلوبة مثل (ها) التنبيه.

ويقول أستاذنا الدكتور حسين نصار[1] أن لتقدم الدراسات النحوية والصرفية على عهد ابن سيدة عنها في عهد من سبقه من أصحاب المعاجم أثراً كبيراً في منهج معجمه:

---

(١) المعجم العربي، ص ٣٤٦.

ـ حذف المشتقات القياسية لاطرادها .

ـ حذف جمع التكسير من الثلاثي والمزيد والرباعي .

ـ جمع الفاعل من الأجوف على فعله ... الخ .

ـ نبه على أشياء داخل معجمه كالشاذ مثل اسم المفعول الذي لا فعل له أو المبني من الفعل اللازم والأفعال التي لا مصادر أو لا ماضي لها .. الخ .

وكثيراً ما كان صاحبنا يذكر في معجمه مسائل نحوية وصرفية ، ويصدر أحكاماً فيها .

ولكن مما يذكر له أنه فصَّل بدقة الأبواب المختلفة ، فلا نجد في محكمه الاضطرابات بين الأبواب الثنائية والثلاثية والرباعية وغيرها .

ولكن من أهم عيوبه :

١ ـ تصحيفه في بعض الألفاظ ، وفي ضبطها .

٢ ـ بعض تفسيراته الخاطئة .

لكن يبقى بعد ذلك أن محكم ابن سيدة خطوة لها وزنها في التنظيم المعجمي ، وأنه وان كان قد اتبع منهج مدرسة التقليبات الخليلية إلا أنه حاول أن يسير بها خطوة إلى الأمام . ويكفيه فخراً وهو كفيف البصر أن يضع معجمين أحدهما قمة في المعاجم اللفظية التقليبية ، والثاني قمة في المعاجم المعنوية وقد اعتمد على معجم المحكم كثير من أصحاب المعاجم الذين جاءوا بعده كابن منظور صاحب لسان العرب ، والفيروزابادي صاحب القاموس المحيط .

« لين » والقيمة اللغوية « للمحكم »

اثنى المستشرق الإنجليزي « لين » في معجمه الشهير « مد القاموس » على معجم المحكم لابن سيدة وهو يؤكد لنا بعد اطلاعه أكثر من مرة وفي تأن شديد على المحكم وعلى مجموعة ضخمة من المعجمات العربية بعضها مطبوع والبعض

الآخر مخطوطات يمتلكها، واذا أدلى «لين» بحكمه على المحكم إنما يفعل ذلك بعد درس وتمحيص ومقارنة بين المحكم وبين القواميس الأخرى، ويؤكد «لين» أنه لم يقع له بعد عهد الصحاح للجوهري قاموس أعظم من محكم ابن سيدة... وإن قيمته لترتفع إلى الذروة من حيث الصحة والإشارات الانتقادية والأمثلة الكثيرة الشواهد العربية الصحيحة... ولقد اعتمد عليه كثيراً في تأليفه لكتاب «مد القاموس».

بين الخلاصة والمحكم

قلنا إن محكم ابن سيدة يتميز بالضخامة والسعة ونظراً لذلك اختصره «الأنسي» أحد علماء القرن السابع الهجري وسمى مختصره «خلاصة المحكم» ووفقاً لمعلوماتي الخاصة ان هذا المعجم لا يزال مخطوطاً بمكتبة المتحف البريطانية وقد اطلعت على نسخة من هذا الكتاب عند واحدٍ من المهتمين بتراثنا وأرجو منه أن يوكل به إلى من يحققه فيفيد ويستفيد وبذلك يقدم لفكرنا العربي خدمة جليلة وبعد إطلاعي على هذه النسخة وجدت عدة فروق بين «المحكم» وبين «خلاصة المحكم» للأنسي أذكر أهمها:

أولاً: اقتصر صاحب الخلاصة على المفردات الشائعة الاستعمال دون ذكر الغريبة.

ثانياً: حذف في المختصر ما زاد عن شرح المفردات مما يتعلق بالقواعد الصرفية.

ثالثاً: لم يتبع الأنسي نظام التقاليب وإنما رتب «الخلاصة» وفق نظام القافية أي بحسب أواخر الكلمات كالصحاح للجوهري، ولسان العرب لابن منظور الإفريقي.

وبعد، كانت هذه جولة سريعة طفنا فيها ثنايا معاجم المدرسة الاولى مدرسة

القافية ورائدها الخليل بن أحمد الفراهيدي وكان بودنا أن تفرد دراسة خاصة تحليلية لفكر هذا الرجل ولكن نأمل في خروج هذه الدراسة بين دفتي كتاب مستقل لنوضح دور هذا الرجل الموسوعي، في خدمة الفكر العربي خاصة والإسلامي عامةً وما أضافه لعلم اللغة بفروعه المتعددة من ابتكارات وإضافات. ورغم كل السلبيات التي من الممكن أن توجه لمدرسته أو من اتبعوا منهجه وكانت هذه السلبيات من أهم الأمور التي جعلت من العلماء اللاحقين يكرهون نظام العين ويتهمونه بالصعوبة والتعقيد ويبحثون عن نظام أكثر سهولة يمكن لأي شخص أن يفهمه وان يعثر على ضالته المنشودة من مواد لغوية.

*

ابن سيدة هو أشهر علماء اللغة العربية في الأندلس في القرن الخامس الهجري، ويكفيه فخراً أن أحد المستشرقين وهو إدوارد لين قد شهد له وأخذ عنه، بل واعتمد عليه في تأليف معجمه «مد القاموس».

- ولابن سيده ــ كما قلنا ــ معجمان هما: «المحكم» و«المخصص»:
- المخصص طبعته الأولى، بولاق مصر، المطبعة الكبرى الأميرية، ١٣١٦ هـ، في ١٧ مجلداً.
- «المحكم» طبع أول مرة بتحقيق الأستاذ/مصطفى السقا، ود/حسين نصار، مطبعة الحلبي، القاهرة ١٩٥٨ ــ ١٩٧٣ في ٦ أجزاء، والمجلد ٧ في القاف والراء والفاء.

ويبدو أنه ألف المحكم قبل المخصص. والمحكم معجم موضوعي تجمع فيه الألفاظ التي تنتمي لموضوع واحد في مكان ما، ثم تجمع ألفاظ موضوع آخر وتوضع معاً، وهلم جرا.

---

(١) المحكم جـ ٥ ص ١١ من مقدمة المحققين.

وهذا النوع يفيد من يريد الكتابة في أحد الموضوعات وليس لديه ثروة لغوية تيسر له التعبير الحر عن أفكاره التي استلهمها من الموضوع .

ويعد هذا المعجم امتداداً لكتب الموضوع الواحد التي سبقت الإشارة إليها على نحو شبه مفصل .

وكما فعل كل من « القالي » و « الزبيدي » اتبع ابن سيدة طريقة صاحب العين والتزمها ، ولكنه أضاف إليها شيئين لم يتوفرا لدى كل من « القالي » و « الزبيدي » ، ولا نغالي إذا قلنا إنهما لم يتوفرا حتى في معجم العين نفسه .

أولهما : المادة المعروضة في المحكم تفوق كماً وقيمة كل ما جاء في المعاجم السابقة .

ثانيهما : الدقة المتناهية في عرض المسائل ، والنظرة الصوتية العميقة الى الأمور ، ذلك أنه فضل الهمزة على حروف العلة ، ولم يدمج الهمزة مع الألف كما فعل الخليل بن أحمد في العين .

كذلك فإنه تجاهل الألف اللينة نظراً لأن أصلها إما واو أو ياء وذلك عكس ما فعله الخليل حين اعتبر الألف اللينة حرف علة معتبر .

وشيء أخير يلفت النظر هو أن كل من يطالع في هذا المعجم يرى بوضوح استيفاء القواعد الصرفية والعناية بها لدرجة تجعله كتاب صرف الى جانب كونه قاموساً لغوياً .

وباختصار فإن « المحكم » لابن سيدة إنما يعد أحسن المعاجم التي التزمت منهج الخليل في العين ، مع ترتيب الأبواب والتعبيرات الموجزة ، والتعليلات والتخريجات النحوية والصرفية ، بالإضافة إلى احتوائه للصيغ والألفاظ والتفسيرات[1] .

---

(١) المحكم ، تحقيق السقا / نصار ص ٢٣ (من مقدمة) .

المدرسة الثانية : مدرسة القافية

الجوهري ..
الرجل الذي طار فخراً !!

أو الرجل الذي أنكر
فضل خاله

معنا رجل من أعاجيب الدنيا ـــ كما يقول صاحب أنباه الرواة ـــ وذلك لأنه من الفاراب ، أحد بلاد الترك ، يتمتع بقدر هائل من الذكاء والفطنة والعلم ، إمام في علم اللغة والأدب ، وخطه يضرب به المثل في الجودة ، لا يكاد يفرق بينه وبين خط أبي عبدالله بن مقلة ، وهو مع ذلك من فرسان الكلام في الأصول ، وكان يؤثر السفر على الحضر ، ويطوف الآفاق ، واستوطن الغربة على ساق .

دخل العراق فقرأ علم العربية على شيخي زمانه ، ونور عين أوانه ، أبي علي الفارس ، وأبي سعيد السيرافي . وسافر إلى أرض الحجاز ، وشافه باللغة العرب العاربة ، وقد ذكر هو ذلك في مقدمة كتاب « الصحاح » من تصنيفه ، وطوف بلاد ربيعة ومضر ، وأجهد نفسه في الطلب ، ولما قضى وطره من الطواف عاد راجعاً إلى خراسان ، وتطرق الدامغان ، فأنزله أبو علي الحسين بن علي ، وهو من أعيان الكتاب ، وأفراد الفضلاء عنده ، وأخذ عنه ، وسمع مِنهُ ، ثم سرحه إلى نيسابور ، فلم يزل مقيماً بها على التدريس ، والتأليف ، وتعليم الخط ، وكتابة المصاحف ، والدفاتر ، حتى مضى لحال سبيله على آثارٍ جميلة .

ويذكره أبو الحسين الباخرزي فقال : « هو صاحب صحاح اللغة ، ولم يتأخر فيها عن شرط أقرانه ، ولا انحدر عن درجة أبناء زمانه ، أنشدني الأديب يعقوب ابن أحمد قال : أنشدني الشيخ أبو إسحاق صالح الوراق ، تلميذ الجوهري ـــ رحمه الله ـــ له :

يا ضائع العمر بالأماني — أما ترى رونق الزمان
فقم بنا يا أخا الملاهي — نخرج إلى نهر نشتقان
لعلنا نجتني سروراً — حيث جنى الجنتين دانِ

كأننا والقصور فيها بحافتي كوثر الجنان
والطير فوق الغصون تحكي بحسنٍ أصواتها الأغاني
وأرسل الورق عندليبٌ كالزير واليم والمثاني
وبركةٍ حولها أناخت عشرٌ من الدلب واثنتانِ
فرصتك اليوم فاغتنمها فكل وقتٍ سواه فان

وللجوهري تصانيف منها:

- كتاب في علم العروض جيد بالغ، سماه عروض الورق.
- كتاب المقدمة في النحو.
- كتاب الصحاح في اللغة.

و «الصحاح» يعتبره «ياقوت الحموي» من أحسن التصانيف، وأجود التآليف، وعليه اعتماد الناس، لأنه أقرب في التناول، وشديد الأثر في ترتيبه على من قرأه، يدل وضعه على قريحة سالمة، ونفس عالمة، فهو أحسن من «الجمهرة» لابن دريد البصري، وأوقع من «تهذيب اللغة» للأزهري، وأقرب متناولاً من «مجمل اللغة» لأبي علي الفارسي.

يقول الشيخ أبو اسماعيل بن محمد بن عبدوس النيسابوري:

هذا كتابُ الصحاح أحسنُ ما صنّف قبل الصحاح في الأدب
تشمل أبوابه وتجمع ما فرق في غيره من الكتب

ويصف أبو محمد إسماعيل بن محمد النيسابوري كتاب «الصحاح» وكان عنده بخط الجوهري: وهذا كتاب الصحاح، قد سار في الآفاق، وبلغ مبلغ الوفاق، ولما دخلت منه نسخة إلى مصر، نظرها العلماء، فاستجادوا مأخذها وقربه، ولمحوا فيها أوهاماً كثيرة، انتدبوا لإصلاحها وزادوا فيها بعض ما لعله أخل به، من ألفاظ لغوية، الحاجة داعية إليها، فلا شبهة في أنه نقلها من

صحف فصحف، وانفرد في تصريف الكلم برأيه فحرف، وقيل انه اختلط في آخر عمره، ومات متردياً من سطح داره بنيسابور، في سنة ٣٩٨ هـ، ويقال انه مات في حدود سنة ٤٠٠ هـ، وله شعر رائق ذكره ياقوت الحموي. ويحكي لنا أبو الحسن، علي بن فضال المجاشعي في كتابه الذي سماه: «شجرة الذهب، في معرفة أئمة الأدب» فقال: كان الجوهري قد صنف كتاب الصحاح، للأستاذ/أبي منصور عبد الرحيم بن محمد البيشكي ـ وهو من أعيان نيسابور، من أهل الرياسة والجلالة، وكان الجوهري شريكاً له بنيسابور ـ، سمعه منه إلى باب الضاد المعجمة، واعترى الجوهري وسوسة، فانتقل إلى الجامع القديم بنيسابور، فصعد إلى سطحه وقال: أيها الناسُ، إني عملتُ في الدنيا شيئاً لم أسبق إليه فسأعمل للآخرة أمراً لم أسبق إليه، وضم إلى جنبيه مصراعي باب، وتأبطهما بحبل وصعد مكاناً عالياً من الجامع وقذف بنفسه، زاعماً أنه يطير.

الجوهري باختصار

هو إسماعيل بن حماد الجوهري. كان مولده في بلدة فاراب، وينسب إليها أحياناً فيقال الفارابي، وهو بالطبع غير الفيلسوف الإسلامي الكبير الفارابي، كان إماماً في اللغة والأدب، دخل العراق فقرأ العربية على ابي علي الفارسي والسيرافي، واختلط بكثير من القبائل العربية عند سفره إلى الحجاز فقد طوف ببلاد ربيعة ومضر، ثم أقام في نيسابور مُلازماً للتدريس والتأليف حتى توفي بها عام ٣٩٨ هـ. وصنف الفارابي كتباً كثيرة، فصنف كتاباً في العروض، ومقدمة في النحو، ثم معجمه الشهير واسمه بالكامل «تاج اللغة وصحاح العربية».

الصحاح .

يفخر الجوهري في مقدمة صحاحه بأنه أول معجم جامع لألفاظ اللغة العربية مرتب ترتيباً لم يسبق إليه إذ يقول في مقدمة معجمه : « أما بعد : فاني قد أودعت هذا الكتاب ما صح عندي من هذه اللغة التي شرف الله تعالى منزلتها وجعل علم الدين والدنيا منوطاً بمعرفتها على ترتيب لم أسبق إليه وتهذيب لم أغلب عليه في ثمانية وعشرين بابا وكل باب منها ثمانية وعشرون فصلاً على عدد حروف المعجم وترتيبها إلا أن يهمل من الأ بواب جنس من الفصول بعد تحصيلها بالعراق رواية واتقانها دراية ومشافهتي بها العرب العاربة في ديارهم بالبادية ، ولم آل في ذلك جهداً ولا ادخرت وسعاً نفعنا الله وإياكم . » .

والآن نلتقي بالفارابي الأب الشرعي لمدرسة القافية وسنرى الجهد الذي بذله في هذا الشأن ورغم ذلك لم يعترف الجوهري ابن شقيقته بجهد الخال المجتهد .

يزعم الجوهري صاحب « الصحاح » أنه الرائد الأ ول لمدرسة القافية ، ويؤكد هذا الزعم غير العلمي الكثير من الباحثين ، والواقع أن هذا الزعم يتنافى والحقائق العلمية والتاريخية ، فقد سبقه في هذا الترتيب (ترتيب القافية) خاله إسحق بن ابراهيم الفارابي الذي توفي عام ٣٥٠ هـ ، ألف معجم « ديوان الأدب » وسار فيه خطوات لا بأس بها في الترتيب على نظام القافية . وطريقة الفارابي في معجمه أنه قسمه ستة أقسام سماها كتباً ، وهذه الكتب هي :

١ ــ كتاب السالم .
٢ ــ كتاب المضاعف .
٣ ــ كتاب المثال .
٤ ــ كتاب ذوات الثلاثة .
٥ ــ كتاب ذوات الأ ربعة .
٦ ــ كتاب الهمزة .

وجعل كل كتاب قسمين :

الأول : خاصاً بالأسماء .

الثاني : خاصًا بالأفعال .

وكل قسم منها ينقسم الى أبواب بحسب الأبنية ، وتنقسم هذه الأبواب حسب حروف الهجاء المعروفة (ب ــ ت ــ ث ــ ج ــ ح) حتى الياء ، ولم يذكر الهمزة في الترتيب لأنه أفرد لها باباً خاصاً بها ، كما أنه أخرج حروف العلة لأنه أفرد لها باباً خاصاً من كتاب المثال ، وكتاب ذوات الثلاثة وكتاب ذوات الأربعة[1] .

وإذا كان الناظر في القواميس العربية بحاجة الى أن يتسلح ببعض مبادىء علم الصرف فإن هذه العدة تكون من ألزم اللوازم للناظر في ديوان الأدب للفارابي .

فالفارابي أذن في ديوان الأدب كان يرتب الأبواب داخل كل قسم حسب الحرف الأخير وحسب ترتيبها الأبجدي بادئاً بحرف بالياء ، أي بالكلمات المنتهية بالياء .

وقد طبع هذا الكتاب في أجزاء أربعة ، حققه الأستاذ الدكتور/ أحمد مختار عمر (١٩٧٤ ــ ١٩٧٩) وجعل الجزء الرابع للفهارس ، الفهرس الاول : للمواد اللغوية ، والثاني للشواهد (آيات ، وقراءات قرآنية ، أحاديث وآثار ، أمثال وحكم) ، والثالث : للأعلام ، أما الرابع فللقوافي : أشعار وأراجيز ، أنصاف واجزاء أبيات .

على رغم كل ذلك الجهد لم يذكر الجوهري جهد الرجل ، لم يذكر دور الفارابي وذكر أنه أول مؤلف يطبق هذا النظام تطبيقاً كاملاً في معجم عربي ، وان كان لا يستدعي كل هذا الفخر ، ولعل السبب في ذلك هو أن الجوهري كان فخوراً بطبعه .

(١) مقدمة الصحاح ص ١٨ .

ويروى عنه أنه في آخر حياته عرض له وسوسة فانتقل الى الجامع القديم بنيسابور فصعد سطحه فقال أيها الناس اني قد عملت من الدنيا شيئاً لم أسبق إليه (يقصد الصحاح) وزعم أنه يطير فوقع فمات[1] .

ويظهر أن الفخر مرض معدٍ فقد تعدى صاحبه إلى الأستاذ/ أحمد عبد الغفار عطار محقق الصحاح حيث يقول: «والصحاح أول معجم عربي صحيح يوثق به ثقة علمية، ولا نغالي إذا قلنا: انه أول معجم حقّ عرف في العالم، لأن المعاجم التي عاصرته أو سبقته في الأمم العربية أو غير العربية لم تكن في مستواه العلمي واستيعابه كثيراً من مواد اللغة الصحيحة، وترتيبه ونظامه ودقته وتحريه الصحة»[2] .

وقد يستفيد الأديب عموماً أو الشاعر على وجه خاص من هذا القاموس حيث يجد فيه بغيته في الكلمات المسجوعة أو كلمات القافية، وذلك لأن المواد مرتبة فيه على أساس الحرف الأصلي الأخير في الكلمة، بالطبع بعد حذف الزوائد منها ورد المعل إلى أصله[3] .

وكما تشير تسمية القاموس، كان هدف الجوهري هو تسجيل الكلمات الصحيحة لغوياً فقط، لأنه وجد الناس في عصره يخلطون في استخدام مفردات غير صحيحة من الناحية اللغوية فلم يرتضِ أن يستمر الأمر فوضى على هذا النحو، ومن هنا قرر تنقية اللغة والتمييز بين ما صح وما لم يصح وخصص قاموسه لما صح فقط.

اذاً لم يكن الهدف الاول لصاحبنا الجوهري الحصر أو الإحصاء أو

---

(١) بغية الوعاة/ ١٩٥.

(٢) ص ٢١٢ من مقدمة الصحاح.

(٣) د/ درويش: المعاجم ص ٩١، ٩٣، د/ أحمد مختار: البحث اللغوي صفحات ١٦٢ — ١٨٢ (مقارنة ممتازة بين الفارابي والجوهري)، د/ ابراهيم نجا: المعاجم اللغوية ط ٣ ص ١١.

الاستقصاء كما كانت نية الخليل بن أحمد ومن تلاه ممن اتبعوا نظام التقليبات والترتيب على المخارج.

واستكمالاً لتسجيل الصحيح لغوياً، رأى الجوهري في صحاحه أن يضع تشكيل الكلمات بحروف بدلاً من مجرد العلامات وذلك خشية التصحيف أو التحريف. فهو يقول مثلاً: العباب بالضم، وحين يورد فعلاً مثل كسّر فإنه يتبعه بذكر المصدر تكسير ليفهم من هذا أن الفعل هنا مشدد.

قد نتوقع أن يقابل صنع الجوهري بالاستحسان والتقدير، ولكن مع الأسف نجد أن بعض الباحثين قديماً وحديثاً قد نالوا منه وحاولوا الحط من مكانته والتهوين من جهده وذلك إذ راحوا يعيبون هذا المنهج الانتقائي بأنه قد ترك تسجيل نصف اللغة تقريباً[1]. على كل حال فالمسألة ما تزال معلقة تحتاج إلى من يحسم الأمر فيها علمياً.

وإذا كان الجوهري في صحاحه قد اعتمد في إعطاء معاني المفردات على آراء الخليل بن أحمد في العين، فإنه ليس بدعاً في ذلك، فقد سبقه إلى نفس الصنيع كل من ابن دريد في الجمهرة، والأزهري في تهذيب اللغة، وابن فارس في المجمل والمقاييس. والذي يقارن بين قواميس هؤلاء وما وصلنا من قاموس العين يجد التشابه الكثير، وبصفة خاصة في الجانب الذي يمس معاني مفردات اللغة. وفي ضوء هذه الحقيقة التي نقرها مع الأستاذ الدكتور/ أحمد طاهر حسنين[2] قد يزعم زاعم بأن القواميس العربية لم تتطور حيث اعتمد اللاحق دائماً على جهد سابقيه. ولكن ينبغي الا نغفل هنا عن حقيقة هامة هي فكرة توثيق تراثنا العربي

(١) د/درويش: المعاجم ص ٩٢ وهذا الرأي للفيروزأبادي صاحب القاموس المحيط الذي ينتمي لمدرسة القافية مثل الجوهري.

(٢) د / أحمد طاهر حسنين: نظرية لاكتمال اللغوي عند العرب ص ١٨٤.

وكيف كان القدماء مغرمين بمسألة التوثيق لكل ما يجيئون به ولعل علوم الحديث الشريف وروايتها واسنادها كان لها الفضل في إعطاء التوثيق أهمية كبرى في معظم علومنا العربية وبالذات علوم اللغة.

لقد كان فخراً وإعزازاً للاحق أن يشير إلى أنه استفاد من سابقيه وسار على منوالهم وهذه هي الروح العلمية في أسمى صورها.

كان اللاحق دائماً حريصاً كل الحرص على كينونة ما خلق له السابق في شتى المجالات والعلوم، ليس فقط في المجال الديني في علوم التفسير والحديث والفقه، ولكن أيضاً في العلوم اللغوية ومنها القواميس. آراء السابقين كان لها دائماً صفة القداسة، وكان اللاحق يشعر بمسؤولية تجاه ما سبقه من تراث، فكان يورده أو يقتبس منه، وإن كان ذلك لم يمنع بحال من الإضافة إليه أو التطوير فيه، وهذه المسئولية مسئولية الأجيال في نقل التراث.

نعود لنقول إن شهرة الصحاح وكثرة تداوله بين علماء عصره إلى سهولة منهجه، الذي اتبعه بالنظر إلى النظام المخرجي التقليبي المعقد الذي ساد المعجم العربي الذي سبقه. أما في المادة التي عالجها داخل أبوابه وفصوله فإنه لم يتفوق في معالجتها على من سبقه من أصحاب المعاجم، بل انه أخذ عنهم الشيء الكثير شأنه في ذلك شأن علماء عصره. ونظام القافية كما يظهر من التسمية يعتمد على قافية الكلمة أي الحرف الأخير منها، فالحرف الأصلي الأخير في الكلمة يحدد بابها، والحرف الأول الأصلي يحدد فصلها، ثم ترتب المواد داخل الفصل بناءً على الحرف الثاني. فمثلاً في باب الباء يأتي بالكلمات المنتهية بالباء مثل: (شرب، لعب، نهب، وهب، سلب، أدب، باب، تاب، غاب، عاب، عاتب، شاب، عصب، عذب، عرب.. الخ.) فهذه الكلمات منتهية بباء، لذا فإنها تعالج في باب الباء الذي يأتي بعد باب الهمزة، الذي تعالج فيه المفردات المنتهية

بهمزة ، ثم يأتي بعد باب الباء باب التاء وتعالج فيه كل المفردات المنتهية بتاء ، ثم باب الثاء ، ثم باب الجيم ، وتعالج الكلمات التي آخرها جيم ، وهكذا حتى يصل إلى باب الياء وتذكر فيه الكلمات التي تنتهي بياء أصلية ، أي من أصول الكلمة الثلاثة . فترتيب أبواب الكلمات في الصحاح ترتيب أبجدي فالباب الأول هو باب الهمزة والثاني باب الباء ثم باب التاء ثم باب الثاء ثم باب الجيم حتى يصل إلى باب الياء . ولكن يلاحظ أنه قدم باب الواو على باب الهاء ، فذكر باب الواو أولاً ثم أتى بعده بباب الهاء ثم ختم المعجم بباب الياء .

أما ترتيب الفصول داخل كل باب فيخضع للحرف الأول الأصلي من الكلمة كما أن المفردات داخل الفصول تخضع لترتيب الحرف الثاني ، ففي باب الياء مثلاً يأتي أولاً فصل الهمزة ويذكر فيه الكلمات المنتهية بباء ، والمبدوءة بهمزة من أصل الكلمة .

فلو فرض أنه توجد مفردات مستعملة في اللغة مثل هذه المفردات التي سأذكرها الآن فإنها ترتب هكذا (أ أ ب ، أ ب ب ، أ ت ب ، أ ث ب ، أ ج ب ، أ ح ب ، أ خ ب .. إلى أن يصل إلى أ ي ب) ، وبهذا ينتهي فصل الهمزة ، ثم يذكر بعده باب الباء فصل الباء ، فيأتي بكل كلمة منتهية بباء ومبدوءة ببـاء ، ثم يرتب المفردات داخل الفصل بناء على الحرف الثاني وهكذا .

أما الشيء الثاني في منهجه فهو تخليصه المعاجم العربية من نظام التقليبات ، والذي تعالج فيه المادة وتقليباتها في مكان واحد .

أما الجذرية فقد سار عليها أصحاب المعاجم العربية كلها ومنهم الجوهري في صحاحه ، لهذا اذا أردت أن تكشف عن أي مادة لغوية يجب أن تجردها من كل حروف الزيادة وتأتي بحروفها الأصلية ، كما يجب أن تعرف أصل الألف إذا كانت أصلية ــ فكلمة (سما ، دعا) أصلها (سمو ، دعو) فيكشف عن (سمو) في باب الواو فصل السين ، ويكشف عن (دعو) في باب الواو فصل الدال .

ونجتزيء هنا مثالاً من صحاح الجوهري :

(أبد) تكشف عنها في باب الدال فصل الألف .

الأبد : الدهر والجمع آباد وأبود .

ويقال : أبد أبيد .

كما يقال : دهر داهر، ولا أفعله أبد الأ بيد وأبد الآبدين .

كما يقال : دهر الداهرين ، وعَوضَ العائضين .

والابد أيضاً : الدائم ، والتأبيد : التخليد ، وأبد بالمكان يأبد بالكسر أبودا : أي قام به .

وأبدت البهيمة تأبُد وتأبِد أي توحشت ، والأ وابد ، الوحوش ، والتأبيد : التوحش .

وتأبد المنزل : أي أقفر وألفته الوحوش .

وجاء فلان بآبدة أي بداهية يبقى ذكرها على الابد .

ويقال للشوارد من القوافي : أوابد .

قال الفرزدق :

لن تدركوا كرمي بلؤم أبيكم
وأوابدي بتَنَحُّل الأشعار

وأبد الرجل بالكسر : غضب ، وأبد توحش فهو أبد .

قال أبو ذؤيب :

فافتنَّ بعد تمام الظمء ناجية
مثل الهراوة ثِنْيا بِكْرُها أبِدَ

أي ولدها الأ ول قد توحش معها .

والإبد على وزن الإبل : الولود من أمة أو أتان . وقولهم :

لـن يُـقـلـع الجـدُّ النـكـدْ
إلا بـجـدِ ذي الإبِـد
في كـل مـا عـام تـلـد

والابد ههنا : الأمة ، لأن كونها ولودا حرمان وليس بجد ، أي لا تزداد إلا شراً[1] .

لماذا اختار الجوهري القافية ؟

أما السبب الذي دعا الجوهري أن يرتب معجمه حسب أواخر الكلمات فإن العلماء والباحثين يذكرون لذلك سببين :

ـــ التيسير على الشعراء والكتاب ، فإن صاحب الصحاح عاش في عصر غلبت فيه الزخرفة اللغوية ، وتسابق الكتاب والشعراء إلى تزيين نثرهم وشعرهم ، فالكتاب محتاجون إلى الكلمات المنتهية بحرف واحد ليختموا جملهم بسجع يزينون به كلامهم . والشعراء أحوج من الكتاب إلى هذه الكلمات لقوافي قصائدهم .

ـــ ان التغيير الذي يلحق الكلمات بالزيادة والنقص ، إنما يلحق أوائل الكلمات غالباً ولا يتعرض لأواخرها إلا لماما .

ولنوجز الآن مميزات الصحاح :

مميزات الصحاح .

ـــ استغنى نهائياً عن نظام الخليل في ترتيب الأبواب ، ذلك النظام الذي يقوم على التقليب وعلى ترتيب الحروف حسب مخارجها وخلص المعاجم العربية من ذلك النظام الذي استمر ما يقرب من ثلاثة قرون وقد شرحنا ذلك تفصيلاً .

---

(١) الجوهري : الصحاح جـ ١ ص ٤٣٦ بتحقيق الاستاذ/ أحمد عبد الغفور عطار ، القاهرة ١٩٥٦ (في أجزاء) .

ــ حرص إسماعيل بن حماد (الجوهري) المتوفى حوالي ٤٠٠ هـ أو ٣٩٨ هـ صاحب الصحاح، حرص على تفادي التحريف والتصحيف في معجمه، فاخترع طريقة الضبط بالكلمات فيقول «العُباب» بالضم ويقصد طبعاً حرف العين فهو مجال للشك في حركته أما باقي الكلمة فمعروف ضبطه وقد أشرنا إلى ذلك من قبل.

ــ إلتزامه في غالبية معجمه الصحيح واشاراته إلى الضعيف والمهمل من الألفاظ غير المشهورة، واشاراته أيضاً إلى المعرب من الألفاظ.

ما يؤخذ على الصحاح.

أما أهم ما يؤخذ على الجوهري:

ــ التصحيف والتحريف الذي يملأ صحاحه رغم حرصه على تفاديه فهو يصحف الشعر والمواد اللغوية والأعلام ويحرّف في كل هؤلاء أيضاً، من ذلك أنه أنشد:

عـــاثـــور شر عـــاثـــور (دبـدبـة) الخـيـل على الجـسـور

فقال التبريزي: الصواب «دندنة» بنونين، وهو أن تسمع من الرجل نغمة ولا تفهم ما يقول. ومنه الحديث الشريف: «لا أحسن دندنتك، ولا دندنة معاذ»[1].

ــ إهمال الجوهري لبعض الصيغ والمواد اللغوية بحجة أنها غير صحيحة أو مهملة حتى قال الفيروزابادي صاحب «القاموس المحيط» في مقدمته عن الجوهري وصحاحه: «ترك ثلثي اللغة أو أكثر إما بإهماله المادة، أو بترك المعاني الغريبة الشاذة».

(١) المعجم العربي ص ٤٦٦.

ـ خطأ الجوهري في وضع بعض المواد في غير مواضعها الأصلية ، من ذلك وضعه « الشيب » في (ث و ب) ، مع أن مكانها الصحيح هو (ث ي ب) .

وبعد ، فقد خطا الجوهري في الصحاح بحركة المعاجم خطوة كبيرة إلى الأمام في سبيل نظام ميسر على الباحثين . وقد اشتهر صحاح الجوهري شهرة واسعة وقام على دراسته كثير من العلماء الاجلاء بعضهم قام باختصاره والبعض قام بعمل كتب في تكملته ، والآخرون قاموا بنقده أو بعمل تعليقات مفيدة عليه أو على شواهده[1] .

وأهم الكتب التي اختصرته كتاب « تهذيب الصحاح » للعالم الجليل / محمود بن أحمد أبو المناقب وشهرته (الزنجاني) ، وهو من علماء القرن السابع الهجري توفي ٦٥٦ هـ ويقال إن له كتاباً بعنوان : (تنقيح الصحاح) .

و (مختار الصحاح) هو أشهر مختصرات الصحاح على الأطلاق ، وطبع عدة مرات ، وهو للشيخ الإمام / محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي ، وكان آخر طبعاته طبعة وزارة المعارف المصرية (وزارة التعليم الآن) ، فغيرت نظامه من نظام القافية إلى النظام الأبجدي العادي ، وذلك ليسهل على النشء في المدارس . وسنعود للحديث عن مختار الصحاح بعد قليل .

ويقال ان شهرة الصحاح للجوهري تتعدى حدود العربية إلى غيرها من اللغات الأخرى فنقله كثير من العلماء إلى اللغة الفارسية والتركية ، كما استعان به جوليوس (ت ١٦٦٧ م) عندما ألف معجمه العربي / اللاتيني ، أدرج معجم مادة الصحاح في معجمه .

(١) لمزيد من التفصيل في ذلك انظر « مقدمة الصحاح » ص ١٥٤ وكذلك ، المعجم العربي جـ ٢ ص ٤٦٩ .

مختار الصحاح .

يذهب محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي إلى أن مختاره الصحاح هو مختصر في علم اللغة جمعه من كتاب الصحاح للإمام العالم العلامة أبي نصر إسماعيل بن حماد الجوهري ، وذلك لأنه رآه أحسن أصول اللغة ترتيباً ، وأوفرها تهذيباً ، وأسهلها تناولاً وأكثرها تداولاً وسماه (مختار الصحاح) ، واقتصر فيه على ما لا بد لكل عالم فقيه ، أو حافظ ، أو محدث ، أو أديب من معرفته وحفظه : لكثرة استعماله وجريانه على الألسن مما هو الأهم فالأهم خصوصاً ألفاظ القرآن العزيز والأحاديث النبوية ، واجتنب فيه عويص اللغة وغريبها طلباً للاختصار وتسهيلاً للحفظ . وضم إليه فوائد كثيرة من تهذيب اللغة للأزهري وغيره من أصول اللغة الموثوق بها .

كما يقرر الرازي أنه زاد على مختاره ما أهمله الجوهري[1] .

ويجيء الاستاذ/محمود خاطر ليعتني بترتيب المختار ، وكان هذا الكتاب قد ضبطه صاحب الفضيلة العالم الجليل الشيخ/حمزة فتح الله المفتش الأول للغة العربية بوزارة المعارف العمومية سابقاً ، كما عني بتصحيح نسخه وتنقيحها وإكمال ضبطها وتعليق بعض حواشيها الأستاذ أحمد العوامري المفتش الأول للغة العربية سابقاً (١٣٣٥ هـ ــ ١٩١٦ م) .

وقد قررت وزارة المعارف العمومية في ٢٥ شعبان سنة ١٣٢٢ هـ (٣ نوفمبر سنة ١٩٠٤) طبع مختار الصحاح على نفقتها الخاصة واستعماله بالمدارس الأميرية .

يقول الأستاذ خاطر في مقدمته لمختار الصحاح : ان مختار الصحاح قد جمع من مفردات هذه اللغة العربية الشريفة وقيودها ما ترمي إليه حاجة المبتدئين في طلب العلم وتحصيله ...

---

(١) عن مقدمة مختار الصحاح للرازي / الطبعة الأولى / القاهرة ص ٣ .

ثم يشيد الأستاذ خاطر بالمختار وصاحبه ويؤكد انه أفضل إختصار للصحاح ، ويفوق ما فعله الزنجاني وابن الصائغ الدمشقي وغيرهما من كبار العلماء .

ويذكر بعد ذلك صعوبة منهج الصحاح نفسه على النشء ، فعلى من يتصدى للكشف فيه أن يكون متدبراً للصرف والاشتقاق ليقتدر رد بعض الكلم إلى بعض وبالتالي يصعب بل يتعذر استخدام المختار بطريقة الصحاح للمبتدئين .

ذلك بالاضافة إلى التحريف والتصحيف الذي لحق صور المختار ومن هنا كان رثاء حسين فخري (باشا) ناظر المعارف ويعقوب أرتين وكيلها لحاله فاستقر رأيهما على إعادة طبعه بنفقة المعارف وعهدا في تصحيحه وضبطه إلى العالم الثقة اللغوي الشيخ حمزة فتح الله حتى تستتم الفائدة من الكتاب ويسهل على الطلبة تناوله فرأى أن يكون على اعتبار الحرفين الاول والثاني كما هو ترتيب المصباح المنير للإمام الفيومي[1] وان ترد كل مادة إلى مشتقاتها التي يصعب على الطالب ردها إليها مع حذف ما لا ينبغي أن يطرق مسامع النشء بشرط المحافظة على أصل الكتاب ..

ويقع (مختار الصحاح) في طبعة وزارة المعارف في حوالي ٧٥٠ صفحة من القطع الكبير .

وفي ختام بحثنا هذا عن كتاب الصحاح للجوهري نقول ان أول طبعة لكتاب الجوهري « تاج اللغة وصحاح العربية » ظهرت سنة ١٢٨٢ هـ (١٨٦٥ م) .

وفي سنة ١٢٨٧ هـ (١٨٧٠ م) ظهرت أول طبعة من كتاب الرازي « مختار الصحاح » .

---

(١) توفي الفيومي (أحمد بن محمد المقري أبو العباس) سنة ٧٧٠ هـ بحماة السورية وهو صاحب (المصباح المنير) وهو معجم مختصر لكتاب مؤلفه عن غريب شرح الوجيز للغزالي ، مرتب على حروف المعجم بحسب أوائل الكلمات وثانيها وثالثها .

ابن منظور
وموسوعة لسان العرب

نلتقي في هذه الدراسة مع اشهر معاجم مدرسة القافية في تاريخنا اللغوي، بل أدقها، وأضخمها على الاطلاق:

وهو أكثر المعاجم حجماً، إذ تبلغ نسخه المطبوعة عشرين جزءاً من القطع الكبير، ولهذا فهو يعد موسوعة شاملة بمعنى الكلمة.

هو جمال الدين محمد بن مكرم بن علي بن منظور الإفريقي المصري أو أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور المصري الأنصاري الخزرجي[1].

كان مولده بمصر (وقيل في طرابلس الليبية) سنة ٦٣٠ هـ، وعمل في ديوان الإنشاء بالقاهرة المملوكية، ثم ولي القضاء في طرابلس، وعاد الى مصر وتوفي بها سنة ٧١١ هـ.

وكان كثير التصنيف والجمع، واعتنى عناية كبيرة باختصار كتب الأدب والتاريخ المطولة وقد ترك بخطه من مختصرات خمسمائة مجلد. ويعتبر معجم «لسان العرب» أهم أعماله جميعاً، بل أجمعها، وأعظمها. ولمزيد من المعلومات عن الرجل أحيل القارىء الى مقدمة (لسان العرب) والى ما كتبه الاستاذ محمود مصطفى[2].

يعد لسان العرب القمة التي وصلتها المدرسة الثانية في المعاجم العربية مدرسة القافية، فهو موسوعة ضخمة يجمع اكثر من ثمانين ألف مادة لغوية، ويستشهد بآلاف الابيات من الشعر العربي، والسبب في ذلك أنه جمع من المعاجم التي

(١) يكفينا من ترجمته في هذا المقام أنه ولد عام ٦٣٠ هـ وتوفي ٧١١ هـ في مصر.
(٢) الأدب العربي وتاريخه ١/١٩١).

سبقته اشياء كثيرة، وينص في مقدمته على أنه أعجب بتهذيب اللغة لأ بي منصور محمد بن أحمد الأزهري، وبالمحكم لابن سيدة الأندلسي، ويقول إنهما من أمهات كتب اللغة على التحقيق وما عداهما بالنسبة إليهما ثنيّات للطريق.

قلنا ان ابن منظور الافريقي كان شديد الإعجاب بالازهري صاحب تهذيب اللغة وابن سيدة صاحب المحكم وبالتالي كنا نتوقع منه ان يسير على منهجهما وترتيبهما، ولكن يعلل عدم سيره على طريقهما بأن كلا منهما عسير المنهل وعر المسلك وكأن واضعه شرع للناس مورداً عذبا وجلاهم عنه وارتاد لهم مرعى مربعاً ومنهم من قد أخر وقدم وقصد أن يُعرب فأعجم فرّق الذهن بين الثنائي والمضاعف والمقلوب وبدد الفكر باللفيف والمعتل والرباعي والخماسي فضاع المطلوب فأهمل الناس امرهما وانصرفوا عنهما.. وليس لذلك سبب الا سوء الترتيب وتخليط التفصيل والتبويب.

ثم يذكر ابن منظور اعجابه بترتيب الجوهري في الصحاح قائلاً: ورأيت أبا نصر اسماعيل بن حماد الجوهري قد أحسن ترتيب مختصره وشهرته بسهولة وضعه.. فخفف على الناس أمره فتناولوه.. غير أنه في جو اللغة كالذرة وفي بحرها كالقطرة وان كان في نجرها كالدرّة، وهو مع ذلك قد صحف وحرف وجزف فيما صرف.

ويقول عن ترتيبه في لسان العرب انه رتبه ترتيب صحاح الجوهري في الأ بواب والفصول وقصد توشيحه بجليل الأخبار وجميل الآثار مضافاً الى ما فيه من آيات القرآن الكريم.

واذا سألنا ابن منظور عن السبب في ضخامة معجمه بهذا الشكل الملحوظ أجاب الرجل في مقدمة معجمه بأنه نقل عمن سبقه من العلماء ولم يستغن عنهم كما فعل بعض السابقين ولعله يقصد بذلك الجوهري الذي اختصر كلام السابقين له وبذلك صارت الفوائد في كتبهم — كما يقول ابن منظور — مفرقة.. ولكن

جمع منها في اللسان ما تفرق وقرن بين ما غرب منها وبين ما شرق فانتظم شمل تلك الأصول كلها في هذا المجموع وصار هذا بمنزلة الأصل واولئك بمنزلة الفرع .

واذا اردنا أن نميز بين لسان العرب وبين صحاح الجوهري فنلمح امرين اساسيين :

الأمر الأول : ان ابن منظور أورد اسماء العديد من الرواة الذين اقتبس منهم مادته اللغوية ولم يقتصر على امثال الخليل بن أحمد صاحب موسوعة العين وأبي عمرو الشيباني (٩٤ هـ ــ ٢٠٦ هـ) صاحب الحروف وغريب الحديث والكتابات المتعددة في النحلة والابل والخيل والنوادر وخلق الانسان ، وابن فارس (٣٢٩ هـ ــ ٣٩٥ هـ) صاحب مقاييس اللغة والمجمل والصاحب والفصيح وفقه اللغة ، وابن سيدة (٣٩٨ هـ ــ ٤٥٨ هـ) صاحب المحكم والمحيط الاعظم والمخصص وشرح المشكل من شعر المتنبي وغيرهم من اللغويين ، ولكن اورد ايضاً نقولا عن علماء النحو والحديث والفقه .

الأمر الثاني : ان ابن منظور لم يقتصر على الصحيح فقط كما فعل الجوهري (ت ٣٩٣ هـ) ، بل سجل كل مفردات العربية قدر الإمكان ــ ولهذا فقد جاء قاموس لسان العرب ليحوي ٨٠ ألف مادة اساسية ، عدا ما يشتق من كل منها مما يفوق الحصر ويصعب على العد الا بتوظيف الحاسب الآلي لهذا الأمر وذلك ما نترك لعلمائنا الأجلاء ــ ومن هذه الناحية فإن لسان العرب يتشابه مع كل من تهذيب اللغة للازهري والمحكم لابن سيدة ، وان كان يفوقهما من ناحية الكم[1] .

وفيما يلي سوف أورد إحدى مواد « اللسان » لتتبين منها طريقة عرض المادة عند ابن منظور الافريقي :

(أبد) الأ بد : الدهر ، والجمع آباد وأبود ، وفي حديث الحج قال سُراقة بن

---

(١) د . / نصار : المعجم جـ ٢ ص ٥٤٤ .

مالك : أرأيت متعتنا هذه ألعامنا أم للابد ؟ فقال : بل هي لابد . وفي رواية : ألعامنا هذا أم لابد ؟ فقال : بل لابدِ أبدٍ .

وفي أخرى : بل لأ بد الابد ، أي هي لآخر الدهر .

وأبدٌ أبيد كقولهم : دهر دهير ، ولا أفعل ذلك أبد الأ بيد وأبد الآباد وأبد الدهر وأبيد الأ بيد وابد الابدية . وأبد الآبدين ليس على النسب ، لان لو كان كذلك لكانوا خلقاء أن يقولوا الابديين .

قال ابن سيده : ولم نسمعه . قال : وعندي أنه جمع الأ بد بالواو والنون على التشنيع والتعظيم ، كما قالوا : أرضون ، وقولهم : لا أفعله أبد الآبدين ، كما نقول : دهر الداهرين ، وعوض العائضين . وقالوا في المثل : طال الأ بد على لبد (بضم اللام وفتح الباء) ، يضرب ذلك لكل ما قدُم . والأ بد : الدائم ، والتأبيد : التخليد .

وأبد بالمكان يأبد بالكسر أبودا : أقام به ولم يبرحه ... وأبدت البهيمة تأبُد : توحشت .. والتأبد : التوحش . قال أبو ذؤيب :

فافتن بعد تمام الظِمء ناجيةً مثل الهراوة ثنياً بكرُها أبِدُ

أي ولدها الأ ول قد توحش معها .

الاوابد الأ بد : الوحش . الذكر : آبد ، الأنثى : آبدة ، وقيل سميت بذلك لبقائها على الأ بد .

ويستمر ابن منظور في عرض بقية هذه المادة مورداً آراء كل من الأصمعي (١٢٢ هـ ــ ٢١٦ هـ) ، ورافع بن خُديج ، ويورد بيت لبيد بن ربيعة في أول معلقته ، ثم يورد حديث أم زرع ، ويورد كذلك بيت الفرذدق :

لن تدركوا كرمي بلؤم أبيكم وأوابدي بتنحُّل الأشعار

ويقال للكلمة الوحشية آبدة، وجمعها الأوابد.

ويستمر ابن منظور الافريقي صاحب موسوعة لسان العرب في النقل عن ابن شميل، وأبي منصور، وأبي مالك، والجوهري.

وينهي تقديمه لهذه المادة بقوله: وقف فلان أرضه وقفاً مؤبداً إذا جعلها حبيساً لا تباع ولا تورث.

كان ذلك في لسان العرب لابن منظور، الجزء الأول ص ٤ وعلى القارىء مقارنة هذه المادة بما جاء في نفس المادة في صحاح الجوهري جـ١ ص ٤٣٦.

نعود لنقول: ان الرجل في لسان العرب لم يخالف الجوهري في الترتيب ــ كما يقول ــ الاّ في تقديمه تفسير الحروف المقطعة التي وردت في أوائل سور القرآن العزيز، وكان الجوهري قد أخرها الى آخر معجمه الصحاح، ويعلل ابن منظور ذلك بسببين هما:

١ ــ التبرك بتقديم كلام الله تعالى الخاص به الذي لم يشاركه أحد فيه الا من تبرك بالنطق به في تلاوته.

٢ ــ انه اذا كانت في أول الكتاب كانت أقرب الى كل من طالع من آخره، لأن العادة أن يطالع أول الكتاب ليكشف منه ترتيبه وغرض مصنفه، وقد لا يتهيأ للمطالع أن يكشف آخره.

كما أنه يخالف الجوهري بل وكل من سبقه من أصحاب المعاجم في أنه يصدر بعض ابوابه عن الحرف المقصود له الباب يذكر فيها مخرجه وأنواعه وخلاف النحويين فيه.

واعتمد ابن منظور في لسان العرب على ستة مراجع أساسية هي:

١ ــ تهذيب اللغة للازهري محمد بن أحمد الهروي أبي منصور (٢٨٢ هـ ــ

٣٧٠ هـ) والذي أعجب به في مقدمته اللسان.

٢ ـ الصحاح للجوهري: إسماعيل بن حماد ابو نصر (ت ٣٩٣ هـ) وهو الرجل الذي اشاد به أعظم اشادة في افتتاحية اللسان.

٣ ـ المحكم لابن سيدة: علي بن اسماعيل ابو الحسن (٣٩٨ هـ ـ ٤٥٨ هـ).

٤ ـ النهاية لابن الأثير: (٥٤٤ هـ ـ ٦٠٦ هـ) ونقصد به «النهاية في غريب الحديث والأثر» لأبي السعادات مجد الدين المبارك بن محمد[١] بن محمد بن عبد الكريم بن الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري.

٥ ـ حواشي ابن[٢] بري وله كتاب: التنبيه والإيضاح وقد حققه الاستاذ/ مصطفى حجازي وطبع بالقاهرة ١٩٨١ م ـ وقد اشار ابن بري الى وجود تصحيف وتحريف في صحاح الجوهري وهو نفس الكلام الذي قاله ابن منظور في مقدمة لسان العرب.

٦ ـ جمهرة ابن دريد البصري: ابن دريد محمد بن الحسن الازدي ابو بكر ولد ٢٢٣ هـ وتوفي ٣٢١ هـ كتب الجمهرة والاشتقاق والملاحن والسرج واللجام، والمطر والسحاب، واللغات .. الخ.

ـ طبع لسان العرب للمرة الأولى في عشرين مجلداً بالمطبعة الأميرية من سنة ١٢٩٩ ـ ١٣٠٨ هـ، ثم أعيد تصويره مرة أخرى في بيروت سنة ١٩٥٥ م[٣].

---

(١) هناك ابن الاثير مجد الدين مبارك بن محمد الجزري، وابن الاثير محمد بن نصر الله الشيباني المولود ٥٨٥ هـ والمتوفى ٦٢٢ هـ، كتب في نعت الفواكه والثمار اما صاحب «غريب الحديث» فكتب النهاية والاثر على حروف المعجم وغيره.

(٢) اسمه عبدالله بن محمد المقدسي ابو محمد ولد ٤٩٩ هـ وتوفي ٥٨٢ هـ كتب حواشي على الصحاح، وحواشي على درة الغواص.

(٣) اول طبعة لكتاب لسان العرب ظهرت سنة ١٣٠٠ هـ (١٨٨٢ م) كما يذهب د. عدنان الخطيب في كتابه: (المعجم العربي) ٤٠.

كما صدرت منه طبعة جديدة محققه ومشكولة شكلاً كاملاً ومذيلة بفهارس مفصلة ، وقد توفر عليها الاساتذة : عبدالله الكبير ، محمد أحمد حسب الله ، هاشم محمد الشاذلي ، وسيد رمضان أحمد . وقد أعادوا الترتيب وفق ترتيب كتاب اساس البلاغة للزمخشري ، والمصباح المنير للشيخ الفيومي وهذه الطبعة تقع في ستة أجزاء القاهرة ١٩٨١ م .

الفيروزأبادي

من البحر الأعظم

كان القاموس

المحيط

الرجل الذي معنا من أعلام القرن التاسع كان مولده ٧٢٩ هـ ووفاته ٨١٧ هـ.

اسمه محمد بن يعقوب. الإمام أبو الطاهر مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزأبادي الشيرازي.

ولد بكازرون من أعمال شيراز، وانتقل الى العراق. وجال في مصر والشام، ودخل بلاد الروم والهند، ورحل الى زبيد اليمنية وهي مسقط رأس الزبيدي صاحب «تاج العروس من جواهر القاموس»، كان رحيله لزُبيد سنة ٧٩٧ هـ فأكرمه ملكها الأشرف إسماعيل بن عباس الرسولي وقرأ عليه، فسكنها وولي قضاءها، وانتشر اسمه في الآفاق، حتى كان مرجع عصره في اللغة والحديث والتفسير.

وألف العديد من الكتب منها: القاموس المحيط، والجليس، والبلغة، وتحبير الموشين، والمثلث، واللامع، والمعين والاشارات. كانت وفاته بمدينة زبيد اليمنية.

والقاموس المحيط من المعاجم اللغوية الهامة. رتبه المؤلف حسب أواخر الكلمات باعتبار الباب والفصل، وضمنه ما في كتابي:

١ ــ «العباب» للصاغاني الحسن بن محمد العمري المولود ٥٥٧ هـ، المتوفى ٦٥٠ هـ ببغداد وليس ٥٥٧ هـ كما يقول البعض ــ وللصاغاني عدة مؤلفات منها «مجمع البحرين» ــ التكملة والذيل ــ الشوارد في اللغات ــ الأضداد. والعباب معجم جمع الصاغاني فيه ما تمكن من جمعه ملتزماً خط الجوهري في صحاحه. (ما زال مخطوطاً قدر علمي).

٢ ــ « المحكم والمحيط الأعظم » لابن سيدة الذي أخذ نظام الخليل في ترتيبه ونظام المقلوبات وجعل لكل حرف كتاباً وقسم كل كتاب الى ابواب للثنائي والمضاعف والصحيح والثلاثي الصحيح وللثنائي المضاعف المعتل وللثلاثي المعتل وللثلاثي اللفيف وللرباعي ثم الخماسي ــ وقام بتحقيقه كل من الأستاذ / مصطفى السقا ، و د . حسين نصار وآخرين في خمسة أجزاء بالقاهرة .

وأضاف الى ذلك زيادات مما في الكتب المهمة .

وقد عني المؤلف عناية خاصة بتتبع مادة « كتاب الصحاح » للجوهري ونقدها ورد عليها ، واستدرك ما فاته أو أهمله .

ومن أهم مميزات هذا المعجم :

١ ــ فصل معاني كل صيغة من زميلتها في الاشتقاق .
٢ ــ تقديم الصيغ المجردة على المزيدة .
٣ ــ ذكر الاعلام اشخاصاً كانوا أو قبائل أو مواضع في آخر كل مادة .
٤ ــ الايجاز في إيراد المادة اللغوية بحذف الشواهد على اختلاف أنواعها .
٥ ــ حذف اسماء اللغويين والرواة الذين تروى عنهم الصيغ والمعاني .

ويعتبر الفيروزأبادي أول من سمي معجمه « القاموس » ومعناه البحر أو البحر العظيم ، وبمرور الوقت صارت كلمة « قاموس » مرادفة لكلمة « معجم » وأصبحت تستخدم بديلاً عنها .

وطبع القاموس في ٤ اجزاء بالقاهرة عن المطبعة الخاصة بالمكتبة التجارية الكبرى ، ١٩٤٨ ثم أعيد طبعه أكثر من مرة في بيروت والقاهرة ، وشرحه الزبيدي اليمني المتوفى ١٢٠٥ هـ في تاج العروس .

وقاموس الفيروزابادي يعد أوسع المعاجم انتشاراً ، ربما لانه قاموس عملي

بالدرجة الأولى حيث اقتصر على إيراد الكلمات ومعانيها المختلفة دون إضاعة الجهد في الإشارة الى الرواة وإيراد الشواهد المتعددة.

والكاشف في هذا القاموس عليه أن يكون على بينة من الرموز التي استخدمها الفيروزابادي وهي:

م = معروف، ع = موضع، ج = جمع، هـ = قرية، د = بلد، وقد أوضح الفيروز أبادي ذلك في مقدمته للقاموس ونظم تلك الرموز في بيتين من الشعر:

وما فيه من رمز فخمسة أحرف فميم لمعروف وعين لموضع

وجيم لجمع ثم هاء لقرية وللبلد الدال التي أهملت فع

وهو ينبه الى التشكيل الداخلي ليس فقط بوضع فتحة أو كسرة بل يقول ايضاً كلمة كذا بالفتح.

ونظراً لأهمية القاموس المحيط فقد قام بعض الباحثين بمحاولات هدفها تيسيره أكثر أو استكماله بصورة أدق.

ومن هذه المحاولات: محاولة الاستاذ/الطاهر أحمد الزواوي بإعادة ترتيب القاموس المحيط على طريقة المصباح المنير للفيومي واساس البلاغة لجار الله الزمخشري. ونشر ذلك في اربعة أجزاء (الطبعة الثانية لعمل الاستاذ الزواوي. القاهرة ١٩٧١ــ١٩٧٣).

أما المحاولة الأقدم والأهم فهي تلك المحاولة التي قام بها السيد/محمد مرتضى الحسيني (الزبيدي) الذي ألف قاموساً اسماه: تاج العروس من جواهر القاموس. وقد صدر منه حتى كتابة هذه السطور ٢١ جزءاً، طبعت جميعها بالكويت. وقام بتحقيقها الاستاذ/عبد الستار أحمد فرج وآخرون.

وليسمح لنا القارىء أن نقتطع هنا مثالاً لطريقة عرض المادة في القاموس

المحيط وهي كلمة (أبد) ونجدها في الجزء الأول من القاموس المحيط في باب الدال فصل الهمزة[1] (الأبد) محركة: الدهر (ج) آباد وأبود، والدائم والقديم الأزلي، والولد الذي أتت عليه سنة ولا آتيه أبد الابدية وابد الابدين، وابد الآبدين كأرضين. وأبد الدهر: محركة، وأبد الابيد، وأبد الآباد، وأبد الدهر، وأبيد الابيد: بمعنى.

والاوابد: الوحوش لأنها لم تمت حتف أنفها كالابد، والدواهي، والقوافي الشرد. وأبد كفرح: غضب وتوحش، وأتان وأمة إبد كإبل وكتف وقِنو ولود، والإبد بكسرتين: الأمة والأتان المتوحشة، والإبدان: الأمة والفرس، وناقة آبدة: ولود، والابيد: نبات، وابدة كقبرة (د) بالأندلس، ومأبد كمسجد (ع)، وغلط الجوهري فذكره في م ي د. وتصحف عليه في الشعر الذي أنشده أيضاً، وتأبد: توحش، والمنزل: اقفر، والوجه: كلف، والرجل: طالت غربته وقل أربه في النساء، وأبدت البهيمة: تأبد وتأبد: توحشت، وبالمكان: يأبد أبودا: أقام، والشاعر: أتى بالعويص في شعره وما لا يعرف معناه الداهية وناقة مؤبدة إذا كانت وحشية معتاصة، والتأبيد: التخليد، والآبدة: الداهية يبقى ذكرها أبداً.

ــ ونعود الى القاموس المحيط لنجد ان اسمه بالكامل في بعض النسخ «القاموس المحيط، والقاموس الوسيط» ويعلل تسميته القاموس المحيط، بأنه البحر الأعظم، رغم مناقضة هذا لقوله بأنه ألف اولاً معجماً ضخماً سماه «اللامع» في ستين سفراً، ثم اختصره وألف القاموس محذوف الشواهد مطروح الزوائد، ولخص كل ثلاثين سفراً من اللامع في سفر واحد.

ويسير صاحب القاموس على نمط الصحاح للجوهري، ولسان العرب لابن منظور، فالحرف الأخير من الكلمة يحدد الباب، كما يحدد الحرف الأول منها الفصل. والحرف الثاني يحدد ترتيب الكلمة داخل الفصل.

---

(١) الجزء الأول من القاموس المحيط جـ ١ ص ٢٨٢، ٢٨٣.

هذا منهجه العام ، ولكن يضع في مقدمته بعض المبادىء فيقول :

ــ ومن أحسن ما اختص به هذا الكتاب تخليص الواو من الياء ، وذلك قسم يسمه المصنفون بالعيّ والاعياء ، أي أنه يرجع الناقص الى أصله الواوي أو اليائي ، فيذكر (دعا) في باب الواو، و(سعى) مع الياء .

ــ ذكر مؤنث الكلمة بعد مذكرها مباشرة يقول « ومن بديع اختصاره وحسن ترصيع تقصاره انني اذا ذكرت صيغة المذكر اتبعتها المؤنث بقولي وهي بهاء ، ولا أعيد الصيغة » .

ــ اكتفاؤه ببعض الرموز استعاضة عن ذكر اللفظ وقد اشرنا إليها .

ــ ذكره لما أهمله الجوهري في صحاحه : لذلك يقول : لما رأيت إقبال الناس على صحاح الجوهري وهو جدير بذلك غير أنه فات نصف اللغة أو أكثر اما باهمال المادة ، أو بترك المعاني العربية النادرة ، أردت أن يظهر للناظر بادىء بدء فضل كتابي هذا عليه ، فكتبت بالحمرة المادة المهملة فيه .

ــ حذفه اسماء الرواة واللغويين وأبيات الشواهد التي كانت تملأ معاجم الذين سبقوه ، لذا جاء هذا المعجم موجزاً بالنسبة الى ما سبق من المعاجم العربية الاخرى وقد اشرنا لذلك .

ومما يؤخذ على القاموس المحيط :

ــ عدم أشارته الى الضعيف والمتروك والمذموم من اللغات .

ــ عدم تمييزه الواوي من اليائي من كثير من المواد المعتلة .

وكما قلنا فقد قامت دراسات كثيرة جداً على هذا الكتاب الهام من أهمها « القول المأنوس في صفات القاموس » لمحمد سعد الله وقد طبع بالهند

سنة١٢٨٧ هـ، وفيه يشرح مؤلفه بعض ما غمص من عبارات القاموس ، وكتاب التكملة لأبي الفيض مرتضى الحسيني الزبيدي ثم كتاب احمد فارس الشدياق توفي عام (١٣٠٥ هـ ــ ١٨٨٧ م) ويسمى « الجاسوس على القاموس » ، وحاول الشدياق في هذا الكتاب أن ينقد المعاجم العربية عامة فاختار أكثرها شهرة وتداولا وهو القاموس المحيط للفيروزابادي .

الزبيدي اليمني :

اليمن تتوج

القاموس المحيط

أخرج الإمام اللغوي محب الدين أبو الفيض السيد/محمد مرتضى الحسيني الواسطي الزبيدي (بالفتح والتشديد للزاي) اليمني المتوفى عام ١٢٠٥ هـ بمصر معجمه «تاج العروس من جواهر القاموس» شرحاً للقاموس المحيط للفيروزابادي. وفي تاج العروس أراد الزبيدي اليمني أن يشرح للناس ما غمض من عبارات القاموس، ويوضح ما غاب عن أذهان الناس من معانيه. لذا فقد كان يرمي في كتابه تحقيق القاموس تحقيقاً علمياً وشرحه، بعد أن اختلف فيه الشارحون والمعترضون.

ويسير الزبيدي اليمني في «تاج العروس» على نظام القاموس المحيط، ولكنه يفصل بين كلامه وكلام القاموس فيذكر عبارة القاموس بين قوسين، أما شروحه وتفسيراته فيوردها خارج الأقواس محاولاً الملاءمة بين ما يقوله وبين ما يقول صاحب القاموس.

كان مولده سنة ١١٤٠ هـ، وأصله من واسط العراقية، وكان مولده بالهند أما منشؤه ففي زبيد اليمنية. رحل إلى الحجاز وأقام بمصر، فاشتهر فضله، وكاتبه ملوك الحجاز والهند والجزائر، وفي كل هذه البلاد التقى بعلمائها فأخذ عنهم وأخذوا عنه. والمتتبع لسيرة الزبيدي اليمني يجد أنه كان حريصاً على جمع الفنون التي أغفلها المتأخرون، كعلم الأنساب والأسانيد وتخاريج الأحاديث واتصال طرائق المحدثين المتأخرين بالمتقدمين، فأحيا في عصره ما كاد يندرس من علوم الرواية والدراية واملاء الحديث، وذكر الاسانيد والرواة والمخرجين، مما أعاد لهذه العلوم مجدها وقيمتها.

ومن أهم مؤلفات الزبيدي اليمني كتاباه:

ـ اتحاف السادة المتقين في شرح إحياء علوم الدين (للغزالي) طبع في عشرة مجلدات ضخام.

ـ كتاب «تاج العروس في شرح جواهر القاموس».

وكان سبب تأليف اليمني للتاج، ما رآه من إيجاز «القاموس» وغموضه، مع شموله وكثرة استعماله، فأراد الزبيدي أن يوضحه، فوضع شرحه عليه، وأورد فيه جميع مادة القاموس وشرحها شرحاً واضحاً، وحققها تحقيقاً علمياً، وأضاف إليه شواهد ونسبها إلى قائليها، وضمن شرحه ما تفرق في كتب اللغة، ورجع إلى كثير من المراجع في علوم اللغة والنحو والصرف والأدب والأمثال والتاريخ والطبقات والأنساب والسير وعلوم القرآن والجغرافية والحيوان والنبات والسياسة وغير ذلك مما بلغ عددها ١٢٠ كتاباً من أمهات الكتب كما ذكر في مقدمة التاج.

ويمتاز تاج العروس بأنه كتاب جامع لما سبقه من معاجم، وبخاصة «لسان العرب» كما أنه ينفرد بما يورده في آخر كل مادة مستدركاً على ما فات الفيروزابادي صاحب القاموس، مما جاء في كتابي الإمام رضى الدين الصاغاني (الحسن بن محمد العمري) المولود ٥٥٧ هـ، المتوفى ٦٥٠ هـ، وهما «العباب» و «التكملة» اللذان يعتبران من أهم المعاجم اللغوية التي لا تزال مخطوطة، كما أنه يمتاز بالعناية بالأعلام والأماكن والبلدان، والاكثار من الفوائد الطبية والمصطلحات العلمية والدقة في الضبط والالتفات إلى الغريب والمولد والأعجمي والعامي من الألفاظ، وقد ساعده على ذلك معرفته باللغتين الهندية والفارسية، فجاء معجمه هذا أقرب ما يكون إلى دائرة المعارف الموسعة وقد طبع «التاج» في القاهرة طبعة كاملة في مجلدات عشرة.

القاموس بين اوروبا
والجاسوس

« القاموس » و « الجاسوس » .

كلمة القاموس في اللغة : البحر أو البحر العظيم ، أو وسطه أو معظمه أو أبعد موضع فيه غوراً ، ومذ أسمى الفيروزابادي كتابه « القاموس » أصبحت الكلمة علماً على هذا « المعجم » وكان الصباحي ممن أثنى على الكتاب بقوله :

مـن رام في اللـغـة الـعـلـو على الـسّهـا
فـعـلـيـه مـنـهـا مـا حـوى قـامـوسـهـا

ونال « القاموس المحيط » ثقة العلماء وطلاب العربية لما امتاز به من إيجاز وضبط ودقة رغم ما فيه من هنات وأوهام فلما طبع في القرن الماضي وانتشر بين جماهير المتعلمين ، أصبح أهم مرجع لدى هؤلاء لمعرفة مفردات اللغة ، يعتمدونه للتمييز بين الصحيح وغيره من الألفاظ ، وبين القديم والمولد وبين العربي والمعرب ، حتى تولد لكلمة « قاموس » معنى جديد في أذهان الناس ، فكانوا يقولون : فلان « قاموس » لكذا أي جامع لعلمه ، واذا تندروا قائلين : فلان يتقامس في كلامه : إذا كان يوشي كلامه بحوشي من ألفاظ « القاموس » .

وأخذت كلمة « قاموس » تشيع على ألسنة الناس ، مرادفة لكلمة « معجم » أي معجم ، وكان للأستاذ/أحمد فارس الشدياق مؤلفه « الجاسوس على القاموس » الذي كان له أثره في شيوع الكلمة بمعناها المولد ، وعندما ألف الشرتوني معجمه « أقرب الموارد » سنة ١٨٩٠ م ، أثبت فيه المعنى المولد لكلمة « قاموس » فقال : القاموس كتاب الفيروزابادي في اللغة ، لقبه بالقاموس المحيط ، ويطلقه أهل زماننا على كل كتاب في اللغة ، فهو يرادف عندهم كلمة معجم وكتاب لغة .

ومنذ أوائل هذا القرن أخذ كثير من مؤلفي المعاجم الثنائية اللغة، يطلقون كلمة «قاموس» على معاجمهم، وهكذا ثبتت الكلمة أو استقرت بمعناها المولد، غير أن المتمسكين بالصحاح يتشددون حتى اليوم في قبول ترادف الكلمتين، أما المتساهلون من علماء العربية فلا يجدون بأساً من استعمال الكلمة بمعناها المولد، وهذا الاستاذ الجليل/الشيخ عبد القادر المغربي رحمه الله يحاضر ويكتب حتى في مجلة مجمع اللغة العربية، مورداً في كلامه وكتاباته لفظة «قاموس» مرادفة للفظة «معجم» ونراه يعرف الكلمات «غير القاموسية» بقوله: «هي كلمات نستنكف عن إيداعها قواميسنا العربية، لكننا مع هذا لا نستنكف عن التكلم بها وإيداعها كتاباتنا أحياناً[1].

وانتهى الأمر بالمعنى المولد لكلمة «قاموس» اليوم إلى اقراره من قِبل مجمع اللغة العربية في القاهرة، وهكذا خرج «المعجم الوسيط» معرفاً الكلمة بما يلي:

القاموس: البحر العظيم. وعلم على معجم الفيروزابادي. وكل معجم لغوي، على التوسع.

وأعود لأقول ان الاستاذ/الشدياق الذي تولى سنة ١٣٠٠هـ (١٨٨٢م) الاشراف على طبع معجم «لسان العرب»، إذ تتبع هنات القاموس المحيط للفيروزابادي وأوهامه، فكان من تتبعاته كتابه الضخم الذي أطلق عليه اسم «الجاسوس على القاموس» طبعة سنة ١٢٩٩هـ (١٨٨١م) ويقع في حوالي ٧٠٠ صفحة من القطع الكبير وكان طبعه بمطبعة الجوائب في القسطنطنية.

يقول الشدياق في مقدمته:

«لما رأيت في تعاريف القاموس للإمام القاضي مجد الدين الفيروزابادي

---

(١) الشيخ المغربي في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، المجلد الثامن حتى ٢٩، سنة ١٩٢٨ وما بعده.

قصوراً وإبهاماً ، وايجازاً أو ايهاماً ، وترتيب الأفعال ومشتقاتها فيه محوج إلى تعب في المراجعة ، ونصب في المطالعة ، والناس راوون منه ، وراضون عنه ، أحببت أن أبين في هذا الكتاب من الأسباب ما يحض أهل العربية في عصرنا هذا على تأليف كتاب في اللغة يكون سهل الترتيب واضح التعاريف .. » إلى أن يقول الشدياق :

« .. ويشهد الله تعالى المطلع على ما تكنه الصدور ، المجازي كل إنسان بحسب عمله من بادٍ ومستور ، أني لم ينشطني للتأليف سوى الرغبة في حث أهل العربية على حب لغتهم الشريفة ، والرتوع في ساحتها المنيفة وحث أهل العلم على تحرير كتاب فيها خال من الاخلال ، مقرب لما يطلبه الطالب منها من دون كلال ، فإني رأيت جميع كتب اللغة مشوشة الترتيب كثر ذلك أو قل ، وخصوصاً كتاب القاموس الذي عليه اليوم المعول ، فإن مؤلفه رحمه الله التزم فيه الإيجاز ، حتى جعله ضرباً من الألغاز ، لكن التزمت القصد ، فيما أوجهه عليه من النقد ، بل أرد عنه اعتراض المحشي والشارح حين أجد مجالاً للرد ، فإنني لست ممن يبخسون الناس أشياءهم ، أو يتعامون عن أحسانهم ، فلا يرون إلا أسواءهم ، على أني معترف بأن لصاحب القاموس علي فضلاً كبيراً ، ومنه توجب ان أكون لها ما عشت شكوراً ، فإنه هو الذي ألجأني إلى الخوض في بحر اللغة الزاخر ، لاستخراج جوهرها الفاخر ... » .

وليس كتاب الجاسوس في حقيقته كتاب نقد للقاموس المحيط فحسب ، بل هو موسوعة لغوية تتحدث عن كل ما كان معروفاً من كتب اللغة وعن أصحابها وأوهامهم ، وتذكر محاسن تلك الكتب وفضائل مؤلفيها ، مما يدل على سعة الاطلاع التي تمتع بها الشدياق كعالم مسلم وتفانيه النادر في حب العربية ، ورغبته في خدمتها بدعوة علماء اللغة الى تأليف « معجم عربي حديث » .

القاموس في أوربا

اهتم بعض علماء الافرنج بالمعاجم العربية، وكان هذا الاهتمام قد بدأ بظهور ترجمة القاموس المحيط إلى اللغة اللاتينية في إيطاليا سنة ١٦٣٢م، ثم تعددت المعاجم الثنائية اللغة والعربية إحداهما، وقد أدى بعض كبار المستشرقين جهوداً ضخمة واضحة في خدمة المعجم العربي، وكان من طليعة هؤلاء المستشرق الإنجليزي لين المتوفى ١٨٧٦م والذي ألف معجماً كبيراً طبع في أجزاء طبعت خمسة منها، وبعد وفاته أتم المعجم بطبع المجلدات الثلاثة الباقية.

ومن أعلام المستشرقين الهولندي دوزي المتوفى سنة ١٨٨٣م وقد ألف معجماً لما فات المعاجم العربية باسم: (الملحق المعاون أو المساعد للمعاجم العربية). وطبع لأول مرة سنة ١٨٨١م في ليدن بهولندا.

وقام المستشرق فيشر الألماني المتوفى ١٩٤٩م، بصنع معجم للعربية اهتم فيه بالتطور التاريخي للألفاظ وعلاقة العربية بغيرها من اللغات السامية، واعتقد أن مجمع اللغة العربية في القاهرة فكر في طبع معجم فيشر، ثم تبين له أنه يحتاج إلى جهود جديدة لإعداده للطبع[1].

(١) من المعاجم التي رتبت حروفها حسب الحرف الأصلي الأخير في الكلمة أو حسب القافية: الصحاح للجوهري، ولسان العرب لابن منظور الإفريقي، والقاموس المحيط للفيروزأبادي.

الخطوة الثالثة

خطوة الترتيب

الابجدي   العادي

بعد مدرسة الترتيب المخرجي (الصوتي) للمعاجم العربية والتي كان مؤسسها ورائدها الخليل بن أحمد صاحب معجم (العين) بعدها تأتي المدرسة الثانية « مدرسة القافية » وأشهر روادها الجوهري وابن منظور والفيروزابادي ، واذا أردنا تقويم هذه المدرسة بإيجاز لقلنا ان من أشهر ما قامت به تجاه المعاجم العربية وتطورها أنها خلصت المعاجم من نظام العين المعقد (المخرجي) نظام المدرسة الأولى التي أسسها الخليل بن أحمد بكتابه ، إلا أنها قد وقعت في عيب آخر وهو ترتيب الكلام من آخره أي من قافيته ، استمر ذلك النظام الذي وضعه الفارابي صاحب (ديوان الأدب) ثم ابن اخته الجوهري صاحب (الصحاح) ثم جاءت المدرسة الثالثة التي كانت لها جذور فيما سبق على يد العزيزي والشيباني والهروي وأبي عبيدة وابن دريد .. جاء الزمخشري ليضع منهج هذه المدرسة الميسرة ، ويكمل خطوات ابن فارس وسابقيه .

ونبدأ الحديث عن المدرسة الثالثة مدرسة الترتيب الأبجدي العادي فمن الصعب على الإنسان القول بأن الترتيب الأبجدي العادي (أ ب ت ث) ظهر فجأة مع ظهور الزمخشري في أساس البلاغة ، واذا كانت هناك محاولات عديدة ، ومعاناة في سبيل الوصول إلى ترتيب سهل يتيح للباحث الوصول الى ضالته في سهولة ويسر .

ولو تتبعنا كتب التراث اللغوي نجد أنها حاولت السير في هذا الطريق السهل ففي القرن الرابع الهجري نجد العزيزي رتب كتاباً في غريب القرآن ترتيباً أبجدياً عادياً ، وان كان لم يراع الأ الحرف الاول فقط ، لكنها كانت محاولات رامية للتطبيق الدقيق كالترتيب الابجدي وان هذه المعاناة لم تكن مقصورة على مؤلفي الغريب فقط ، وانما كانت مصاحبة للغويين أيضاً ، ويقال ان كتاب (الجيم)

المنسوب خطأ الى أبي عمرو إسحاق بن مرار الشيباني الذي توفي ٢٠٦ هـ، وفي الحقيقة ان صاحبه الهروي، وهذا المعجم مرتب ترتيباً أبجدياً عادياً فيبدأ بباب الألف وينتهي بباب الياء، ولكنه لا يسير في هذا الترتيب إلا خطوة واحدة فقط فلا يراعي الا الحرف الأول فقط، أما ترتيب المواد داخل كل باب فلا يخضع للترتيب الأبجدي، وإنما تحشد المواد اللغوية بدون أي ترتيب.

كذلك جمهرة ابن دريد البصري ما هي الا محاولة للترتيب الابجدي، وان كانت محاولة بعيدة نوعاً ما عن هذا النظام، حيث رتب ابن دريد أبواب معجمه ترتيباً عادياً يبدأ بالهمزة، ولكنه لم يراع ذلك عند النظر في المادة اللغوية نفسها، حيث أن ابن دريد لم ينظر إلى الحرف الأول الأصلي من كل جذر لغوي ويضعه في مكانه الأبجدي، وانما كان ينظر الى الأصول في الجذر اللغوي فما كان أسبق ورودا في الابجدية عولجت المادة اللغوية تحت بابه.

ثم تأتي محاولة ابن فارس ذلك العالم الموسوعي، في معجمه «المجمل» ثم «المقاييس» والذي حاول فيهما أن يسير خطوة في سبيل هذا الترتيب العادي. وسوف نتعرض لهذين المعجمين، لأنهما كانا خطوة لا بأس بها في تطبيق هذا المنهج الابجدي العادي، فقد راعى ابن فارس اللغوي في معجمه الأصول كلها في كل جذر لغوي، وان كان لم يكمل تطبيقه حيث اعتبر الابجدية دائرة. أما الزمخشري في أساس البلاغة فقد طبق النظام الأبجدي تطبيقاً دقيقاً.

«الحروف» أم «الجيم» ؟!

أمامي كتاب «الجيم» وكما يقول غلافه ان صاحبه أو مؤلفه: أبو عمرو الشيباني (ت٢٠٦ هـ) = (٨٢١م).

والذي نعرفه عن أبي عمرو الشيباني أنه كوفي واسع العلم، ضليع في اللغة، موثوق به في علوم الحديث، أصله من الموالي.

كان أبو عمرو مؤدباً للصبيان في أحياء شيبان، فنسب إليهم بالولاء، وقيل بالمجاورة، وبالتعليم لأولادهم. أخذ الرواة عنه دواوين أشعار العرب، ويقال أن الإمام أحمد بن حنبل كان تلميذاً له، يحضر حلقته. تناوله ابن خلكان وابن النديم، والقفطي بالترجمة والحديث. ومن أشهر كتب الشيباني كتاب الحروف، وغريب الحديث، والنحلة، والإبل والخيل، والنوادر، وخلق الإنسان.

ولا نعرف أن كتاب «الجيم» هذا من تأليف الشيباني، أو أن للشيباني كتابا يسمى «الجيم» ؟!

نعم، هناك كتاب في تراثنا اللغوي يسمى «الجيم» ولكنه للهروي أبي عمرو شمر بن حمدويه المتوفى سنة ٢٥٥ هـ = (٨٦٩ م) وليس للشيباني. ؟!

على كل حال فالجيم حرف من حروف الهجاء، وهو الثالث بينها في الترتيب الابجدي، والخامس في ترتيب نصر بن عاصم، والثامن في ترتيب الخليل. ولا أحد يعلم بالتحديد إذا كان الهروي قد ابتدع لنفسه ترتيباً جديداً ابتدأه بحرف الجيم، ومن ثم جعل هذا الحرف علماً على معجم ألفه، أم أنه ابتدأ معجم بحرف الجيم اعتباطاً حتى لا يتابع أحداً ممن سبقوه، أم الرجل أراد أن يخالف لكي يعرفه الناس. ؟!

على أن الفيروزابادي في القاموس المحيط ذكر: «والجيم: الديباج، سمعته من بعض العلماء نقلاً عن أبي عمرو مؤلف كتاب الجيم». ثم جاء الزبيدي اليمني في شرحه للقاموس في «تاج العروس» ليقول: «نقل المصنف في البصائر ما نصه: قال أبو عمرو الشيباني: الجيم في لغة العرب: الديباج ثم قال: وله كتاب في اللغة سماه (الجيم) كأنه شبهه بالديباج لحسنه، وله حكاية حسنة مشهورة. انتهى... وقوله سمعته الى آخره يدل على أن المصنف لم يطلع على كتاب الجيم كما هو ظاهر، وكلامه في البصائر محتمل أن يكون نقله منه بلا واسطة. أو نقل ممن نقله منه. فتأمل..» وهذا التعليل لمعنى «الجيم» ينفي أن

يكون الهروي مبتدعاً لترتيب جديد لحروف المعجم أو لحروف الهجاء العربية.

ولا يفوتني هنا التنويه بهذا الالتباس الذي وقع فيه بعض علماء العربية في حقيقة اسم مؤلف كتاب «الجيم» اذ نسب الفيروزابادي كتاب الجيم إلى أبي عمرو الشيباني. وسبب هذا الخطأ نجم عن أن كلا من الهروي والشيباني كان يكنى بأبي عمرو.

والغريب فعلاً هو ما جاء به السيوطي في كتابه «بغية الوعاة» اذ ذكر في ترجمته لكل من شمر بن حمدويه المتوفى ٢٥٥ هـ وإسحاق بن مرار المتوفى ٣٠٦ هـ أنه صاحب كتاب «الجيم».

غير أن السيوطي في ترجمته للشيباني أثبت رواية عن أبي الطيب اللغوي جاء فيها: «ورأيت في تذكرة الشيخ تاج الدين بن مكتوم قال: سئل بعضهم لِمَ سمي كتاب الجيم فقال: لأن أوله حرف الجيم، كما سمي كتاب العين لأن أوله حرف العين، قال: فاستحسنا ذلك، ثم وقفنا على نسخة من الجيم فلم نجده مبدوءاً بالجيم.»

ونخلص من رواية السيوطي إلى التأكيد من جديد بأن صاحب الجيم لم يبتدع ترتيباً جديداً لحروف الهجاء، أما المؤلف مؤلف «الجيم» فهو أبو عمرو شمر بن حمدويه خلافاً لما توهمه الفيروزابادي صاحب القاموس المحيط والسيوطي في إحدى روايتيه[1].

وفي تحقيق الاستاذ/ أحمد عبد الغفور عطار لمعجم «الصحاح» يقول ان مجمع اللغة العربية المصري يعد العدة لنشر كتاب الجيم للشيباني بتحقيق المستشرق

(١) يراجع معجم الأدباء لياقوت الحموي ١١ / ٣٧٥ ــ والأعلام للزركلي ٣ / ٢٥٣.

شارل كتنز (الفرنسي) وإشراف الأستاذ / إبراهيم مصطفى (ص ١٠٠) ثم يعود محقق صحاح الجوهري الأستاذ / عطار في (ص ٩٨) « ولكتاب الجيم اسمان آخران هما كتاب الحروف ، وكتاب اللغات ، وأصل الجيم « كتاب الحروف » فتأمل !! . .

وكنا مع عشاق العربية في انتظار تحقيق المستشرق كتنز لنعرف اسم الكتاب وحقيقة اسم مؤلفه .

ولكن أتت الرياح بما لا تشتهيه السفن وخرج كتاب « الجيم » منسوباً لابي عمرو الشيباني المتوفى ٢٠٦ هـ ، وطبع في ثلاثة أجزاء بالقاهرة بإشراف مجمع اللغة العربية القاهري ، الجزء الأول بتحقيق إبراهيم الابياري ، والجزء الثاني بتحقيق عبد الكريم الغرباوي والجزء الثالث بتحقيق عبد العليم الطحاوي ١٩٧٤ / ١٩٧٥م وصدر الكتاب الأستاذ / محمد خلف الله أحمد عضو المجمع .

وقبل أن نوجز محتوى « الجيم » نقرر الآتي :

- كتاب « الجيم » تأليف : شمر بن حمدويه أبي عمرو (٢٥٥ هـ) صاحب كتب غريب الحديث ، والسلاح ، والجبال ، والادوية .
- كتاب « الحروف » تأليف : أبي عمرو الشيباني إسحاق بن مرار (٩٤ هـ — ٢٠٦ هـ) صاحب : غريب الحديث ، والنحلة ، والإبل ، والخيل ، والنوادر وخلق الإنسان .

أما كتب « اللغات » فكثيرة ولكل عالم من جهابذة اللغة في القديم وعلى وجه التقريب كتاب يسمى « اللغات » : مثل يونس النحوي ، الفراء ، وغيرهما من علماء اللغة .

اختلف الباحثون حول عدّ هذا الكتاب ضمن القواميس ، كتاب الجيم للهروي ، فقدْ قيل إنه ليس معجماً بالمفهوم الدقيق ، لأنه عبارة عن ألفاظ غريبة

جمعها الشيباني (الهروي وفقاً للحقيقة العلمية) ونسبها إلى قبائل قديمة موثقاً مادته بالشواهد الشعرية والنثرية .

واعتماداً على هذا ، فقد قيل إن هذا القاموس من معاجم اللغات لغات القبائل حيث أورد صاحبه أشعار ما يزيد على ثمانين من القبائل العربية ولهذا فإن هذا المعجم جاء ليحوي مفردات عليها طابع البداوة ويشيع فيها الغريب .

وإذا كان صاحب « الجيم »[1] قد رتب معجمه وفق حروف الهجاء المألوفة فإنه لم يلتزم قاعدة معينة لترتيب الألفاظ داخل الباب الواحد ، بل كثيراً ما أوردها دون مراعاة لترتيب الحرفين الثاني والثالث من الكلمة .

(١) من المعاجم التي تتبع ترتيب الألفباء العربية بترتيبها المألوف : (تحت الحرف الأول في الكلمة بعد تجريدها من الزوائد) الجيم للهروي ، ديوان الأدب للفارابي ، مقاييس اللغة لابن فارس اللغوي ، والمجمل لابن فارس ايضاً ، واساس البلاغة للزمخشري .

ابن فارس وتراثه اللغوي:

عندما تكون اللغة دائرة!

ابن فارس .

هو أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا بن حبيب الرازي . نشأ في قزوين وهمذان وبهما تلقى تعليمه ، وقد تلمذ له في همذان ، بديع الزمان الهمذاني صاحب المقامات الهمذانية ، ثم انتقل إلى الري بعد أن استدعاه إليها فخر الدولة ابن بويه كي يؤدب ولده مجد الدولة ، وهناك أخذ عنه اللغة والأدب الصاحب ابن عباد (٣٨٥ هـ) مؤلف (المحيط) ومن أشهر أساتذة ابن فارس :

ـــ أبو الحسن القطان .
ـــ أبو بكر الأصفهاني .
ـــ المنجم ..... وغيرهم .

وأصح الأقوال في وفاته هو أنه توفي عام ٣٩٥ هـ بمدينة الري . وألف ابن فارس كثيراً من الكتب أشهرها « الصاحبي » وسنتحدث عنه بإذن الله كذلك « المجمل » و « المقاييس » .

وفيهما اعتمد ترتيب نصر بن عاصم تبعاً لحرف الكلمة الأول مع الاحتفاظ بنظام الابنية وفي هذه النقطة بالذات يتفق مع ابن دريد البصري صاحب « الجمهرة » .

وفي « المجمل » رتب مواده على حروف المعجم ، لكل حرف كتاب ، وفي الكتاب ثلاثة أبواب بحسب الابنيـة أولها للثنائي المضاعف والمطابق ثم للثلاثي ثم لما جاء على أكثر من ثلاثة ويبدأ فيه بالكلمة المبدوءة بحرف الباب وبحسب الحرف التالي ثم يذكر الحروف السابقة عليه مع طرح نظام المقلوبات « الخليلي » .

وفي « المقاييس » اتبع ابن فارس اللغوي ما الزم به نفسه في المجمل وزاد عليه دقة في بحث الاشتقاق وقوة في نقد ما لا يرى صحته .

ولابن فارس كتب أخرى نذكر منها « الفصيح » و « فقه اللغة » وبالطبع هو غير « فقه اللغة » للثعالبي .

كان مولد ابن فارس (أحمد بن زكريا القزويني أبي الحسين) في سنة ٣٢٩ هـ وكانت وفاته ٣٩٥ هـ .

والآن نتجول معاً في أهم كتب ابن فارس في معجمه « المجمل » و « المقاييس » وفي كتابه « الصاحبي » ولنستميح القارىء عذراً في أننا نوجز كلامنا بعض الشيء ، آملين أن نفرد دراسة مطولة بعون الله تبين عظمة هذا الرجل ، وباعه الطويل في حقل الدراسات اللغوية .

المقاييس في اللغة .

ابن فارس أو أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا بن حبيب الرازي القزويني المتوفى سنة ٣٩٥ هـ .

هذا العالم الجليل الذي درس علوم النحو على طريقة الكوفيين ، وأخذ الأدب واللغة عن أبيه وشيوخ عصره ، وقد بلغ الغاية في علم اللغة وأسرارها وفهم أصولها ، وانفرد من بين اللغويين بتأليف كتابيه « المجمل » و « المقاييس » وكلاهما يعتبر ابتكاراً فريداً في بابه ، وقد حظيا بشهرة عظيمة .

وكتاب « المقاييس » برهان ساطع على نضج الدراسات اللغوية وبلوغها مرتبة التصنيف على أسس فلسفية لغوية . فقد قصد فيه تحديد المعنى الأصلي المشترك في جميع صيغ المادة ، وسمى هذه المعاني في الأصول والمقاييس ، وصدر كل فصل من فصول الكتاب بأصله الذي تتفرع منه مسائله . وقد جرى ابن فارس في معجمه

هذا على طريقته الفريدة بين مؤلفي المعاجم ، فهو لم يرتب مواده على أوائل الحروف وتقليباتها كما صنع ابن دريد البصري في « الجمهرة » ، ولم يطردها على أبواب أواخر الكلمات كما ابتدع الجوهري في « الصحاح » ، ولكنه سلك طريقاً خاصاً به والتزم فيه نظاماً دقيقاً .

قسم ابن فارس مواد اللغة أولاً إلى كتب تبدأ بكتاب الهمزة وتنتهي بكتاب الياء .

ثم قسم كل كتاب إلى ثلاثة أبواب :

أولها : باب الثنائي المضاعف .
ثانيها : باب الثلاثي .
ثالثها : ما جاء على أكثر من ثلاثة أحرف أصلية .

وقد سار في ترتيب الكلمات على ألا يبدأ بعد الحرف الأول الا بالذي يليه ، فيستهل باب الباء مثلاً مع التاء ، وباب التاء بها مع الثاء ، وباب العين بها مع الغين لا الحرف الذي قبلها .

وبعد أن يصل إلى حرف الياء من كل مادة يضع الكلمات المؤلفة من الحرف والحروف السابقة عليه في آخر الباب بعد حرف الياء ويرتبها الترتيب المألوف .

ثم يورد في نهاية كل باب ما جاء على أكثر من ثلاثة أحرف أصلية ، وقد يجمع بعض الألفاظ المتصلة برابطة اشتقاقية معينة مثل الألفاظ المنحوتة من لفظين ، أو الثلاثية المزيد عليها حرف أو حرفان ، أو الموضوعة أصلاً على أكثر من ثلاثة أحرف أصلية ، وخلط في هذه الأبواب جميعها الرباعي والخماسي .

وقد طبع هذا الكتاب في ستة أجزاء كاملة سنة ١٣٦٦ هـ طبعة علمية محققة متقنة بعناية أستاذنا عبد السلام محمد هارون . لقد كان هدف ابن فارس في المقاييس ، بجانب جمع المواد اللغوية التي كان قد تركها علماء العصور

السابقة ، هو رد كل معاني المادة اللغوية إلى معنى مشترك واحد ترجع إليه كل المعاني الحقيقية والمجازية المتفرعة عن هذا المعنى العام .

لذا فإنه يقصد بكلمة « مقاييس اللغة » ما يسميه بعض اللغويين « الاشتقاق الكبير» ، ومعناه أننا يمكننا أن نشتق أي كلمة حديثة لها أصل من اللغة بدون ورودها في اللغة لأن للغة العرب قياساً ، ولأن العرب تشتق بعض الكلام من بعض ، وابن فارس حريص كل الحرص أن ينبه على أن بعض المواد اللغوية لا يطرد فيها القياس .

يقول ابن فارس في مقدمة المقاييس[1] «قال أحمد : أقول وبالله التوفيق : ان للغة العرب مقاييس صحيحة ، وأصولاً تتفرع منها فروع . وقد ألف الناس في جوامع اللغة ما ألفوا ، ولم يعرضوا في شيء من ذلك عن مقياس من تلك المقاييس ، ولا أصل من الأصول »[1] .

أما الكتب التي اعتمد عليها ابن فارس في كتابه المقاييس فهي :

١ ـ كتاب العين للخليل بن أحمد الفراهيدي (١٠٠ هـ ـ ١٧٠ هـ) .
٢ ـ كتاب (غريب الحديث) وكتاب (مصنف الغريب) لأبي عبيدة عمرو بن المثنى التيمي (١١٠ هـ ـ ٢٠٩ هـ) .
٣ ـ كتاب المنطق لابن السكيت يعقوب بن إسحاق (١٨٦ هـ ـ ٢٤٤ هـ) .
٤ ـ الجمهرة لابن دُريد البصري (٢٢٣ هـ ـ ٣٢١ هـ) .

ويقول ابن فارس في مقدمة « المقاييس » بعد أن ذكر الكتب السابقة « فهذه الكتب الخمسة معتمدنا فيما استنبطناه من مقاييس اللغة ، وما بعد هذه الكتب فمحمول عليها ، وراجع إليها » .

---

(١) المقاييس جـ ١ ص ٣ .

المُجمل .

هذا المعجم أشهر من المقاييس ، وكان هدف ابن فارس فيه أن يذكر المستعمل فقط من الألفاظ ، لأن مفردات اللغة العربية لا حصر لها ، ولا يمكن جمعها في كتاب واحد .

وعيب المعاجم السابقة في رأي ابن فارس أنها أكثرت من جمع النادر والغريب فكانت النتيجة أنها اضطربت ، لذا يقول في مقدمة مجمله : انه أجمل لئلا تفوتك الفائدة ويبعدك ذلك عن مرادك ، وانه انشأ كتابه هذا بمختصر من الكلام قريب ، يقل لفظه وتكثر فوائده .

أما المنهج الذي اتبعه ابن فارس في المجمل فهو أنه رتب أبوابه ترتيباً أبجدياً عادياً بادئاً بباب الهمزة ومنتهياً بباب الياء . وكان المتبادر إلى الذهن أن يكون الحرف الثاني أول الابجدية لكنه لم يراع ذلك ، فمثلاً في باب الدال ، يقول في باب الدال وما يليه : ويبدأ الباب بكلمة تبدأ بحرف الدال والحرف الثاني ذال ان وجد ، والمفروض أن يبدأ بالكلمة التي أولها دال وثانيها همزة وهكذا ، ولكنه يأتي بالحرف الأول بابا والحرف الثاني الذي يليه في الترتيب الأبجدي هو أول فصل في هذا الباب إلى أن ينتهي إلى باب الدال مثلاً والحرف الثاني ياء ثم يأتي بعد ذلك باب الذال والحرف الثاني همزة ثم باء ثم تاء إلى أن يصل إلى باب الدال والحرف الثاني دال ، وبذا ينتهي باب الدال ثم ينتقل إلى باب الذال وما يليه وهو الراء ، وهكذا .

فابن فارس تصور الابجدية دائرة توضع عليها الحروف كلها بدون بداية أو نهاية ، وعندما يبدأ من حرف يأخذه وما يليه حتى يعود ثانية إلى هذا الحرف هكذا .

هذا هو منهج المجمل الذي اتبعه ابن فارس ، ولكن هناك خصائص أخرى في داخل هذا المعجم منها ، ذكره المستعمل ونبذه الغريب والنادر من الألفاظ ،

لذا فأهم ظاهرة عنده هي الإجمال والاختصار. من أجل هذه الغاية حذف ابن فارس الشواهد واقتصر على المشهور منها فقط.

لقد راعى ابن فارس في هذا المعجم أصول الكلمة بما فيها الحرف الأول والثاني والثالث. وقد رتب الكلمات على أساس حروف الهجاء بترتيبها المألوف.

وأفرد لكل حرف من حروف الهجاء قال فيه مثلاً: باب الحاء وما بعدها، بالطبع حسب ما تعطيه الإمكانات اللغوية.

وبعد أن ينتهي إلى الياء يبدأ من الهمزة فالباء حتى تعود الدائرة إلى الحاء مرة أخرى.

بعدها ينتقل إلى حرف الخاء بنفس الطريقة ثم الدال فالذال وهكذا. لقد أخذ ابن فارس نفسه في هذا القاموس بخطة تدوين المستعمل من الألفاظ حتى عصره، وقد أوجز في شرح المعاني، كما نقل عن عدد من اللغويين السابقين عليه.

ويلاحظ د. حسين نصار أن ابن فارس قد أقام «المجمل» على أسس فلسفية لغوية.

والذي تجدر الإشارة إليه أن ابن فارس في هذا المعجم قد أخذ نفسه بخطة إيراد الصحيح فقط مثله في ذلك مثل الجوهري، ولا غرو، فقد كانا متعاصرين:

الجوهري توفي ٣٩٣ هـ.
ابن فارس توفي ٣٩٥ هـ.

وهذه النغمة توحي لنا بأن اللغة في هذا العصر (القرن الرابع الهجري) كانت تتأرجح بين الصحة والاعتلال ومن هنا جاء رد الفعل إيجابياً من قبل الغيورين عليها فراحوا يسجلون ما صح لديهم وتوثق.

وهذا ابن فارس يقول في نهاية «المجمل»: «قد توخيت حد الاختصار،

وآثرت فيه الإيجاز، واقتصرت على ما صح عندي سماعاً، ومن كتاب صحيح النسب مشهور، ولولا توخي ما لم اشكك فيه من كلام العرب لوحدت مقالاً».

هذا ما نجده في ص ٢١ من مقدمة الأستاذ هارون لمعجم المقاييس لابن فارس ج ١، وهو يشير إلى أن «المجمل» قد نشر الجزء الأول منه بالقاهرة في مطبعة السعادة سنة ١٣٣١ هـ وللأسف الشديد بذلت قصارى جهدي ولم أعثر على هذه الطبعة.

ويشير الأستاذ هارون إلى أن ابن فارس في معجميه: المجمل والمقاييس لم يرتب موادهما على أوائل الحروف وتقليباتها كما صنع ابن دريد في الجمهرة، ولم يطردها على أبواب أواخر الكلمات مثلما ابتدع الجوهري في الصحاح، وكما فعل ابن منظور وصاحب القاموس الفيروزابادي في معجميهما، ولم ينسقها على أوائل الحروف كما فعل الزمخشري في أساس البلاغة، والفيومي في المصباح المنير. ولكنه سلك طريقاً خاصاً به، لم يفطن إليه أحد من العلماء ولا نبّه إليه.

وأقول إن هذا الطريق يتضح في عرض ترتيب المادة المعجمية في معجم مقاييس اللغة.

وإذا أردنا ان نكشف في معجم مقاييس اللغة لإبن فارس (ت ٣٩٥ هـ) عن معنى كلمة مثل (أبد) الهمزة والباء والدال فنجد ابن فارس يقُول عنها ان بناءها يدل على طول المدة، وعلى التوحش. قالوا: الأبد للدهر وجمعه آباد، والعرب تقول: أبد أبيد، كما يقولون: دهر، دهير، والأبدة: الفعلة تبقى على الأبد، وتأبد البعير: توحش. وفي الحديث: «إن هذه البهائم لها أوابد كأوابد الوحش. وتأبد المنزل: خلا. قال لبيد:

عفت الديار محلها فمقامها
بمنى تأبّد غَوْلُها فرجامها

(٤) البيت مطلع معلقة لبيد بن ربيعة.

وقال ابن الأعرابي : الإبد: ذات النتاج من المال ، كالأمة والفرس والأتان ، لأنهن يضنأن في كل عام ، أي يلدن . ويقال تأبد وجهه : كَلِف[1] .

وقد قام الأستاذ/عبد السلام هارون بوضع فهارس عامة لمعجم. مقاييس اللغة ، وهي ذات فائدة كبيرة جداً لمن يستخدم هذا المعجم .

وهذه الفهارس هي : فهرس اللغة ، الأشعار ، الأرجاز ، الأمثال ، الأعلام ، البلدان ، الكتب .

المهم هنا أن الأستاذ المحقق قد بذل جهداً كبيراً في تصنيف مادة كل فهرس . وخذ مثلاً انه تحت فهرس اللغة يذكر :

ـ ما ورد من الألفاظ اللغوية في غير مادته .
ـ الألفاظ غير العربية .
ـ ما فات المعاجم المتداولة أو انفرد به ابن فارس وفي ذلك من الإفادة الشيء الكثير .

الصاحبي

وهذا كتاب ثالث لابن فارس له أهميته في علوم اللغة ، انه (الصاحبي) وسمى ابن فارس هذا الكتاب بذلك الاسم نسبة إلى صديقة الصاحب بن عباد وزير فخر الدين بن بويه ، وقد ألف ابن فارس الكتاب ليوضع في خزانة كتب فخر الدولة .

وطبع الصاحبي لأول مرة في القاهرة عام ١٩١٠م وعنيت بتصحيحه ونشره

(١) ابن فارس : معجم المقاييس جـ ١ ص ٣٤ .

المكتبة الفلسفية في مجلد متوسط الحجم. وسأحاول في هذه الدراسة الموجزة أن أذكر أهم ما تناوله ابن فارس في هذا الكتاب:

ــ يقول ابن فارس ان موضوع كتابه هو الحديث فيما تفرق في كتب العلماء المتقدمين، وهو بسط للمختصر واختصار للمبسوط من كلام العلماء السابقين كذلك يتناول الأصول والفروع من علومهم كنشأة اللغة وأوليتها ومنشأها. ثم رسوم العرب في مخاطباتها، ومالها من الافتنان تحقيقاً ومجازاً، أما الفرع فمعرفة الأسماء والصفات كقولنا رجل وفرس، وطويل وقصير، وهذا هو الذي يبدأ به عند التعلم.

ــ يعتبر حديث ابن فارس عن اللغات واللهجات من أروع أبواب كتابه ويا ليته قد أطال حديثه وتوسع فيه، ونسب كل لهجة لقبيلتها لاستطعنا الوصول لصورة وان لم تكن كاملة بل هي أقرب للكمال للهجات العرب.

وبباب اللهجات ألحق ابن فارس حديثه عن اللغات المذمومة كالكشكشة والعنعنة وغيرها.

وتحدث عن الحروف غير المشهورة (پ)، والجيم المنطوقة كاف. ويؤكد أن اللغة تؤخذ اعتياداً فالصبي يأخذها من أبويه كما تأخذ أدبها وعلومها من الرواة الثقة، ونرى أن هذه النقطة من اللمحات الذكية لصاحب الصاحبي. ثم يتحدث عن اللغة: أهي توفيق، أم اصطلاح وتلك بحوث ميتافزيقية يخرجها علم اللغة الحديث عن دائرة بحثه العلمي. وتكلم ابن فارس عن أصل اللغة وعلى الاختلاف بين اللغات وعلى أن لغة العرب أفصح اللغات وعلى الخط العربي وابواب أخرى شبيهة بها في ٥٠ صفحة من ٢٣٠ صفحة يبلغها كتاب ابن فارس.

وبعد أن أنهى حديثه عن أصل العلم أخذ يتكلم عن فروعه فعرف الكلام وقسمه لاسم وفعل وحرف وتعرض لكل قسم بحديث خاص، وان أخذ مبحث

حروف الجر ثلث الكتاب ، وقد ناقش حروف الجر على مستويين : ما له معنى وما ليس له معنى ، ونحن نقول ان ابن فارس غير محق في ذلك فليس ثمة حرف في اللغة ليس له معنى وان قصد من ناحية الزيادة والأصل في النحو فنحن معه .

وفي عرض عام دون تفصيل تعرض ابن فارس لبعض المباحث النحوية كالخبر والاستخبار والنهي والأمر وغيره من المباحث .

وفي الجزء الباقي من الكتاب نجد خليطاً عجيباً من أبواب النحو والصرف واللغة والبلاغة إلى أن ينتهي الكتاب بباب الشعر .

ان كتاب ابن فارس اللغوي لا تجمعه رابطة منطقية منظمة فكما نطالع الكتاب نقرأ بابا للنحو وآخر للغة وثالثاً للبلاغة وهكذا كذا نرى بحوثاً تخرج عن علم اللغة وعلميته .

على كل فنحن نعتذر بالنيابة عن مؤلف الصاحبي ونقول ان عملية التفريق الدقيق بين فروع اللغة العربية لم تكن قد وضحت كل الوضوح على عصره ، ومن ناحية أخرى لم يكن هناك المنهج العلمي السليم للتأليف على عصر ابن فارس .

ورغم ذلك فابن فارس عنده بعض الجوانب العبقرية الجادة في كتابه مع لمحات ذكية رائعة لا ينكرها سوى جاحد .

الزمخشري

رجل يضع « أساس

البلاغة » !!

في دراسة لكاتب هذه السطور نشرتها مجلة « الوعي الإسلامي » الكويتية في أول ربيع ثانٍ ١٤٠٧ هـ عن كتاب « المستقصى في أمثال العرب » للزمخشري رؤية تحقيقية لهذا الكتاب أكد الباحث أن الزمخشري لم يدرس دوره اللغوي حتى الآن كما يجب ، فالرجل له الباع الأجل في حقل الدرس اللغوي ، الا أنه ظلم من الباحثين في عصره والعصور التالية له — وفي كلماتنا هذه سنحاول إلقاء الضوء — وإن كان خافتاً بعض الشيء — على جهد الزمخشري اللغوي :

« حياء » و « جرأة » و « اعتزال »

معنا أبو القاسم محمود بن عمر بن أحمد الزمخشري ، وكان للزمخشري نشاط كبير في كثير من فروع المعرفة ، وقد ألف في التفسير كتابه المشهور « الكشاف » وفي الحديث كتابه « الفائق في غريب الحديث » ، وفي اللغة قدم لتراثنا كتابه المعجمي « أساس البلاغة » وفي علوم النحو ألف « المفصل » الذي شرحه ابن يعيش (٥٥٦ هـ — ٦٤٣ هـ) وطبع في القاهرة في عشرة مجلدات باشراف مشيخة الأزهر الشريف ، و « مختصر في الصرف والنحو » ، و « النموذج أو الأنموذج » ، و « المفرد والمؤلف » الا أن أهم مؤلفاته على الاطلاق في مجال الدراسات النحوية « المفصل » الذي يعد دائرة معارف متكاملة لآراء نحاة البصرة والكوفة وبغداد ويجدر بالذكر أن الزمخشري ينتمي لمدرسة بغداد النحوية .

كما كان الرجل شاعراً أديباً ، كثير الاطلاع ولعل ذلك يظهر في كتابه « ربيع الابرار » .

ومن صفاته التي امتاز بها أنه كان كثير التواضع شديد الحياء جريئاً في الحق صريحاً في الرأي ، معتزلي المذهب ، وقد أعلن ذلك صراحة في معظم مؤلفاته .

ولد الزمخشري سنة ٤٦٧ هـ في زمخشر المنسوب إليها ، ثم توفي عام ٥٣٨ هـ في خوارزم وبعد رجوعه من مكة .

أساس البلاغة .

للزمخشري معاجم أخرى حاول أن يرتبها ترتيباً أبجدياً عادياً ، ولكنه لم يطبق المنهج تطبيقاً كاملاً الا في الأساس «أساس البلاغة» ، ففي معجمه الجغرافي لم يراع في الترتيب إلا الحرف الأول فقط ، وفي «الفائق في غريب الحديث» لم يراع إلا الحرفين الأولين فقط لا غير ، ففي باب الحاء مع الراء على سبيل المثال يذكر المواد بهذا الترتيب . (حرق ــ حرس ــ حراوة ــ حرأ ــ حرق مرة ثانية ــ حرص ــ حرج ــ حرب ــ حرث ــ حرف ــ حرز ــ حرى ــ حرف مرة ثانية ــ حرم ــ حرق مرة ثالثة)، وان نظرة إلى ترتيب المواد بهذه الصورة تبين أنه لم يراع في الترتيب الذي اتبعه الآ الحرفين الأولين فقط .

ويرتب الزمخشري المواد اللغوية داخل هذا المعجم ترتيباً أبجدياً عادياً مراعياً الحرف الأول ثم الثاني ثم الثالث .. الخ .

يقول جار الله الزمخشري في مقدمة معجمه (أساس البلاغة) : «وقد رتب الكتاب على أشهر ترتيب متداولاً ، وأسهله تناولاً ، يهجم فيه الطالب على طلبته موضوعة على طرف التمام وحبل الذراع ، من غير أن يحتاج إلى التنقير عنها إلى الايخاف ، والا يضلع ، وإلى النظر فيما لا يوصل الا باعمال الفكر إليه ، وفيما دقق النظر فيه الخليل وسيبويه ..» أي أن الهدف من هذا الترتيب هو السهولة على كل باحث وكل راغب في الكشف عن معنى مادة لغوية .

لقد كان هدف الزمخشري في (أساس البلاغة) هو إيضاح وجوه الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم . ومن أجل ذلك فقد شرح الزمخشري المفردات العربية على أساس التفرقة بين المعاني الحقيقية والمعاني المجازية للألفاظ . ومما يميز هذا

القاموس أن الزمخشري اقتبس فيه تعبيرات بأكملها من الكتب الأدبية، والرجل في الأصل أديب، شاعر، ذواقة وذلك ليوضح طرق استخدام المفردات في الجمل وما تتمخض عنه من معانٍ في سياقاتها المختلفة.

والزمخشري يقول في مقدمة قاموسه هذا إنه «تخير ما وقع في عبارات المبدعين، وانطوى تحت استعمالات المفلقين، أو ما جاز وقوعه فيه وانطواؤه تحتها من التراكيب التي تملح وتحسن، ولا تنقبض عنها الألسنة لجريها رسلات على الأسلات ومرورها عذبات على العذبات ومنها التوقيف على مناهج الترتيب والتأليف، ومنها تأسيس قوانين فصل الخطاب والكلام الفصيح بإفراد المجاز عن الحقيقة والكناية عن التصريح.

ويقع الأساس في جزءين:

الأول: من حرف (أ) حتى حرف (ش).

الثاني: من حرف (ص) إلى حرف (الياء).

والزمخشري يقول — كما أسلفنا — رتبه على أشهر ترتيب وأسهله وإليك هذا المثال:

الهمزة مع الياء: أبد، لا أفعله أبد الآباد وأبد الابيد وأبد الآبدين، وتقول رزقك الله عمراً طويل الآباد، بعيد الآباد. وأبدت الدواب وتأبدت: توحشت، وهي أوابد متأبدات. وفرس قيد الأوابد وهي نفر الوحوش. وقد تأبد المنزل: سكنته الاوابد، وتأبد فلان: توحش، وطيور أوابد: خلاف القواطع.

ومن المجاز: فلان مولع بأوابد الكلام وهي غرائبه، وبأوابد الشعر وهي التي لا تشاكل جودة، ثم يورد الزمخشري بيتين من الشعر استخدما مادة أبد، أحدهما للفرزدق والثاني للنابغة الذبياني[1].

---

(١) أساس البلاغة جـ ١/٣.

لقد فرق الزمخشري تفرقة أساسية بين المعاني الحقيقية والمعاني المجازية ، فكان على حد تعبيره تأسس قوانين فصل الخطاب والكلام الفصيح من أبرز خصائص معجم أساس البلاغة .

ونجح الزمخشري في تخيره المواد اللغوية التي عالجها ، فهو يختار العبارة البلاغية المركبة التي وردت على ألسنة العلماء المبرزين في الأدب والبلاغة . وقد عيب على صاحب الأساس تخيره بعض المواد والعبارات ، لأن هدف المعجم الرئيسي هو جمع المادة اللغوية كلها ، وليس اختيار بعضها . لقد حطم الرجل بشجاعة نظرية عصر الاحتجاج والتي كانت تقف بالاحتجاج عند عصر معين وترفض الاحتجاج بشعر الشعراء وأقوال المبدعين الذين جاءوا بعد هذا العصر مهما ارتفع مستواهم الأدبي والبلاغي .

لقد اهتم بإيراد الألفاظ في عبارات أو ما يسمى بلغة العلم الحديث في سياق ، انه يسوق الكلمات متناسقة لا مرسلة بددا ومتناظمة لا طرائق قددا .

ان الزمخشري اعتمد ترتيب نصر بن عاصم لحروف المعجم تبعاً لحروف الكلمة الأولى مع طرح نظام الابنية والمقلوبات . ولم يتبع هذا النظام قبل الزمخشري الا الشيباني (ت ٢٠٦ هـ) في معجم (الحروف) ذلك المعجم المختصر الذي يعد صاحبه أول من أخذ بترتيب نصر بن عاصم لحروف المعجم فجعل لكل حرف باباً والتزم الحرف الأول من الكلمة دون بقية الحروف . والذي أعرفه أن هذا المعجم مخطوط ويفكر مجمع اللغة القاهري في إخراجه ولا أعرف هل أخرجه أم لا ، حيث كان المستشرق (كنز) ينوي الاعتناء به .

أما بعد الزمخشري فجاء الفيومي المتوفى بحماة (٧٧٠ هـ) في المصباح المنير ليقدم معجمه المختصر لكتاب مؤلفه عن غريب شرح الوجيز للغزالي ، والمرتب على حروف المعجم بحسب أوائل الكلمات وثانيها وثالثها وسنتحدث عن ذلك بعد قليل .

ان معجم أساس البلاغة للزمخشري هو معجم البلاغة العربية الذي إلتزم مؤلفه ترتيب نصر بن عاصم لحروف المعجم بحسب أول حروف الكلمة وثانيها وثالثها مع تقدم الواو على الهاء في الأبواب دون المواد، ولم يسبق جار الله الزمخشري في ذلك الترتيب إلا رجل تجاهله معظم علماء اللغة وأقصد به البرمكي محمد بن تميم أبا المعاني صاحب المنتهى في اللغة، والذي رتب صحاح الجوهري بحسب أوائل الكلمة وكانت وفاته بعد ٣٩٧هـ.

وقد طبع هذا الكتاب عدة مرات في القاهرة وبيروت، أهمها طبعة دار الكتب المصرية سنة ١٣٤٠ هـ في مجلدين، وهي طبعة محققة تحقيقاً جيداً.

معاجم تتبع الزمخشري

كان للترتيب العادي الابجدي الذي سار عليه جار الله الزمخشري أثره، فقد اتبعه كثير من أصحاب المعاجم العربية خاصة المحدثين منهم:

ـ المصباح المنير للفيومي:

نجد أثر الزمخشري في تأليف الفيومي المتوفى في عام ١٧٧٠هـ في معجمه «المصباح المنير» واسمه بالكامل «المصباح المنير، في غريب الشرح الكبير» أما مؤلف الشرح الكبير فهو الإمام الرافعي، الذي شرح الوجيز للغزالي.

يقول الفيومي لنا أنه رتب معجمه حسب الأبجدية العادية ليسهل تناوله، لذلك أحب اختصاره على النهج المعروف والسبيل المألوف كي يسهل تناوله.

ولما كان هذا المعجم شرحاً لألفاظ الرافعي التي شرح بها كتاب الغزالي، فإننا نجده مليئاً بالاصطلاحات الفقهية واللغوية، كما يمتاز المعجم أيضاً بضبط الألفاظ بقياسها على ألفاظ مشهورة.

قيد الفيومي ما يحتاج إلى تقييد بألفاظ مشهورة البناء ، فقال مثل فلس وفلوس وقفل وأقفال وحمل وأحمال ونحو ذلك .

وفي الأفعال نسبها إلى بابها فهذا من باب ضرب يضرب وذلك من باب نصر ينصر إلخ ..

ومن الكتب المعجمية التي اتبعت منهج الزمخشري :

ــ مختار الصحاح للرازي .
ــ محيط المحيط لبطرس البستاني ١٨٦٩ م .
ــ أقرب الموارد لسعيد الشرتوني ١٨٨٩ م .
ــ المنجد للويس معلوف ١٩٠٨ م .
ــ البستان لعبدالله البستاني ١٩٢٧ م .

ولهذه المعاجم إيجابيات وسلبيات ، تحتاج إلى دراسة وتمحيص علمي سليم وهذا ما قمنا به في الدراسة التي أفردناها لهذا الغرض مركزين على هذه المعاجم الحديثة وغيرها .

معاجمنا اللغوية القديمة

السلبيات والإيجابيات

لقد قدم لنا جامعو القواميس خدمة جليلة عن طريق ما وفروه لنا من وسائط نستطيع عن طريقها أن نتفهم لغة أجدادنا الأوائل وأن نعي تماماً ما في تراثنا العربي المجيد من كنوز.

ونظرة يسيرة إلى أي قاموس عربي إنما تشهد بالجهد الكبير الذي بذله هؤلاء، خاصة حين نقيم العمل المعجمي في سياق ظروفه التاريخية حيث اعتمد المؤلفون على جهودهم الشخصية دون أي استعانة بما يتوفر لدينا الآن من وسائل العلم والتكنولوجيا[1] .

وقد تزداد نظرة الإعجاب حين نعلم أن واحداً كابن سيدة الأندلسي كان كفيفاً واستطاع مع ذلك أن يؤلف لنا قاموسين هامين لا غنى لنا عن واحدٍ منهما وهما «المحكم» و«المخصص»[2] .

وقد نتصور أن كف البصر لا يعجز عن الاضطلاع بأية مسئولية علمية أو حرفية، أما أن يتجرأ صاحبه فيساهم في التأليف المعجمي فهذا أمر جدير بالملاحظة خاصة وأن العمل المعجمي ليس سهلاً، بل يحتاج إلى مهارة ويقظة ومباشرة تستولي على حواس المبصر جميعها. فما بالنا بالكفيف ؟! ولكننا نقول ان هؤلاء المؤلفين كانوا يشعرون بمسئوليتهم، كما كانوا يدركون تماماً واجباتهم تجاه جيلهم والأجيال التالية ولا أدل على ذلك من أننا نقرأ في مقدمات أعمالهم سواء كانت معجمية أم غيرها أنهم ارادوا أن يضعوا للناس عملاً في هذا الحقل أو ذاك كي ييسر لهم الطريق ويبصرهم بالأصول من أقصر غاية وهذه الروح الأصيلة هي السر وراء بقاء هذا التراث الخالد حيا إلى اليوم.

---

(١) نظرية الاكتمال اللغوي عند العرب/د. أحمد طاهر حسنين ص ٢٠٦.

(٢) راجع ما كتبناه عن (ابن سيده) ودوره ومكانته في الفصل الخاص به.

فالعرب ــ ولا شك ــ كانوا من طليعة الرواد إلى التأليف المعجمي ، وكما أن للريادة مزاياها ، فإن لها أيضاً تبعاتها ، وفي ظل هذه التبعات يجد الباحث في معاجمنا العربية عدداً من الملاحظات مهما كانت فهي لا تهون من الجهد الكبير الذي بذله القدماء في مجال العمل المعجمي . ومن هذه الملاحظات أن بعض المعاجم اتبعت الترتيب المخرجي ، ولا نظن أن ذلك كان أمراً سهلاً على المتعاملين بهذه اللغة ، ربما عرف المتخصص طريقه الى الكشف في قواميس تتبع هذا الترتيب ، ولكن غير المتخصص كان في حاجة إلى دراية صوتية كي يستطيع عن طريقها أن يجد بغيته في مثل هذه القواميس .

وحتى في وقتنا هذا ، فإن غير المتخصص يجد صعوبة في الكشف في أمثال هذه القواميس دون معرفة بمسائل علم الأصوات وتحديد الحروف على مخارج النطق .

كذلك فإن بعض القواميس الأخرى قد رتب المواد على نظام الابنية الصرفية ، والأمر هنا أبين من سابقه ، ذلك لأن الدراسة الصرفية إنما تعد مدخلاً للكشف في القاموس .

ومعنى ذلك أن الباحث في القواميس كان بحاجة إلى دراسة صوتية ودراسة أخرى صرفية ، وقد يرى البعض في ذلك نوعاً من الصعوبة تجعل من القواميس وسائل غير عملية .

ولكني أرى مع د. أحمد طاهر حسنين أنها ميزة من ميزات التراث العربي ، ان تتكامل هذه العلوم فيما بينها .

هذا ويؤخذ على هذه القواميس طموحات أصحابها لحصر كل مفردات اللغة العربية ، مما حدا بهم إلى وضع المهمل إلى جوار المستعمل دون تميز بينهما .

كذلك فقد خلطوا في إيراد المادة المعجمية : خلطوا بين الأفعال والاسماء ــ

إلا نادراً ـــ كما خلطوا بين المشتقات بعضها وبعض ولم يأخذوا أنفسهم بطريقة ثابتة لإيرادها ومن أجل ذلك فإن الباحث في القواميس العربية يجد نفسه مسوقاً لقراءة كل جزيئات المادة المعجمية إلى أن يجد الكلمة التي يطلبها .

وأيضاً فان معاني الكلمة لم ترتب هي الأخرى بحسب أكثرها شيوعاً أو تواراداً ولهذا وضعت المعاني كيفما اتفق .

وفي ذكر المعاني ، كان هناك أحياناً بعض الغموض ، فمثلاً حين يذكر القاموس المحيط معنى أزرق يقول : هو لون !!

أمر آخر ، إيراد أسماء الرواة رغم أنه ينظر إليه على أنه توثيق للمادة فإنه يعطل الباحث في القاموس عن العثور على بغيته من أقصر طريق .

كذلك فقد نقلوا عن بعضهم البعض ، والذي يقارن أي مادة يختارها للكشف عنها ويكشف عنها في أكثر من قاموس يتحقق من ذلك بوضوح .

كذلك وقع بعض جامعي القواميس في أخطاء ، وذلك إذ وهموا في تحديد معاني بعض المواد أو حرفوا مواد أخرى أو صحفوها ، ولهذا فقد استدرك عليهم ذلك مؤلفون لاحقون . سبب هذا عدم وجود نظام تستوفى على أساسه كل أبعاد المادة الواحدة . فالقاموسيون القدماء كانوا غالباً ما يوردون « مصدر » كلمة دون ذكر أصلها ، أو يذكرون « الجمع » . وأحياناً صيغة واحدة لجمع كلمة ما ، على حين تكون هناك صيغ أخرى .

إن القواميس لم تجمع المادة بطريقة شاملة . ففي مقدمة قاموس (تهذيب اللغة) نجد الأزهري (ت ٣٧٠ هـ) وهو جامع القاموس يعترف بأنه لم يورد في قاموسه كل الكلمات التي قرأ عنها . لقد أورد فقط ما ثبت لديه أنه أصح . وأكثر من هذا نعرف أن بعض القواميس اللاحقة قد أضافت أو حتى صححت بعض ما ورد في قواميس سابقة ، وعلى سبيل المثال : الصاغاني (ت ٦٥٠ هـ)

أورد في : التكملة ، الذيل ، الصلة ما فات الجوهري (ت ٣٩٥ هـ) في صحاحه . وعمل الصاغاني هذا يأتي أكبر حجماً مما عمله الجوهري[1] .

وإذا أضفنا إلى هذا أن بعض ما نقله القاموسيون من رواة الشعر لتوثيق المادة اللغوية كان مشكوكاً فيه أو لا يعتمد عليه ، فإن من الممكن أن تتحقق مدى الخطر في الاعتماد على مادة القاموس معيارا يحكم به رفضاً أو قبولاً . واذا قلبنا في « مزهر» السيوطي (ت ٩١١ هـ) نجد العنوان التالي : « معرفة ما روي من اللغة ولم يصح ولم يثبت » نجد أن مضمون هذا الفصل عبارة عن اقتباسات من جمهرة ابن دريد ، وصحاح الجوهري وتهذيب الأزهري ومحكم ابن سيدة . ويبدو أن هذا النشاط قد راق الكثيرين حتى في العصر الحديث ، فهذا أحمد فارس الشدياق يكتب « الجاسوس على القاموس » .

كما نجد كلا من الاساتذة الأجلاء : أحمد تيمور ، وعبد السلام هارون ، وعبد الستار فراج يستدركون العديد من النقاط على لسان العرب لابن منظور الافريقي .

ـ إن علماء اللغة العربية الأجلاء ومعهم عشاق لغتنا الأم يتطلعون إلى يوم يرون فيه معجماً لغوياً خالياً من عيوب الجمع ، وأوهام العلم ، وأخطاء التأليف والنسخ وهم ما زالوا إلى يومنا هذا لا يتعثرون في خطأ علمي أو سقطة لغوية ، أو عيب جديد في قواميسنا الا ويسرعون إلى الكشف عنها والتنبيه عليها فيما بين أيديهم من معجمات لغوية ، نجدهم يسرعون إلى تسجيل ما كشفوه أو عثروا عليه كي ينبهوا الأذهان ، ويثيروا الافهام والعقول المخلصة ، وحمية العاملين في مجال اللغة وفروعها ليعاد طبع معاجمنا القديمة سليمة معافاة من الشوائب ، أو تخرج معاجم حديثة ، متجنبة الأخطاء ، والأوهام ومختلف العيوب ، وذلك باستبعاد القديم منها ، وزيادة العناية واليقظة لتفادي الوقوع بأمثالها وأشباهها مجدداً .

---

(١) انظر ما كتبناه في هذه الدراسة عن الأزهري والجوهري ودورهما في خدمة المعجم العربي .

ـ وقد بُذِل جهد كبير في طبع «لسان العرب» وكتب عنه الكثير، كما كتب عن الطبعات التي صدرت منه تصحيحاً للأخطاء الواردة فيها. وها هو الأستاذ/توفيق داوود قربان ينشر ما يعثر عليه من أخطاء اللسان وهو يقول في مقدمة ما ينشره: «لا غاية من عرض الأمثلة الآتية سوى توجيه الأنظار إلى وجوب البحث الدقيق عن الأغلاط الكثيرة الواقعة في لسان العرب إذا عزم أحد على إعادة طبعه»[1].

كذلك لا نجهل تصحيحات لسان العرب للأستاذين الجليلين تيمور (باشا) وعبد السلام هارون[2].

وتصويبات الأستاذ/عبد الستار فراج[3].

واذا كان الكلام على عيوب معاجمنا العربية يكاد يكون معاداً مكروراً، واذا كان المهتمون بالمعجم العربي اليوم، على شبه اتفاق حول كثير من تلك العيوب، إلا أن العلماء الذين تصدوا لنقد المعالم القديمة، اختلفوا في أسلوب الكشف عن عيوبها، فكان لكل منهم أسلوبه ونهجه.

ومثال ذلك ما كتبه د. حسين نصار في الجزء الثاني من كتابه الهام عن «المعجم العربي» والذي أعلمه أن كتاب «المعجم العربي» ككل أشرف عليه الأستاذ/ مصطفى السقا، وهو مطبوع في القاهرة سنة ١٩٥٦م وهو عماد لكل من يدرس موضوع المعاجم العربية، وفيه الجهد الوافر، الجدير بالتقدير، وقد عقد د. نصار فصلاً في الجزء الثاني عن عيوب المعاجم العربية القديمة لخص فيه الآراء المجمع عليها في نقد المعاجم العربية.

---

(١) مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ص ٥١٠ المجلد ٣٩ سنة ١٩٦٤م وما بعده.

(٢) مجلة المجلة القاهرية المجلدات الأولى منها.

(٣) مجلة مجمع اللغة العربية القاهري بدءاً من المجلد ١٢ سنة ١٩٦٠م وما بعده.

واذا قرأنا ما كتب عن عيوب المعاجم عند اللغويين نجد غيرها عند النحاة أو علماء الصرف أو الاشتقاق، وكذلك العيوب التي يراها علماء اللغات غير العيوب التي يراها علماء آخرون يهتمون بنواح تاريخية أو جغرافية أو طبية أو نباتية أو غير ذلك من النواحي التي اشتملت عليها معاجمنا العربية القديمة.

ومن هنا نجد أن نقد الاستاذ/ أحمد فارس الشدياق في كتابه «الجاسوس على القاموس» غير نقد الأب الكرملي وآرائه الموزعة في المجلات التي كان ينشر فيها ولنراجع كي نعرف آراء الأب الكرملي:

- محاضرات د. مصطفى جواد عن «المباحث اللغوية في العراق».
- كوركيس عواد وكتابه «الأب انستاس ماري الكرملي».
- كوركيس عواد وكتابه «المباحث اللغوية في مؤلفات العراقيين المحدثين» بغداد ١٩٦٥ م.

غير نقد الأستاذ/ أحمد أمين[1].

غير نقد الأمير الشهابي[2] ذلك الرجل الذي يُعد من الرواد المعجميين الاوائل، وأوثقهم في اختصاصه الذي تجب الإشارة إلى جهوده، وهو رئيس مجمع اللغة العربية في دمشق، فقد لبث نحو عشرين سنة يجمع المصطلحات للعلوم الزراعية ويحققها وينشر تحقيقاته في مجلة مجمع دمشق حتى كانت سنة ١٩٤٣ م فأصدر فيها «معجم الألفاظ الزراعية بالفرنسية والعربية» وفي سنة ١٩٥٧ أعيد طبع هذا المعجم بأشراف الادارة الثقافية في جامعة الدول العربية، طبعة ثانية منقحة استدرك فيها المؤلف شوائب الطبعة الأولى وأضاف إليها ما يقرب من ألف مادة جديدة. وفي سنة ١٩٦٢ م[3] أصدر الأمير الشهابي «معجم المصطلحات الجراحية بالانجليزية والفرنسية والعربية».

---

(١) مجلة مجمع اللغة العربية القاهري المجلدات ٧ — ٩ السنوات ١٩٥٣ — ١٩٥٧.

(٢) راجع ترجمته في مجلة المعرفة الدمشقية السنة الخامسة الجزء ٥٩ كانون الثاني ١٩٦٧.

(٣) طبع هذا المعجم من قبل مجمع اللغة العربية بدمشق سنة ١٩٦٢م.

كما أشرف على وضع « المعجم العسكري »[1] للقوات المسلحة في مصر وسورية أيام الوحدة بالفرنسية والعربية ، بالاعتماد على المعجم العسكري الكندي . كما أنه أشرف على وضع « معجم المصطلحات الأثرية »[2] كل هذا بالاضافة إلى جهوده في مجمعي اللغة العربية في كل من القاهرة ودمشق .

ـ على أنه يمكن تصنيف جميع تلك العيوب واستخلاص قواعد عامة ، يسهل التقيد بها وهو عمل العاملين في صنع المعاجم ، ويجنبهم العودة الى ارتكاب العيوب نفسها .

واذا كنا قد أشرنا إلى بعض عيوب معاجمنا القديمة فعلينا أن نبعد عن الآراء المتصلة بجوهر العربية ، من حيث إنمائها عن طريق القياس أو الاشتقاق ؛ ومن حيث التوسع في التعريف أو قبول الدخيل ؛ وهي آراء تتصل بمدى الاندفاع في القول بتطوير قواعد اللغة ، الأمر الذي يختلف فيه العلماء المعاصرون وقد تعرض له جمهرة منهم مثل الاستاذ / أمين الخولي في محاضراته القيمة عن « مشكلات حياتنا اللغوية » والتي ألقاها بمعهد الدراسات العربية العالية في القاهرة ١٩٥٨م ، والأبحاث التي عالجها الأستاذ / الخولي بعد انتخابه عضواً في مجمع اللغة العربية في مجموعة أبحاث ودراسات نشرت في مجلة مجمع اللغة العربية . كذلك مقدمات الشيخ / عبدالله العلايلي في كتبه المختلفة .

وفي ضوء تتبعنا لعيوب أفضل محاولة معجمية في هذا العصر ؛ محاولة مجمع اللغة العربية في « المعجم الوسيط » أستطيع أن أصنف أهم العيوب التي وقع فيها أكثر من تصدى لتأليف معجم لغوي في مجموعات وهي كالتالي :

ـ المجموعة الأولى : عيوب عدم الالتزام .

---

(١) طبع هذا المعجم في دمشق ١٩٦١م على نسختين فرنسية عربية وأخرى انجيليزية عربية .
(٢) من تأليف محيي الشهابي .

ـ المجموعة الثانية : عيوب النقص في الإحالة .

ـ المجموعة الثالثة : عيوب عدم التمسك بالتناظر .

ـ المجموعة الرابعة : عيوب نقص التكامل .

ـ المجموعة الخامسة : عيوب تعريف المصطلحات الجديدة .

وقد تناول الدكتور/عدنان الخطيب هذه العيوب تفصيلاً في كتابه : (المعجم العربي ـ بين الماضي والحاضر) وعقد لها أكثر من (٢٥) صفحة لمناقشة هذه العيوب تفصيلاً أجد أنه من الأفضل مراجعة القارىء لها .

معاجمنا العربية

بين « التجديد والتحديث »

(رؤية نقدية)

النقد هو الخير

كان للنهضة المباركة التي هزت أعطاف بلادنا العربية والاسلامية مع بدايات القرن العشرين وأواسط القرن التاسع عشر، وأدت إلى انتشار المعاجم العربية المطبوعة بين الناس، وقيام بعض العلماء بنقدها أو بالموازنة بينها وبالدعوة إلى تأليف معجم حديث، الأثر الحميد في إيقاظ حمية بعض الغيارى على العربية فتصدى نفر منهم لحمل عبء إعداد معجم سهل في مراجعته، موجز في عباراته، واسع في المفردات التي يشتمل عليها، وكان كل منهم يعتمد في تأليفه على بعض أمهات المعاجم القديمة مقتبساً ما يعتقد صحته مما ورد فيها، ملخصاً ما حوته من معلومات لغوية مفيدة.

وإذا كان لنا كلمة في هذا المجال نقول: ان النقد والموازنة كان لهما أكبر الأثر وأبعده في تطوير المعجم العربي وتجديده، وإذا كان الخليل بن أحمد «عبقري القرن الثاني الهجري» مبتدعاً؛ فان أصحاب المعجمات من بعده، لم تنبثق فكرة التأليف عندهم، الا بعد الإطلاع على الخطأ أو السهو أو النقص لدى من سبقهم بالتأليف، وهكذا وضع كل من الأزهري والجوهري والفيروزابادي معاجمهم اللغوية، وكان (القاموس المحيط) في طليعة المعجمات التي أورث نقدها والتعقيب عليها، أجزل الفوائد وأعظم الثمار، ويكفي الفيروزابادي فخراً أن قاموسه أثمر التعقيب عليه وشرح موجزه للعربية أضخم معاجمها التي تعتز بها، كما نتج عن نقده وكشف اخطائه عدة مؤلفات ذات قيمة بالغة، ومن الذين تتبعوا أخطاء القاموس محمد بن مصطفى داوود زاده، وهو من رجال القرن الحادي عشر للهجرة، فقد ألف كتاباً أسماه «الدر اللقيط في أغلاط القاموس المحيط» وقد عرف به د. إبراهيم السامرائي وبمخطوطته الهامة ضمن دراسة ضافية نشرها في مجلة المجمع العلمي العراقي (المجلد الثاني عشر/ بغداد/ ١٩٦٥).

ونشير إلى أن نقد المعاجم العربية ما زال مستمراً ؛ وكان من رواد النقد اللغوي في قرننا العشرين العلامة/أحمد تيمور الذي نظر في أوهام وأغلاط لسان العرب لابن منظور الإفريقي والقاموس المحيط للفيروزابادي ونشر مطالعاته هذه في أجزاء سنة ١٣٣٤ هـ و ١٣٤٣ هـ.

وهكذا أخرجت المطبعة العربية سنة ١٨٦٩ م معجماً جديداً .

« محيط المحيط » و « قطر المحيط »

في عام ١٨٦٩ م خرج هذا المعجم في جزئين ، وضعه المعلم بطرس البستاني ؛ وأسماه « محيط المحيط » ، التزم فيه عبارة القاموس المحيط مع شيء من التصرف والتهذيب إلا أنه رتبه على حروف الهجاء المعروفة بحسب أوائل الكلمات ، ولمّا وجد معجمه هذا مطولاً بالنسبة لطلاب المدارس عمد إلى اختصاره في جزء واحد وأطلق على المختصر اسم « قطر المحيط » وهنا نذكر أن كلمة « المحيط » أول من أطلقها الصاحب بن عباد وهو من رجال القرن الرابع الهجري ، خيل إليه أنه قادر على الإحاطة بمفردات اللغة العربية ، فأطلق على معجمه الذي ألفه اسم « المحيط » ثم أخذ بعد الصاحب كثير من علماء العربية ، الذين تصدوا لجمع مفرداتها يطلقون على مؤلفاتهم إسماً من أسماء البحر أو صفة من صفاته مثل :

ــ ابن سيدة المتوفى ٤٥٨ هـ من علماء القرن الخامس الهجري صاحب « المخصص » و « شرح المشكل من شعر المتنبي » أطلق على معجمه اسم « المحكم والمحيط الأعظم » .

ــ الصاغاني المتوفى ٥٥٧ هـ ببغداد والذي رتب معجمه ملتزماً خطة الجوهري في الصحاح أسمى معجمه « العباب » أو « مجمع البحرين » .

ــ الفيروزابادي المتوفى ٨١٧ هـ بزُبيد أسمى معجمه « القاموس المحيط » وهو من أحسن المعجمات نظاماً وترتيباً وإيجازاً ، واستقصاءً وإن لم يخلُ من أوهام .

وقد سمى الفيروزابادي (من إعلام القرن التاسع للهجرة) معجمه بهذا الاسم لأنه ـــ على حد تعبيره ـــ البحر الأعظم .

وقد تناولنا ذلك في الفصل الخاص بالقاموس المحيط .

نعود إلى « محيط المحيط » ومختصره « قطر المحيط » لبطرس البستاني فنشير إلى جهد مشكور قام به العلامة اللغوي الأب انستاس ماري الكرملي الذي أخذ على عاتقه تتبع هفوات البستاني وأوهامه في محيط المحيط وهو يقول لنا : « أطالع محيط المحيط مرة كل خمس سنوات وأعلق عليه ما يبدو لي وذلك منذ سنة ١٨٨٣ م ، ولم تفتني مادة من مواده ، لأني أطالعه كلمة كلمة ، فقد طالعته إحدى عشرة مرة إلى سنة ١٩٣٨ م » .

وقد تم للأب الكرملي من مطالعاته المتكررة لمحيط بطرس البستاني كتاب أطلق عليه اسم « المعجم المساعد » ، وهو عبارة عن الكلمات أو المواد اللغوية التي فاتت مصنف المحيط (محيط المحيط) جمعها الكرملي وصنفها وجعلها معجماً بين فيه بالاضافة إليها أوهام وسقطات البستاني اللغوية ؛ حاشراً بينها الكثير من الغريب والمولد والعامي حاذيا في البحث حذو بعض المستعربين من الفرنجة . وأحيل القارىء في هذا الموضوع إلى بحث الأستاذ المرحوم/محمد رضا الشبيبي الذي ألقاه في الجلسة السابعة لمؤتمر مجمع اللغة العربية القاهري في دورته التاسعة عشرة والمنشور في مجلة المجمع في الجزء التاسع (القاهرة/١٩٥٧ م) . كما أحيله إلى المحاضرة القيمة التي ألقاها الأستاذ/مصطفى جواد على طلاب قسم الدراسات الأدبية واللغوية بمعهد البحوث والدراسات العربية عن المباحث اللغوية في العراق (القاهرة / ١٩٥٤) .

الكمال يجانب « الشرتوني »

وفي سنة ١٨٩٠ م ، أخرجت المطبعة العربية معجماً آخر في جزءين وضعه العلامة سعيد الخوري الشرتوني ، أطلق عليه اسم « أقرب الموارد في الفصيح

والشوارد» ــ أخذ مادته من أمهات المعاجم، وإن كانت عبارة القاموس المحيط للفيروزابادي فيه أغلب، مع دقة في التهذيب وسلامة في الترتيب بحسب أوائل الكلمات، وما زال سعيد الشرتوني نفسه يتحرى عن أوهامه وأخطائه وسهوه ويجمع ذلك ويضم إليه ما فاته في معجمه، حتى تجمع لديه قدر كبير أخرجه سنة ١٨٩٤ م فكان جزءاً ثالثاً لمعجمه القيم مع حسن ترتيبه وسهولة مأخذه.

ورغم هذا الجهد الجاد الدوؤب الذي بذله الشرتوني ليكون معجمه سليماً من الأخطاء خالياً من العيوب لم يتحقق الكمال الذي كان ينشده، فهو بالإضافة إلى كونه أصبح قديماً لا يفي بحاجات العصر الحديث وتطوره، فإنه لم يخلُ من أخطاء ظاهرة ونواقص لا تخفى على المتخصص.

ومن الذين تتبعوا أخطاء أقرب الموارد وهناته الشيخ الجليل أحمد رضا وقام بنشر الأخطاء التي عثر عليها في (٣٠٠) صفحة من مجلة المجمع العلمي بدمشق في المجلد ٢١ سنة ١٩٤٦ (ص ١١٨) وفي المجلد ٢٢ سنة ١٩٤٧ (ص ٣٤٥).

«المُنْجِد» يريدُ مَنْ «يُنجده»!!

وفي سنة ١٩٠٨م أخرج الأب لويس معلوف معجماً مدرسياً أسماه «المنجد» وقد أعيد طبعه مرات عديدة، وهو يعتبر إلى يومنا هذا خير معجم المعاجم الأوروبية فناً، خاصة بعد أن أضاف إليه الأب فرديناند توتل سنة ١٩٥٦م ملحقاً باسم «المنجد في الأدب والعلوم» وهو معجم لأعلام الشرق والعرب، ذلك كله رغم ما في المعجم نفسه من مآخذ، ورغم ما في ملحقه من أخطاء وأوهام وذلك لأن أكثرها منقول عن مصادر أجنبية أقل ما توصف أنها منحازة وغير أمينة وهي التي اعتمد عليها الأب توتل.

وعبر هذه الصفحات نوجه نداءً إلى المشرفين على إخراج «المنجد» وتجديد طبعه للعمل على تلافي ما يشوبه من نقص وهنات، وإصلاح ما في ملحقه من أوهام وأغلاط، في طبعاته المتلاحقة.

وقد تصدى بعض الغيورين على العربية إلى بيان أوهام المنجد ومؤلفه لويس معلوف، لإبراز وبيان ما جاء في ملحقه من أخطاء تاريخية ومن هؤلاء الأستاذ منير العماري الذي كتب مجموعة مقالات في مجلة المعرفة الدمشقية في عامها الثاني ١٩٦٣م (الأجزاء الثامن والتاسع والعاشر) وفي سنتها الثالثة ١٩٦٤م الجزء (٣٠).

ومما يسجل لمديرية المطبعة الكاثوليكية في بيروت عنايتها المتزايدة في إخراج «المنجد» وعملها الدائب على تنقيحه.

وعلى سبيل المثال ان قارئاً عثر في «المنجد في الأدب والعلوم» في مادة «إسلام» على «الجهاد» محشوراً بين أركان الإسلام فعلق على هذا الخطأ في مجلة الأسبوع العربي البيروتية، ولم تمض أيام حتى كانت مادة (إسلام) مصححة مطبوعة على حدة ومرسلة إلى إدارة الأمانة العامة لجامعة الدولة العربية بالقاهرة وذلك لتوزيعها على جميع المؤسسات العلمية في الأقطار العربية المختلفة مع تأكيد مديرية المطبعة المذكورة على أنها ستبادر إلى تصحيح كل خطأ تنبه إليه في الطبعات القادمة من المنجد.

«فاكهة» من «بستان» ذابل!

في سنة ١٩٣٠م طبع في بيروت اللبنانية معجم جديد ألفه الأستاذ عبدالله البستاني بتكليف خاص من الجامعة الأمريكية أطلق عليه «البستان» صرف في ترتيبه بضع عشرة سنة فجاء في جزءين كبيرين، وقد أثبت فيه كثيراً من أسماء المخترعات الجديدة والمصطلحات العلمية، حاشداً فيه الكثير من الدخيل والمولد، واختصره في مجلد واحد أطلق عليه اسم «فاكهة البستان».

ويجيء الأب أنستاس ماري الكرملي ليصحح أخطاء البستاني صاحب البستان وأوهامه، كما فعل من قبل ببطرس البستاني صاحب «محيط المحيط»،

وكان نقد الكرملي نقداً مريراً بحق ، وجاء في إحدى مقالاته ما يلي : « والذي ثبت لنا أن هذا المعجم نسخة ثالثة من محيط المحيط ، (والثانية هي أقرب الموارد كما قلناه مراراً) والأغلاط الواردة في الأم ، واردة بعينها في الابنة مع زيادة ، نعم قد أصلح الشيخ عبدالله بعض هفوات محيط المحيط ، إلا أنه عوض عنها بأوهام شنيعة ، كرهت المطالع أن ينعم النظر في ما حرره قلمه .. »[1] .

« المتن » و « الوسيط » و « الموجز »

وفي عام ١٩٥٨م طبع معجم « متن اللغة » للمرحوم الشيخ أحمد رضا في خمسة أجزاء كبيرة ، ومقدمة طويلة بحث فيها عن مولد اللغة وتطور اللغات إجمالاً ، وعن نشأة اللغة العربية وتطورها ، واختلاف لهجاتها ، وعن أوهام الأعلام وأغلاط أئمة اللغة ، ثم بين نهجه في الكتاب ، قائلاً :

« .. وضعت أمامي تاج العروس الى جنب القاموس المحيط .. الى جنب لسان العرب ، فكنت آخذ المادة فأطالعها في القاموس مدققا بقدر الاستطاعة في شرحها في التاج واختصرها في مسودة ، ثم أعارضها بما في لسان العرب والقاموس وشرحه التاج عيالان على لسان العرب كما لا يخفى — وأحرص في الاختصار أن لا أخرج عن مرادهم ومدلول كلامهم ، ثم أنظر بعد ذلك في كتاب أساس البلاغة للزمخشري ، وفي مختار الصحاح للرازي ، وفي المصباح المنير للفيومي ، وبعد ذلك كله أثبت ما استخرجته في موضعه من كتابي هذا ، على أنني قلما أنقل من هذه الكتب الخمسة لا أنبه الى اسم الكتاب المنقول ، وأما ما أنقله عن غيرهما فإني انبه اليه والى اسم الكتاب » .

وألحق الشيخ أحمد رضا معجمه « متن اللغة » في مقدمته بجداول متعددة بين فيها مختلف الوحدات القياسية للموازين والمكاييل والمقاييس ، ثم جدولاً ذكر فيه

(١) تراجع في ذلك مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق المجلد ١١ لسنة ١٩٣١م ص ٢٢٦ .

الكلمات الطارئة على اللغة والتي عربها المؤلف أحمد رضا أو عربها مجمع اللغة العربية بالقاهرة أو في دمشق السورية أو عربها واحد من شيوخ اللغة الاجلاء.

ان معجم «متن اللغة» للمرحوم/أحمد رضا يعتبر رغم بعض المآخذ التي تؤخذ عليه يعتبر من أفضل معاجم «متن اللغة» التي أُلّفت في عصرنا الحديث، أما مصطلحات العلوم والفنون، فلم يرد منها في المعجم إلا ما كان منها له أساس بالمتن.

وعندما نقرأ التصدير الذي استهل به المشرفون على طبع المعجم الكتاب، يتضح لنا أن مؤلفه قام، بعد أن أتم تأليفه، قام باختصاره في معجمين، اسمى أولهما: «الوسيط في متن اللغة» وثانيهما: أكثر اختصاراً اسماه «الموجز من متن اللغة» وذلك تسهيلاً على الطلاب والمبتدئين في الرجوع الى مصدر مناسب لهم.

ورغم الوعد الذي قطعه أصحاب نشر المعجم على أنفسهم بطبع تراث المؤلف المخطوط فإن معجميه المختصرين لما يقم أحد بطبعهما حتى اليوم وفق معلوماتنا.

وعبر صفحات دراستي هذه أتوجه الى ورثة المرحوم أحمد رضا واعتقد أنهم على قيد الحياة ويهمهم خروج تراث والدهم العالم الجليل الى النور كي ينتفع به الناس ويدعون له بالرحمة والغفران.

«المعجم الوسيط»

أخذ كثير من العلماء يتنادون الى العمل من أجل معجم عصري:

ــ معجم غير عاجز عن مسايرة النهضة العربية الحديثة في أنحاء عالمنا العربي الإسلامي.

ــ معجم غير قاصر عن متابعة التطور الكبير في مختلف العلوم والفنون العصرية الحديثة .

معجم يُضاهي المعاجم المعروفة في اللغات الأجنبية .

ــ معجم يتسع لمصطلحات العلوم والفاظ الحضارة المعاصرة .

ــ معجم يستوعب كل جديد تدعو إليه ضرورة أو مصلحة أو يتطلبه علم أو فن .

ــ معجم يعرف مرونة لغتنا الجميلة ، يعرف أنها يسر لا عسر لا تضيق عن وصف آلة ، أو تنسيق أسماء لمخترعات ، تلك اللغة التي وسعت كتاب الله لفظاً وغاية ، وما ضاقت عن آي به وعظات .

ــ معجم يحرس الفصحى ومجدها ، معجم يهتف بالقديم وكنوزه وفضله .

ــ معجم يستند لمرونة العربية ، يحوي الجديد من المولد والمعرب والدخيل الذي يحتاجه ، على أن يجري اشتقاقه وفق قواعد القياس ، وأن يكون المعرب غير مخالف للنطق الفصيح .

ــ معجم نشير فيه بجانب كل كلمة أو مصطلح جديد الى صفته اللغوية مولداً كان أو معرباً أو دخيلاً ، قديماً في صفته هذه أو حديثاً .

ــ معجم جديد يجدد شباب معاجمنا اللغوية ، يرد لها الحياة هي ولغتنا المعطاءة .

ــ معجم نتركه للأجيال من بعدنا وثيقة جهودنا ودليل حبنا واعتزازنا بلغتنا ، لغة الدين الخالد ، لغة صاعدة ، لغة علوم متطورة .

ــ معجم يعيد النظر فيما ورد في المعجمات القديمة ، عند الاقتباس منها ، فيبعد الأوهام والأخطاء والتصحيف ، مع إهمال الغريب الحوشي .

ـــ معجم يضيق دائرة الكلمات المترادفة والمشتركة والأضداد ما أمكن ذلك .

وحاول مجمع اللغة العربية حمل العبء عبء العمل على سد هذه الثغرة، فأخرج سنة ١٩٦٠م « المعجم الوسيط » في جزءين الا أن د. عبد الصبور شاهين في محاضرته المطبوعة عن المعاجم العربية، مدارسها ومناهجها يؤرخ لخروج « المعجم الوسيط » بسنة ١٩٦٢م !! ولا أعرف من أين جاء بهذا التاريخ[1] .

ـــ أشرفت لجنة من اعضاء مجمع الخالدين باذلة جهداً كبيراً لإخراج هذا المعجم، صاغت مواده وفق القواعد والمقررات التي اتخذها المجمع في مجالسه ومؤتمراته العديدة، كما قامت بإدخال الكثير من مصطلحات العلوم المختلفة، ولكن برغم ما أريد لهذا المعجم من أن يكون لغوياً، فانه أخذ طابعاً علمياً في تعريف كثير من المصطلحات وأسماء الاعيان، مما يجعله محاولة لها قيمتها من أجل صنع المعجم الخليق بلغتنا الأم في هذا العصر، ويعطي رجحاناً على غيره من المعجمات الحديثة التأليف، غير أنه يغلب في التعريفات التي نقلها المعجم الوسيط عن المعجمات القديمة، البعد عن الطابع العلمي الدقيق، ومن هنا كانت الآراء التي نقدت المعجم.

وفي مقابلة أجريت مع الأستاذ الدكتور عدنان الخطيب سنة ١٩٦٧ وكان في معهد البحوث والدراسات العربية بالقاهرة، وجه العتاب للدكتور عدنان على نقده الحاد للمعجم الوسيط فقال يومها: « المعجم العربي ما زال حتى اليوم دون موقعه بين معاجم الأمم الأخرى، من حيث مظهره، من حيث مخبره ومحتواه[2] ، وكانت آخر محاولة لصنع معجم للعربية حديث محاولة « مجمع اللغة العربية »

---

(١) مذكرة عن المعاجم العربية، مدارسها ومناهجها للدكتور عبد الصبور شاهين، محاضرات ألقاها على طلبة الفرقة الرابعة بكلية دار العلوم/ العام الجامعي ٧٣/ ١٩٧٤ ـــ ص ١٨

(٢) راجع مقدمة هذا الكتاب.

بالقاهرة، إذ أخرج للناس سنة ١٩٦٠م، من بين عدة معاجم يعمل على صنعها «الوسيط» منها، فتهللت لصدوره وجوه الغير على العربية، وتلألأ ثغر كل محب للغة القرآن، وإذا كنت أنشر في مجلة «مجمع اللغة العربية» في دمشق، بين الفينة والفينة «نظرات» نقد في هذا المعجم، فليس في نظراتنا أي استهانة بالجهد المبذول في اخراجه، بل كلها تقدير للخطى التي خطاها معجمنا الوسيط بـ «المعجم العربي» وهي إنما بها نتغيا الكمال له، حتى لا يكون في غده المرتجى دون المعاجم الأجنبية الحديثة».

وكتب الاستاذ الدكتور عدنان الخطيب حول هذا الموضوع في كتابه: (المعجم العربي: بين الماضي والحاضر) معللاً سر حملته على «المعجم الوسيط» بأن المعجم يبعد عن الطابع العلمي الدقيق في التعريفات التي نقلها عن المعجمات القديمة ومن هنا كانت له النظرات التي ألقاها على المعجم، والملاحظات التي أخذها عليه وقام بنشرها تباعاً، في أعداد المجلد ٣٨ سنة ١٩٦٣ وما بعدها من مجلة مجمع اللغة العربية في دمشق. وكل ذلك رغبة منه في رؤية الطبعة الجديدة من المعجم الوسيط أكثر كمالاً ودقة في ترتيب المواد وتعريف المصطلحات، حتى يحتل المكان المرموق بين المعاجم الحديثة[1].

وفي محاضراته القيمة التي ألقاها بعنوان: (المعاجم العربية) على طلاب كلية دار العلوم [١٩٧٠ — ١٩٧١] يقول الدكتور محمود جاد الرب عن محاولات مجمع اللغة العربية.

«أخرج مجمع اللغة العربية معجمين أحدهما المعجم الكبير، والهدف منه أصدار معجم فيه خصائص المعجم الحديث، وجاء في المقدمة: «وأما إخراج معجم تاريخي فأمر صعب يحتاج الى أعمال تمهيدية، وطبع من المعجم الكبير جزء

---

(١) المعجم العربي ص ٥٦.

واحد فقط عام ١٩٥٦م . وأما المعجم الثاني : هو المعجم الوسيط في جزءين وطبع عام ١٩٦٠م ، وفي مقدمته أنه ألف تلبية لرغبة وزارة التربية والتعليم المصرية (وزارة المعارف العمومية سابقاً) في وضع معجم يقدم الى القارىء المثقف ما يحتاج إليه من مواد لغوية في أسلوب واضح قريب المأخذ سهل التناول ، لذا فقد أهمل الألفاظ الحديثة العربية أو غير المستعملة ... الخ » .

ونحن مع د . جاد الرب في أن المنهاج الذي سار عليه مجمع الخالدين المصري ليس جديداً ، وكنا ننظر من الهيئة العلمية المسؤلة عن مثل هذا العمل أن تتحرك بهمة اعظم ونشاط اكثر لعمل معاجم عربية شاملة وافية بكل الأغراض .

وندعو المجمع وغيره من المجامع العربية الى ضرورة أن تتكاتف جميع الجهود لهذا العمل الجبار الذي نأمل أن نراه قريباً .

أعيدوا اكتشاف هذا الرجل !!

« مقدمة لدرس لغة العرب » هذا العنوان اسم الكتاب الهام الذي وضعه الشيخ عبدالله العلايلي ، العالم اللبناني المعروف ، طبعه بالقاهرة ، بعد الحرب العالمية الثانية ، ولكن لم يشع ، بل لا يكاد يعرفه الا أهل العلم باللغة ، نظراً لندرة نسخه .

ويعالج الكتاب مجموعة من المشكلات اللغوية ، فيقدم في القسم الأول منه دراسة تأملية للغة وعلومها ومناهجها ، ويهتم كثيراً بالمعجم العربي ، وكيفية تأليفه على نهج حديث ، ولا بئس من أن يتعرض الكتاب لمناهج الدراسة في كليات الآداب ودار العلوم والأزهر ، فيقترح خطة متكاملة يمكن أن تسير عليها هذه المعاهد المتخصصة لأداء رسالتها .

ويعرض في القسم الثاني نظرته الى احداث التصور اللغوي فيعالج قضية آحادية أصول اللغة، وثنائيتها، وثلاثيتها.

ويتناول في القسم الثالث قضايا لغوية متداولة، كالسماع، والاشتقاق والقلب، والإعلال، والإبدال، والمزاوجة، وتداخل اللغات، والتعدد، والتعريب .... الخ ...

وأهم ما في هذا الكتاب روح المؤلف الثائرة على الجمود، الراغبة في التجديد، في شتى مناحي الفكر اللغوي، بقدر ما تغذيه ثقافة عصره، وطبيعة تكوينه، وقدرته على البيان.

إن افكار الشيخ جديرة بأن تقرأ وتدرس جيداً بل ان أفكاره عن الاشتقاق وتطبيقاتها المعقولة والمتكلفة أحياناً، جديرة بأن تقدم الى الكمبيوتر لاستخراج ما يمكن استخراجه منها.

كتاب هذا الرجل الهام صدر في مصر سنة ١٩٣٨م وتاريخه معروف ولكن د. عبد الصبور شاهين يقول إن: الشيخ العلايلي أو الناشر لم يذكر على غلافه تاريخ طبعه، والذي أعرفه ان الشيخ العلايلي ما زال حياً في دنيانا وأعرف ان له دراسات إسلامية حديثة، هامة وجادة صدر آخرها منذ فترة وجيزة، ولعله يكتب لنا في هذا الأمر ويعرفنا التاريخ الحقيقي لنشر كتابه السالف الإشارة إليه.

نقول: إن هناك اتجاها لغويا يدرس تطور اللغة في حركتها العامة، حيث كانت لهجات في ألسنة القبائل، ثم توحدت لهجات القبائل في صورة لغة مشتركة، عبرت عن أدبها، وحفظت تراثها، وهي دراسة اجتماعية تاريخية في المقام الأول، وإن اعتمدت على ما روي من اختلافات لهجية، تتمثل في اختلاف الظواهر الصوتية والصرفية.

ورائد هذا الاتجاه أستاذنا الدكتور ابراهيم أنيس ــ طيب الله ثراه ــ في كتابه: (اللهجات العربية).

الاتجاه الثاني يدرس تطور اللغة من خلال الكلمة العربية منذ نشأتها المفترضة حتى استوت لغة ذات قواعد وتقاليد، وهي دراسة لبنية هذه الكلمة وما كانت عليه عبر العصور، ويمثل هذا الاتجاه جورجي زيدان والشيخ العلايلي.

واعتقد ان الشيخ العلايلي ألف كتابه: «مقدمة لدرس لغة العرب» للرد على الآراء الذي ذكرها جورجي زيدان في كتابه: «الفلسفة اللغوية» الذي طبع لثالث مرة عام ١٩٢٣م.

لقد كان لكتاب العلايلي أيام صدوره دوي كبير في الندوات العلمية والمحافل الأدبية وبين المشتغلين بعلوم العربية، درس فيه مؤلفه حال العربية في عصرنا الحاضر، داعياً الى وجوب تغيير منهاج دراستنا اللغوية وطريقة قياسها في الوضع والاشتقاق وما يتبعه من أشكال الاستعمال، ونادى المؤلف بمذهب يقوم على التوسع في اللغة لتستطيع تأدية جميع متطلبات العصر الحديث، مؤكداً على أنها ستكون من أغنى اللغات الحية في مفرداتها، كما ستكون أقدرها على التعبير الدقيق في مختلف العلوم والفنون، وبين الشيخ العلايلي في كتابه الاقتراحات التي يراها من أجل صنع معجم حديث للعربية، وانتهى الى إثبات نماذج مختلفة من المعجم الجديد الذي يقترح أن تتضافر جهود العلماء على وضعه.

رجعة الى «المرجع» بعد «المعجم»

في سنة ١٩٥٤م بدأ الشيخ العلايلي في إخراج أجزاء متتابعة من موسوعة لغوية أطلق عليها أسم «المعجم» وهي موسوعة لغوية، علمية، فنية، وقد تهللت لصدورها مع الشيخ وجوه محبي لغتنا الأم، وإن كان علماؤها قد وقفوا بين مشفق على الشيخ يرتقب المدى الذي سينتهي إليه جهده، وبين مشيد بالجهد أو ناقد مشجع، كما وجد من استنكر النهج واستخف بالإبداع، وكان ما قدره البعض،

إذ وقف الشيخ عن متابعة جهوده بعد بضعة أجزاء دون إتمام حرف (الألف) من الموسوعة .

على أن الشيخ العلايلي لم يلبث أن طلع على الناس سنة ١٩٦٣ م بمجلد من معجم وسيط أطلق عليه اسم « المرجع » مُعتمداً على الأسس التي خططها بنفسه من أجل صنع معجم للعربية « خليق بإبدائها إبداءً سائغاً يكفل لها الطواعية ، وينزلها المنزلة الحية » على حد تعبيره ، ويصف الشيخ العلايلي عمله في « المرجع » بأنه : « عمل يتصل بالأساس اللغوي ويتصاعد مع اللغة تصاعدها الطبيعي الحيوي الحضاري .. فهو يكشف عن تطور اللغة في جانبها اللُغائي « الفيلولوجي » ، ثم يحقق دلالتها القديمة ويصل بينها وبين ما يحمل الذهن الحديث من طوابع ومفاهيم ، ليفرغ أخيراً الى فتح باب الاشتقاق على مصراعيه وتطبيقه بأوسع اشكاله .. » .

ــ و« المرجع » معجم علمي بمقدار ما هو لغوي ، وهو مرتب وفق المفرد بحسب لفظه ، بالرغم من أن الشيخ العلايلي اعتمد على أمهات المعجمات العربية ، ونقل التعريفات العلمية عن أوثق معاجم المصطلحات ، وكان من الطبيعي أن تعثر في « المرجع » على كثير من الهنات ، لأن المؤلف الزم نفسه عملاً لا يستطيع فرد واحد مهما بذل من جهد أن يضطلع به وحده ، ولقد كان منصفاً وصادقاً عند ما قال في مقدمة المعجم :

« ولست أزعم لمعجمي هذا ، أنه جاء على يد الكمال في منزلة السدة ، وأنما هو دأب جاهد أردت أن يكون أكمل من غيره » ويقول العلايلي ناقداً المعاجم القديمة ، وهي المصدر الرئيسي لمادته وكأنه يلقي المسئولية في حالة أي نقد يوجه إليه على هذه المادة . يقول العلايلي : « ففي المعاجم القديمة طائفة كبيرة من الأخطاء ، كما أنها لم تعرض لكثير من التراكيب التقليدية ، فوق انها هجرت المصطلح العلمي والفني هجراً تاماً » .

ان خير ما يوصف به « مرجع » الشيخ العلايلي ،ذلك الرجل الفريد الذي في حاجة الى دراسة متأنية تكشف عن درره النفيسة وجهده الخلاق — أقل ما يوصف، ما وصفه هو بنفسه إذ قال: (محاولة في جنب العربية هو هذا « المرجع ») .

وقد جاءت محاولته القيمة بمحلها من الحاجة والتساؤل ولا ينتقص من جهوده فيها الا مكابر أو جاهل، ورغم ما يرد عليها من ملاحظات فإن عيبها الأول انها لم تتم حتى كتابة هذه السطور، فقد وقفت عند مادة « جخدل » وكلنا رجاء أن نرى هذا المعجم كاملاً، في وقت قريب فإنها خطوة هامة في سبيل تحقيق المعجم الخليق بالعربية .

لقد كتب أستاذ جامعي فوصف منهج الشيخ العلايلي في اللغة بانه اقحام لاشتقاقات مخترعة على متن اللغة، تبعد المسافة بين لغتنا الحديثة ولغة القرآن، وان هذا المنهج يورطنا في اختراع عربية أخرى تتسم بالافتعال، وقد لا يتوفر لألفاظها ما تتطلب اللغة من إجماع الناطقين بها على استعمالها، فتتحول عملية التطوير المنشودة الى أكبر عملية تدمير لغوي في التاريخ !![1]

سامحك الله يا أستاذنا فقد أخطأت في حق الشيخ وأنت الآن أصبحت شيخاً مثله، لقد اجتهد العلايلي وفق طاقته، فله الأجر والثواب، اجتهد فكان اجتهاده أفضل من جهود كثيرة بذلها البعض وجانبهم الصواب، اجتهد وأعطى بصدق واخلاص منقطع النظير، علينا أن نشكر الرجل، واذا اردنا نقده ننقده بمنهجية علمية، دون تجريح أو هجوم لاذع .

تحية وتقديراً لجهد الشيخ العلايلي وها هو تراثه الثري نقدمه للباحثين في عصرنا لعلهم ينفعون به اجيالنا .

---

(١) في التطور اللغوي/ د. عبد الصبور شاهين، محاضرات ألقاها بكلية دار العلوم في العام الجامعي ١٩٧٣/ ١٩٧٤، ص ٥٣ وما بعدها .

« الرائد يحتاج الى رائد !! »

ونشير هنا الى جهود بذلها جبران مسعود أحد أساتذة اللغة العربية في لبنان الجريح ، فقد أخرج للناس سنة ١٩٦٥م معجماً أطلق عليه اسم « الرائد » قدم له بوصف الأهوال التي يعانيها الطلاب في الرجوع الى المعاجم ، وكيف حصلت لديه « بعد إعياء الحيلة وإعمال الفكر أن من وسائل إحياء العربية وإغنائها وتقريبها وخدمة مريديها والقضاء على عقوق بعض أبنائها ، وضع معجم عصري تثبت فيه الكلمات وفقاً لحروفها الأولى . فالمدرسة نكشف عنها :

في باب « الميم » .
و« درس » في باب « الدال » .
و« تدارس » في باب « التاء » .

مع مراعاة الربط بين الكلمات ذات الأصل الواحد ما أمكن الربط ، يضاف الى هذا التغيير في المظهر تعديل في الجوهر يبقي على المعاني المتوارثة المقبولة ، ولكي تسهل الشروح فلا يكون الشرح اصعب من الكلمة المشروحة ، وتنظيم المعاني بحيث يراعي في تقديمها أو تأخيرها أولية النسبة العربية أو أفضلية الشيوع . هذا فضلاً عما يضاف الى المعاني من معان مستحدثة في اللغة وعلومها ، وما يضاف من كلمات جديدة ، صحيحة النسبة العربية ، تحمل من جنى التطور والنحت والاشتقاق والاختصاص ، ومن لقاح الاحتكاك الحضاري ، ما لا يمكن إغفاله أو طرحه » .

ويمضي الأستاذ جبران مسعود مؤلف الرائد قائلاً : « وهكذا بدأته وفي ضميري معاني الثورة والحب والتضحية » . ثم يشرح المقصود بالثورة والحب والتضحية عنده : « الثورة على كل بال يؤخر نمو الفصحى و يباعد ما بينها وبين مريديها » .

« والحب لكل ما من شأنه النفع والخدمة وفتح مسارب العافية » .

« والتضحية بالوقت وبالشباب لبلوغ نهاية الأرب ... » .

ــ ما نقلناه من مقدمة الرائد لعله يكشف لنا عن الجهود التي بذلها السيد مسعود . أما من الناحية المُعجمة المتصلة بالمعجم العربي الحديث، فالرائد لا يخرج عن كونه معجماً عادياً مدرسياً حديثاً تسهل مراجعته، وهو وإن كان مصنفاً باللغة العربية بغرض مساعدة طلاب المدارس في فهم كثير مما يستعجم عليهم من الكلام، إلا أن نهجه، إذا ما شاع ــ والعياذ بالله ــ كما يريد له السيد مسعود، فإنه كفيل بقطع صلة الأجيال الصاعدة بالمعجم العربي، بل ينفرها من لغتنا الجميلة، ولعل مؤلفه ان كان على قيد الحياة يعود الى تقويمه، إن كان حقاً ــ كما يزعم ــ من الغيورين على العربية من عقوق ابنائها .

« الأفوكاتو» و « البسطرمة » في الرائد

مثال على الترتيب الذي أخذ « الرائد » به، كلمة (استعرب) تثبت في مادة (ا س ت ع ر ب)، وكلمة (مستعرب) تثبت في مادة (م س ت ع ر ب)، وكلمة (تعريب) تثبت في مادة (ت ع ر ي ب)، وكلمة (عرب) تثبت في مادة (ع ر ب) .

ويظهر ان السيد مسعود يؤمن تمام الايمان بالأسلوب الانتقائي الحديث في ذكر المعاني المقبولة لديه فجعل كلمة (استعرب) مثلاً ترد هكذا :

استعرب ، استعراباً ، عرب :

١ ــ صار دخيلاً في العرب .

٢ ــ عني بدراسة علوم العرب وآدابهم وتاريخهم وحضارتهم .

٣ ــ تكلم بالقبح والفحش .

وتبعاً لفكرة إغناء العربية بالمفردات، فقد أثبت في معجمه كلمة (بسطرما) مثلاً، كما أثبت كثيراً غيرها في المعجم دون إشارة الى أنها من الدخيل.

مثال أخير كلمة (تلفن) فقد أثبت تعريفها كما يلي: (تلفن تلفنةً:

١ ـ تكلم بالتليفون.

٢ ـ تكلم إليه: خاطبه بالتليفون.

وكذلك عرف السيد مسعود كلمة (المسرة) بما يلي:

١ ـ آلة جوفاء يسار فيها (أو يُسر فيها).

٢ ـ التليفون = الهاتف.

وعرف كلمة (الهاتف) بأنها: آلة تنقل الكلام أو الأصوات الى بعيد وتعرف بـ «التليفون».

ـ وهناك شجرة مثمرة امريكية الموطن تعرف في اللغات الأوربية باسم (المحامي أو كمثري المحامي) ولكن الرائد عرفها كما يلي:

(الأفوكاتو: شجرة مثمرة في البلاد الحارة، ثمارها لذيذة على شكل الاجاص).

ويظهر أن من التجديد الذي جاء به الرائد تعريف أسماء الأشهر:

ـ **شعبان:** هو الشهر الثامن من السنة القمرية أيامه ٢٩ يوماً !!

ـ **رمضان:** هو الشهر التاسع من السنة القمرية أيامه ٣٠ يوماً !

ـ **ربيع الأول:** الشهر الثالث من السنة الهجرية أيامه ٣٠ يوماً ! ومن التجديدات العبقرية للسيد مسعود!

ـ الاسبوع هو:

١ ـ مجموعة الأيام السبعة المبتدئة بالأحد والمنتهية بالسبت!

٢ ــ عند المسلمين: ذكرى انقضاء سبعة أيام على وفاة امرىء ما ويحتفل بها عادة في منزل الفقيد بتلاوة ما يتيسر من آي الذكر الحكيم !!!

وأخيراً نرى أن دعوة الإبقاء على ما جاء في المعجمات القديمة من تعريفات مقبولة جعل الرائد يثبت بأن (الدلب) هو: (شجر عظيم عريض الورق لا زهر له ولا ثمر) ولو كان هذا التعريف غير مقبول علمياً .

وبعد ذلك ألا يجد القارىء العزيز معي أن معجم الرائد في حاجة الى رائد ؟!!

أهم المراجع والمصادر

ابن خلدون: المقدمة (مقدمة ابن خلدون) طبعه دار الشعب، تحقيق د. وافي.

ابن دريد: الاشتقاق، تحقيق الاستاذ/عبد السلام هارون، القاهرة ١٩٥٨.

كتاب الجمهرة (٤ أجزاء) نشرت في بيروت بدون تاريخ عن الطبعة الأولى بحيدر أباد.

ابن سيدة: المحكم والمحيط الأعظم في اللغة، تحقيق الاستاذين مصطفى السقا، حسين نصار وآخرين. القاهرة (٥ أجزاء).

ابن النديم: كتاب الفهرست، تحقيق المستشرق جوستاف فلوجل، طبعة أولى، ١٩٧١ عن طبعة بيروت بدون تاريخ.

ابن يعيش: شرح المفصل (١٠ أجزاء في مجلدين) تحقيق مشيخة الأزهر بدون تاريخ.

ابو عمرو الشيباني: كتاب الجيم، تحقيق الاستاذ ابراهيم الابياري وآخرين (٣ أجزاء) القاهرة ١٩٧٤ ــ ١٩٧٥ (وهو للهروى أصلاً).

الازهري: تهذيب اللغة، تحقيق الاستاذ عبد السلام هارون وآخرين. (١٥ جزءاً) القاهرة ١٩٦٤ ــ ١٩٦٧.

الأصمعي: كتاب الاشتقاق، تحقيق الدكتورين: رمضان عبد التواب، وصلاح الهادي. القاهرة ١٩٥٨.

الأصمعيات، تحقيق الاستاذ أحمد محمد شاكر، طبعة ثانية القاهرة ١٩٦٤.

الثعالبي : فقه اللغة ، ط ٤ ، تصحيح الأب لويس شيخو اليسوعي . بيروت .

الجوهري : الصحاح ، تحقيق الاستاذ أحمد عطار (٣ أجزاء) .

السيوطي : الإتقان في علوم القرآن . طبعته الهيئة المصرية العامة للكتاب (سلسلة التراث للجميع) القاهرة .

المزهر في علوم اللغة وانواعها ، تحقيق الاستاذ محمد أحمد جاد المولى وآخرين (في جزءين) القاهرة ١٩٥٨ .

د . حسين نصار: المعجم العربي في جزءين .

د . عدنان الخطيب : المعجم العربي بين الماضي والحاضر ، القاهرة ١٩٦٧ .

اليونسكو: الدليل الببلوجرافي للقيم الثقافية العربية — مرجع للدراسات العربية ، مركز تبادل القيم الثقافية بالقاهرة نوفمبر ١٩٦٥ .

ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث والأثر — القاهرة ، المطبعة العثمانية ، ١٣١١ هـ ، ٤ مجلدات .

ابن السكيت : اصلاح المنطق — القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٥٦ م .

ابن سلام : كتاب الغريب المصنف . مخطوط بدار الكتب .

ابن سيده : المخصص . القاهرة ، المطبعة الاميرية ١٣١٦ — ١٣٢١ هـ ، ١٧ مجلداً .

ابن فارس : المقاييس في اللغة . القاهرة ، ١٣٦٦ هـ ، ٦ مجلدات تحقيق : عبد السلام هارون .

ابن منظور: لسان العرب . القاهرة ، المطبعة الأميرية ١٢٩٩ — ١٣٠٨ هـ ، ٢٠ مجلداً .

ابو زيد : النوادر في اللغة . بيروت ، مطبعة اليسوعيين ، ١٨٩١ م ، تحقيق سعيد الخوري الشرتوني .

الجواليقي : المعرب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم . القاهرة ، مطبعة دار الكتب المصرية ، ١٩٤٢ م .

الخليل بن أحمد : (العين) تحقيق د . عبد الله درويش .

الزبيدي اليمني : تاج العروس ، القاهرة ، ١٣٢٩ هـ ، ١٠ مجلدات .
الزمخشري : أساس البلاغة . القاهرة ، مطبعة دار الكتب المصرية ، ١٣٤٠ هـ ، مجلدان .
الفائق في غريب الحديث ، بتحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم وعلي محمد البجاوي . القاهرة ، دار احياء الكتب العربية ، ١٣٦٦ هـ ، ٣ مجلدات .
محمود جاد الرب : مذكرات في المعاجم العربية ، القاهرة ، ١٩٧٠ م .
د . عبدالله درويش : المعاجم العربية ، القاهرة .
مجموعة من الباحثين الانجليز: دائرة المعارف البريطانية .
د . محمد سالم الجرح : محاضرات في المعجم العربي ، ١٩٦٦ .
مجموعة من الباحثين الامريكيين : دائرة المعارف الأمريكية .
الصاحب بن عباد : الكشف عن مساوىء شعر المتنبي ، تحقيق الشيخ محمد آل ياسين . ط أولى ، بغداد ١٩٦٥ .
الفارابي : كتاب الحروف ، تحقيق د/محسن مهدي . بيروت ١٩٦٩ .
ديوان الأدب ، تحقيق د/أحمد مختار عمر (٤ أجزاء) القاهرة ١٩٧٤ — ١٩٧٩ .
الفيروزأبادي : القاموس المحيط (٤ أجزاء) تصحيح الشيخ الشنقيطي ، المطبعة الاميرية بالقاهرة بدون تاريخ .
ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، طبعة أخيرة ، نشره الاستاذ فريد الرفاعي (٢٠ جزءاً) القاهرة ١٩٣٦ — ١٩٣٨ .
د . ابراهيم أنيس : من أسرار اللغة ، ط ٣ ، القاهرة ١٩٦٦ .
الاصوات اللغوية ، ط ٦ ، القاهرة ١٩٨٤ .
د . ابراهيم محمد نجا : المعاجم اللغوية ، ط ٣ ، القاهرة ١٩٧٤ .
ادوارد لين : On Arabic - English Levicon 2 vols.
Edinburgh, London 1863 - 1874

د. أحمد طاهر حسنين: نظرية الاكتمال اللغوي عند العرب، القاهرة ١٩٨٧.
د. أحمد مختار عمر: البحث اللغوي عند العرب ــ القاهرة ١٩٧٦.
د. تمام حسان: اللغة العربية معناها ومبناها، القاهرة، ١٩٧٩.
مناهج البحث في اللغة ــ القاهرة، ١٩٥٥.
د. السعيد محمد بدوي: مستويات العربية المعاصرة في مصر ــ القاهرة ١٩٧٣.
د. عبد الحميد طلب: تهذيب النحو (في جزءين) بدون تاريخ.
د. عبد الحميد الشلقاني: الأعراب الرواة ــ القاهرة ١٩٧٧.
د. عبد الرحمن السيد: مدرسة البصرة، نشأتها وتطورها، القاهرة ١٩٦٨.
د. عبد الصبور شاهين: دراسات حول القرآن ــ ط اولى القاهرة.
مذكرة في التطور اللغوي، القاهرة ١٩٧٣.
د. كمال بشر: أعماله الكاملة في علم اللغة.
مجمع اللغة العربية: المعجم الكبير، القاهرة.
محمد الطنطاوي: نشأة النحو وتاريخ اشهر النحاة، ط ٢ القاهرة ١٩٤٧.
د. محمد عيد: النحو المصفى، القاهرة، ١٩٧٠.
السيوطي: بغية الوعاة
القفطي: انباه الرواة
ابن خلكان: وفيات الأعيان
الجبرتي: عجائب الآثار في التراجم والأخبار، طبع مطبعة الأنوار المحمدية بالقاهرة، ٤ أجزاء.
د. البدراوي زهران: مقدمة في علوم اللغة، ط ٢، دار المعارف.
عالم اللغة عبد القاهر الجرجاني، ط ٣، دار المعارف.
الرازي: مختار الصحاح، ط ٩، بترتيب السيد محمود خاطر، وزارة المعارف العمومية.
أحمد عطية الله: دائرة المعارف الحديثة، مكتبة الانجلو المصرية، ١٩٧٥.

ملحوظة : هذه بعض من المراجع والمصادر اكتفينا بذكرها على أننا قد أشرنا في أثناء البحوث التي تناولها الكتاب للمرجع أو للمصدر الذي عدنا إليه .

يسرى عبد الغني

القاهرة في مغرب الجمعة

الجمعة ٢١/ابريل/١٩٨٩م

١٤/رمضان/١٤٠٩هـ

فهرس المحتويات

صفحة